الدكتور
نور الدين عتر
رئيس قسم علوم القرآن والسنة
بجامعة دمشق

التفسير وعلوم القرآن

الطبعة الثالثة



١٤١٧ - ١٤١٨ هـ
١٩٩٧ - ١٩٩٨ م

منشورات جامعة دمشق

الدكتور
نور الدين عتر
رئيس قسم علوم القرآن والسنة
بجامعة دمشق

التفسير وعلوم القرآن

منشورات جامعة دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين أنزل على عبده الكتاب هدى للناس ، ومنارة في ظلمات الحياة ، فكان نبراساً للحضارة ، وفاتحاً لأبواب العلوم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تتبعهم باحسان الى يوم الدين وسلم تسليما .

اما بعد :

فان تفسير القرآن الكريم من أعلى العلوم ، بل هو أصل العلوم الشرعية . كما أنه لأجله وجدت علوم العربية . وبه فتحت مغاليق التقدم في علوم الكون والحياة والحضارة ، ومن هنا كان للتفسير مكانة تجعله في الصدارة ويحل من علوم الاسلام محل الأساس . ووضعت له دراسات تقعد قواعده وتواصل أصوله . وتطلع دارس القرآن وقارئه على أمور القرآن وأحواله لتساعد على فهمه وتزيد اليقين به . مما أسماه العلماء « علوم القرآن » .

ونتناول في هذا الكتاب تفسير مجموعة من سور القرآن ، ودراسة أصول تفسيره والمعارف التي تتصل به التي هي علوم القرآن . وفق المنهاج المقرر للسنة الأولى في كلية الشريعة .

ونقسم الكتاب الى قسمين :

القسم الأول : في تفسير القرآن .

القسم الثاني : في علوم القرآن .

القسم الأول

تفسير القرآن الكريم

تتناول في هذا القسم دراسة مايلي :

- الاستعاذة .
- البسملة .
- سورة الفاتحة .
- سورة لقمان .
- سورة تبارك .
- سورة ن .
- سورة المزمل .
- سورة النبأ .
- سورة عبس .
- سورة البروج .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

الاستعاذة : شعار يتحرر به المسلم عن كل مكروه ديني أو دنيوي .

والصيغة المشهورة للاستعاذة : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » واختار بعض العلماء : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، أخذاً من آية « فاستعذ بالله انه سميع عليم » . والاستعاذة ليست آية من القرآن بأي صيغة من صيغها .

المفـــردات :

أعوذ : أي أحتمي وأتحصن وألجأ .

اللـــه : لفظ الجلالة اسم علم على ذات الرب المعبود بحق جل جلاله لم يُسَمَّ به غيره تبارك وتعالى ولذلك لم يثنَّ ولم يُجْمَع وهو اسم جامع لصفات الكمال الجلالية والجمالية وهو أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها حتى قال بعض العلماء إنه اسم الله الأعظم .

الشيطان : مأخوذ من « شطن » على الرأي الراجح عند العلماء ومعنى شطن : بَعُد . وقيل : من شاط بمعنى احترق .

والشيطان : بعيد عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير غاية البعد حتى تمحض للشر عياذاً بالله تعالى فسمي لذلك شيطاناً .

الرجيم : مأخوذ من الرجم وهو الرمي بالحجارة أو غيرها أو الرمي بالقدح والذم . ومعناه المرجوم بالذم واللعن .

معنى الاستعاذة :

أستجير وأحتمي وأتحصن بجناب الله المعبود بالحق من الشيطان الشرير البعيد عن الخير الملعون أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن حق يلزمني لربي •

ولا تخفى مناسبة « السميع العليم » في الصيغة الأخرى • أي أنك ياالله سميع لما يوسوس به الشيطان عليم بدسائسه ووسائله الخبيثة فأدخلني في حصنك وحمايتك منه •

حكم الاستعاذة :

حضت الشريعة المسلم على التعوذ عند كل أمر مهم كما دلت على ذلك النصوص الشرعية ومن أهم ذلك مايلي :

١ ــ التعوذ عند قراءة القرآن في غير الصلاة :

لقوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » وظاهر الآية وجوب الاستعاذة لانها بصيغة الأمر،لكن العلماء قالوا إنه محمول على السنة لأنه لم يرد في حديث المسيء صلاته [1] ويكون التعوذ بالسر إذا قرأ سراً ويجهر به في الجهر بحضرة من يسمع واذا كانت القراءة بالدور فيكتفى بجهر أول واحد ثم يُسِرُّ بها مَن جاء دوره بعده لتتصل القراءة • واذا قطع القراءة بقاطع أجنبي أعاد التعوذ •

٢ ــ التعوذ في ابتداء الصلاة :

هو سنة أيضاً وموضعه بعد دعاء الاستفتاح ويقرأ الاستعاذة سراً سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، عند الجمهور ، ومنهم الحنفية والشافعية •

---

(١) أحكام القرآن للرازي الجصاص ج٣ ص٢٣٦ • وانظر دراسة الحديث المشار إليه في كتابنا « دراسات تطبيقية في الحديث النبوي ــ العبادات » •

٣ ـ تستحب الاستعاذة أيضاً في عموم الأحوال كلما عرض للانسان مايشوشه أو يقلقه من شيطان وغيره كما تستحب للتحصن من كل مايضل الانسان أو يعوبه لقوله تعالى : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم » • ومن ذلك هذه التعوذات الثابتة في الأحاديث الصحيحة :

أ ـ (••• اللهم إني أعوذ بعزتك لا إلـه إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لايموت ، والجن والانس يموتون) متفق عليه •

ب ـ (اللهم إني أعوذ بك من الهرم والتردي ، والهدم ، والغم ، والحريق ، والغَرَق ، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت ، وأن أقتل في سبيلك مدبراً ، وأعوذ بك أن أموت لديغاً) •

« أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم »

جـ ـ (اللهم إني أعوذ بك من الفقر ، والقلة ، والذلة ، وأعوذ بك من أن أظلِم أو أُظْلَم) •

« أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه »

د ـ (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والهرم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) •

« متفق عليه [1] »

★ ★ ★

---

(١) انظر الاستزادة في تفسير الاستعاذة كتابنا تفسير سورة الفاتحة وانظر كتاب الدعاء لفضيلة استاذنا الشيخ عبد الله سراج الدين •

بسم الله الرحمن الرحيم

قرآنية البسملة :

أجمع العلماء قاطبة على أن البسملة هي الصيغة المعروفة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وأنها آية من سورة النمل في قوله تبارك وتعالى : (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) .

وأجمع العلماء على كتابتها في المصحف عند افتتاح كل سورة إلا سورة براءة ، مع اجماعهم على تجريد المصحف عن كل ما ليس بقرآن ، فاستدل بذلك على كونها آية في كل تلك المواضع . واتفق على ذلك جماهير العلماء .

لكن اختلفوا : فقال الشافعي وأحمد في رواية عنه واسحاق بن راهويه وغيرهم : إنها آية من كل سورة إلا سورة براءة ، بدليل كتابتها .

وقال الحنفية والمالكية والحنابلة وداود الظاهري : إنها آية مستقلة في أول كل سورة وليست منها .

لما أخرج أبو داود باسناد صحيح والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم » .

البسملة : شعار يقصد به المسلم الاستعانة بالله لتحصيل مقصوده ، فيقول عند ابتداء كل أمر : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

معنى البسملة :

بسم : حرف الباء حرف جر ، ولابد للجار من فعل أو شبه فعل يتعلق به •

والمختار عندنا في ذلك هو ماذهب إليه كثير من العلماء والمحققين ، وهو مذهب الامام الطبري : إن حرف الجر يتعلق بفعل محذوف يدل عليه الشيء الذي وقعت عنده التسمية ، فاذا كان قراءة فالتقدير باسم الله أقرأ ، واذا كان ركوباً فالتقدير باسم الله أركب ••• وهكذا • وقد حذف هذا الفعل للاستغناء عن ذكره بدلالة الحال عليه •

وأما المقصود من الباء في البسملة فالأقوى في تفسيرها عندنا معنيان جليلان ، هما الاستعانة والمصاحبة أو التبرك ، والراجح أنها للاستعانة • والمعنى مستعيناً بالله الرحمن الرحيم أفعل كذا ، أو أفعل كذا مستعيناً بالله ••• (1) •

الرحمن الرحيم : صفتان مشبهتان بنيتا على وزن فعلان وفعيل ، لافادة المبالغة • وهاتان الصفتان اللتان هما لله عز وجل تفيدان اتصافه تعالى برحمة بالغة لا حدود لها ولا نهاية •

قال المفسرون : إن الرحمن أكثر مبالغة في الرحمة ، لأنه أكثر حروفاً من الرحيم . أي أنها تدل على زيادة الرحمة أكثر • والقاعدة اللغوية تقرر « أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى » •

فكيف نفسر كلاً منهما بناءً على هذا الأساس ؟ •

ذهب الجمهور الى أن المقصود « بالرحمن » الرحمة العامة للعباد كلهم بكل أنواع الرحمات • والمقصود « بالرحيم » الرحمة الخاصة بالمؤمنين ، لقوله تعالى : « وكان بالمؤمنين رحيماً » • وقيل غير ذلك مما لا نطيل به •

حكم البسملة :

تطلب التسمية في ابتداء كل مهم من أمور الدين والدنيا ، ومن ذلك :

---

(1) راجع الآلوسي .

١ ــ في ابتداء ركعات الصلاة قبل الفاتحة :

وهي واجبة عند القائلين بأنها آية من سورة الفاتحة كالشافعية : وسنة عند غيرهم كالحنفية .

ومن قال إنها من الفاتحة فإنه يقول بأنه يجهر بها في القراءة الجهرية . وغيرهم قال بأنه يسر بها . وهذا الخلاف يسير : لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر بها .

٢ ــ في أول الوضوء أيضاً :

كما جاء في مسند أحمد والسنن إلا النسائي من رواية أبي هريرة وسعيد بن زيد وأبي سعيد الخدري مرفوعاً « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه [١] » قال الحافظ ابن كثير وهو حديث حسن [٢] .

والجمهور على أنها سنة في الوضوء وقال أحمد في رواية : البسملة واجب في أول الوضوء لظاهر الحديث . وظاهر مذهب أحمد أنها سنة [٣] .

وهو الأقوى ، لأن النبي ﷺ لم يعلمها للناس في أحاديث تعليمه الوضوء .

---

(١) أخرجه أبو داوود عن أبي هريرة ج١ ، ص٢٥ ، والترمذي من حديث سعيد بن زيد ج١ ص٣٧ ــ ٣٨ ، وابن ماجه من حديث أبي هريرة وسعيد وأبي سعيد وسهل بن سعد ج١ ص١٣٩ ــ ١٤٠ .

وقد توسع الحافظ الزيلعي فخرج الحديث عن هؤلاء الصحابة ، وزاد روايته من حديث أبي سبرة . انظر نصب الراية ج١ ص٣ ــ ٨ .

(٢) تفسير ابن كثير الجزء الأول ، في تفسير سورة الفاتحة .

(٣) المغني لابن قدامة ج١ ص١٠٢ . وقد تساهل من أطلق نسبة وجوب التسمية لمذهب الامام أحمد ، كما وقع في سبل السلام ج١ ص٥٣ .

٣ ــ في ابتداء كل أمر مهم : كالطعام ، والشراب ، وعلى مرافق البيت عند النوم ، وغير ذلك مما صحت به الأحاديث .

ومما ورد في ذلك :

أ ــ قوله ﷺ : (ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل « بسم الله » ثلاثاً ، وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر) .

« أخرجه مسلم »

ب ــ عند النوم : (باسمك ربي وضعت جنبي ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) .

« متفق عليه »

جـ ــ قال ﷺ : (ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة : « بسم الله الذي لايضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم يضره شيء) .

« أخرجه الأربعة إلا النسائي وابن حبان والحاكم [1] »

* * *

(١) أنظر للاستزادة كتابنا « تفسير سورة الفاتحة » . وكتاب الدعاء لفضيلة أستاذنا الشيخ عبد الله سراج الدين .

سُورَةُ الفَاتِحَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

وَآيَاتُهَا سَبْع

تفسير سورة الفاتحة

تسمية السورة :

تعددت أسماء سورة الفاتحة تعدداً كثيراً لم يكن لغيرها من سور القرآن ، وذلك لتعدد جوانب خصوصياتها وفضلها . ومن أشهر أسمائها :

سورة الفاتحة : لكونها فاتحة القرآن وفاتحة القراءة في الصلاة .

سورة الحمد : لاشتمالها على حمد الله والثناء عليه سبحانه وتعالى .

أم الكتاب ، أم القرآن ، السبع المثاني : لما ثبت في الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول ﷺ : « الحمد لله رب العالمين » هي أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني »[1] .

نزول السورة :

سورة الفاتحة مكية كلها على الصحيح الذي عليه أكثر العلماء . ويدل على ذلك قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » . وهذه آية مكية من سورة الحجر اتفق على أنها مكية بتمامها . وقد امتن الله في هذه الآية بسورة الفاتحة على النبي ﷺ وسماها (سبعاً من المثاني) فدل على أنها مكية بتمامها وأنها سبع آيات .

---

(1) أخرجه أبو داوود في أبواب تنزيل القرآن من كتاب « الصلاة » باب فاتحة الكتاب ج٢ ص٧١ . وصححه الطبري في تفسيره ج١ ، ص٤٧ . وأخرجه أحمد في المسند ج٢ ص٤٨٨ كلاهما بنحوه تقريباً .

الأبحاث اللغويــة :

الحمد : الحمد معناه في اللغة هو الثناء الحســن الجميل على المحمود بصفاته وأفعاله ، وجعل بعض العلماء هناك فرقاً بين الحمد والمدح والشكر ، وهــو : أن الشكر يكون للأفعال الحميدة • تقول : شكرته على مساعدته أو إحسانه إليّ مثلا ، والمدح يختص بالصفات ، كأن يمدح الانسان لحسن خلقه أو علمه أو فضله •

كما أن الحمــد يشــمل الصفات والأفعــال فكان أشــمل من المــدح ومن الشكر (١) •

ربّ : الرب في الأصل مصدر بمعنى التربيــة وهي تنمية الشيء حالاً فحالاً حتى يبلغ كماله المقدر له • ثم وصف الرب بهذه الكلمة على صيغة المصدر للمبالغة ، كما هو في قولهم : رجل عدل أي عادل والمعنى ، المربي للعالمين غاية التربية •

والرب هو المالك أيضاً والسيد (١) • ونحن نرجح التفســير الأول رب العالمين أي مربي العالمين ويؤيد ترجيحه أن تفســير الرب على معنى التربيــة هو الأصل في الكلمة ، ومنه أخذت الاطلاقات الأخرى (٢) •

العالمين : جمع عالم ، و « العالم » يطلق على كل موجود سوى الله عز وجل • ويطلق عــلى كل صنف من أصناف المخلوقات « عالم » ، مثل عالم الســماء ، عالم الانسان ، عالم الملائكة ، عالم النحل ، وكل قرن وجيل عالم أيضاً •

---

(١) أنظر هذه التفرقة الأخيرة في الالوسي ج١ . ص٦٠ ــ ٦١ •
وأما ادعاء الزمخشري ومن وافقــه أن الحمد خاص بأن يكون باللســان فقد نازعــه الالوسي واختار الالوسي أن الحمد إظهار الكمال باللسان أو بغيره • أنظر تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ص٥٩ ــ ٦٠ •

(٢) انظر للتوسع البحر المحيط لأبي حيان ومثل اختياره في التسهيل لابن جزيّ • وانظر روح المعاني للألوسي ج١ ص٦٦ •

(٣) أنظر التوسع في تفسيرنا لسورة الفاتحة ، وحاشية الكازروني على تفســير البيضاوي ج١ ص٢٦ . وجامع البيان في تفسير القرآن للطبري •

والمـراد بالعالمين هنـا كل أصناف المخلوقات العلويـة والسـفلية ، الظاهرة والباطنة ، ماعلمنا منها وما لم نعلم .

مالك يـوم الدين : قـرأ طائفـة من القراء (مالك) بالألف . وقـرأ طائفة (مَلِكِ) وكلاهما صحيح متواتر .

والفرق بينهما أن قراءة « مالك » تفيد معنى المِلك بكسر الميم ، من التملك ، أي إنك ياألله تملك الكون كله والحكم والتصرف يوم الدين . وقـراءة « ملك » من المُلك بضم الميم وهو السـلطة ، أي إنك صاحب السـلطة القاهرة ، والحكم النافذ يوم الدين .

الـدين : الجـزاء على الأعمال والحسـاب بها . كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وقتادة وغيرهم [1] .

إياك نعبد : إيا ضمير منفصل مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدم والكاف حرف خطاب . والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل .

اهدنا : الهداية هي الدلالة الموصلة ، والمراد هنا : وفقنا .

الصراط : في قـراءة متواترة السراط بالسـين ، وهو الأصل . ثم قلبت السـين صاداً فصـارت « الصراط » وهي لغة قريش ، وهـو الثابت في المصحف الامام . ومعنى الصراط في اللغة الطريق .

الصراط المسـتقيم : معنى الصراط المسـتقيم في اللغـة : الطريق الواضـح السوي . أما المراد به هنا في الآية فقد تعددت فيه عبارات المفسرين : روي عن علي وعبد الله بن مسعود أنه كتاب الله ، وقال جماعـة من الصحابة ومن بعدهم : هـو

---

(١) تفسير القرطبي ج١ ص١٤٣ .

الاسلام . وقيل غير ذلك من أقوال ، تتفق معانيها في المآل ، ولا تخالف ما ذكرناه[1] .

أنعمت عليهم : الانعام : إيصال الاحسان الى الغير من العقلاء فقط . و « الذين أنعمت عليهم » أي بطاعتك وعبادتك وأنواع الاحسان .

غير : بدل من الذين و (لا) لتأكيد النفي المستفاد من غير .

المغضوب عليهم ولا الضالين : ينطبق على كل فرق الكفر كما سنوضحه في تفسير المعاني فهم مغضوب عليهم كلهم وضالون أيضاً عن طريق الحق تائهون . وورد تفسير « المغضوب عليهم » باليهود « والضالين » بالنصارى ، وثبت ذلك عن النبي ﷺ .

المعنى والأسلوب :

يأمر الله عبده المؤمن في مطلع السورة أن يفتتح بالتوجه له بأفضل الثناء الحسن الجميل وأبلغه فيقول :

(الحمد لله رب العالمين) : وعبر عن هذا الثناء بلفظ الحمد ليكون شاملاً معاني المدح على الخصال والشكر على جميل الفعال ، كما قدمنا فكان التعبير بكلمة الحمد أبلغ من أية كلمة أخرى .

ثم وردت كلمة « الحمد » محلاة بأل وهي هنا على التحقيق كما رجح المحققون للاستغراق[2] فأفادت العبارة بهذا التعريف معنى كلياً مستغرقاً أي شاملاً كل حمد وكل شكر ومدح في العوالم سواء عرفه الانسان أم لم يعرفه ، فهو ثابت ومستحق لله سبحانه .

---

(1) أنظر تفصيلها وبيان الترفيق بينها في تفسير ابن كثير .

(2) أنظر البحث في « ال » هذه هل هي للجنس أو للاستغراق وتحقيق ذلك في تفسير الآلوسي وقوله . « المحققون المحقون على تعميم الحمد » ج1 ص62 ـ 64 .

(رب العالمين) : أي مربي العالمين ، فهو سبحانه خالق العوالم ومدبر أمورها كلها ، العوالم السماوية والأرضية وما بينها وما فيها ، مما نعلم وما لا يعلمه أحد ، وذلك يشير الى أن كل العوالم مفتقرة الى اللـه لبقائها ، كما أنها افتقرت إليه لابتداء وجودها (١) •

(الرحمن الرحيم) : « الرحمن » المتصف بالرحمة التي لا نهاية لها في ذاته • « الرحيم » الذي وسعت رحمته كل شيء • أو « الرحمن » بالرحمة العامة « الرحيم » بالرحمة الخاصة كما قال : (وكان بالمؤمنين رحيماً) • وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لرحمة اللـه تعالى ، فقال كما في الصحيحين عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق ، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » •

متفق عليه (٢)

(مالِكِ يَوْمِ الدين) : هذا أصل اعتقادي جليل ، وهو ركن من أركان الايمان ، يفيد وصفه تعالى بغاية السلطة والقهر والاستيلاء ، فهو سبحانه المالك والمتصرف المطلق في العوالم كلها في هذه الدنيا ، وفي يوم القيامة ، وفيما بعده •

وهكذا جاءت هذه الصفات الثلاثة : « رب العالمين •• الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » في موقع غاية في الفخامة والحكمة والإحكام الفني بين « الحمد لله » وبين « إياك نعبد وإياك نستعين » حيث اشتملت على نَعْتِه تعالى بجمل من صفات الجمال والجلال تدل على أنه ليسَ أحدٌ أحقَّ منه بالحمد والثناء عليه ، كما أنها تشير الى أنه وحده سبحانه يستوجب العبادة والاستمداد منه • فقال بعد ذلك :

---

(١) من تفسير البيضاوي ج١ ص٢٧ •

(٢) البخاري ج٨ ص٨ ، ومسلم بنحوه ج٨ ص٩٦ •

(إياك نعبد وإياك نستعين) : وقد أفادت هذه الآية توحيد الله تعالى في العبادة وتوحيده في الاستعانة والاستمداد منه ، وذلك بتقديم ضمير المفعول به « إياك » . وهو يفيد الحصر ، والمعنى نعبدك وحدك ، ولا نعبد أحداً غيرك ، ونستعين بك وحدك ولا نستعين بأحد غيرك ، وذلك هو لب الدين ومحور أركان الايمان والاسلام .

وههنا سؤال مشهور بحثه العلماء ، وهو كيف يقول الله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » ؟ وهو سبحانه معبود لا عابد ... ؟

والجواب : أن سورة الفاتحة من كلام الله تعالى أنزلها تعليماً لعباده كيف يحمدونه والمعنى : قولوا : الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين ... الى آخرها .

(اهدنا الصراط المستقيم) : يتوجه العبد الى ربه بهذه الآية يستعينه في شأن هو أعظم ما يُسْتَعَانُ عليه بالله ، وهو طلب التوفيق الى الحق والصواب فيقول : « اهدنا الصراط المستقيم » وذلك لأن معترك العقائد والشرائع أخطر ميدان في حق هذا الانسان . زلق فيه أساطين الفلسفة والخبراء في القانون والاجتماع وعلماء الانسان في قديم الزمان وحديثه ، وتفرقت بسببه الانسانية أيدي سبأ ، وتاهت فيه شعوب وأمم . وهو أعظم مهم لهذا الانسان .

وفي هذا المقام دقيقة هامة نلفت النظر اليها وهي أن المؤمن مهتد ومع ذلك فهو يطلب الهداية ، فكيف ذلك ؟ .

الجواب : هو أن المراد بطلب الهداية أن يطلب المؤمن الازدياد منها والرقي فيها . أو أنه يطلب الثبات على الهداية ، والرسوخ فيها في مستقبل الأزمان أيضاً . فإن الانسان بحاجة الى توفيق الله تعالى ، وتثبيته .

(صراط الذين أنعمت عليهم) : هذا بيان الصراط المستقيم يدل على شرفه بشرف قصاده وسالكيه ، وأنهم الذين أحسن الله إليهم بأنواع الاحسان الديني والدنيوي ، وقد ورد تفسيرهم عن ابن عباس بأحسن تفسير وهو تفسير القرآن بالقرآن ، بقوله تعالى : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

(غير المغضوب عليهم ولا الضالين) : هذا ختام الفاتحة ، وهو بيان موقف المنابذة للحائدين عن الصراط المستقيم ، بعد بيان اتباع الصراط المستقيم ، وهو يفيد أيضاً تأكيد استقامة طريق المسلمين ، وأنه في غاية الاستقامة التي لا غاية بعدها ، حيث إنه سالم من أي انحراف ومن سلوك أي منحرف فيه .

قال الامام ابن كثير في تفسيره : (وأكد الكلام بـ « لا » ليدل على أن ثَمَّ مَسْلَكين فاسدين :

وهما طريقة اليهود والنصارى : فاليهود كما عرفت فسدت إرادتهم وخبثت ، فعلموا الحق وعدلوا عنه ، والنصارى فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون الى الحق) انتهى .

وظاهر أن « المغضوب عليهم » و « الضالين » تشملان كل أصناف الكفار بحسب ظاهر العبارة لأنهم جميعاً مغضوب عليهم وضالون أيضاً . لكن ورد تفسير « المغضوب عليهم » باليهود ، و « الضالين » بالنصارى في روايات كثيرة يلزم الأخذ بها ، لبلوغها درجة الصحة [1] .

البلاغة :

من أوجه البلاغة في سورة الفاتحة :

---

(1) الترمذي في جامعه أبواب التفسير ج٥ ص٢٠٣ . وأحمد في المسند ج٤ ص٣٧٨ ـ ٣٧٩ وغيرهما .

براعة الاستهلال في الآية الأولى « الحمد لله رب العالمين » لأنها مهدت لما جاء بعدها في السورة . والمجاز باستعمال الخبر « الحمد لله » والمراد الانشاء .

والالتفات في قوله تعالى « إياك » لأنه تحول من الغيبية الى الخطاب .

والقصر في « إياك نعبد » وفي قوله « وإياك نستعين » .

والاستعارة في « اهدنا الصراط المستقيم » فقد شبه الاسلام لكونه يوصل الى أعظم المقاصد والخيرات بالطريق المستقيم ، وحذف المشبه وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية .

والمطابقة بين قوله « أنعمت عليهم » و « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » وغير ذلك من ألوان الجمال في الأسلوب والتصوير والتناغم [1] .

احكام الفاتحة :

تختص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور ، نذكر أشهرها فيما يلي :

١ ــ وجوب قراءتها في الصلاة على الامام والمنفرد في الصلاة الفريضة والنافلة . وهو محل اتفاق الفقهاء على الجملة ، إنما اختلفوا في درجة هذا الوجوب ، فذهب المالكية والشافعية والحنابلة الى أنها فرض من أركانها ، من تركها بطلت صلاته .

واستدلوا بحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » متفق عليه [2] .

---

(١) انظره مفصلاً في تفسيرنا لسورة الفاتحة بما لا تجده في غيره .

(٢) البخاري في الصلاة . باب وجوب القراءة ... ج١ ص١٤٧ ــ ١٤٨ ، ومسلم ج٢ ، ص٨ ــ ٩ .

ظاهر الحديث نفي الصلاة عمن لم يقرأها فتكون ركناً .

وذهب الحنفية الى أنها واجب ، بالمعنى الاصطلاحي للواجب عندهم . مَنْ تركها عمداً أثم ووجب عليه إعادة الصلاة في الوقت ، ومن تركها سهواً انجبرت بسجود السهو .

وقالوا : إن الركن يتحصل بقراءة أي شيء من القرآن عملاً بآية : « فاقرؤوا ما تيسر من القرآن » ، فإن هذه الآية صريحة في التخيير ، فيحصل أداء الركن بأي قراءة . وتفسر الحديث الذي استدل به المخالفون وما وافقه بأن المرادَ به هو الوجوب الذي هو أدنى منزلة من الفرض عملاً بكل الأدلة (١) .

٢ ــ قراءة الفاتحة للمقتدي خلف الامام : وفيها ثلاثة مذاهب :

آ ــ مذهب الشافعية : انه تجب قراءتها على المقتدي في كل الصلوات الجهرية والسرية ؛ لأن حديث عبادة وما وافقه لم يفرق في ايجابها بين الامام وغيره فتكون واجبة على الجميع .

ب ــ مذهب الحنفية أن المقتدي لا يقرأ خلف الامام مطلقاً ، سواء كانت الصلاة جهرية أو سرية ، لقوله تعالى :« فاذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » . هذا أمر للسامع بالاستماع ولغيره بالانصات لحديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال : (من كان له إمام فقراءة الامام له قراءة) .

أخرجه أحمد وغيره (٢)

---

(١) انظر تفصيل بحث المسألة وأدلة الفريقين في كتابنا « دراسات تطبيقية في الحديث النبوي » (القسم الأول) .

(٢) الحديث روي عن عدد من الصحابة بأسانيد كثيرة لم يخل شيء منها من المقدح واستدل الحنفية أيضاً بما جاء من الآثار عن الصحابة في ذلك . أنظر التوسع في تخريج الحديث والكلام على طرقه في نصب الراية للزيلعي ج٢ ص ٦ ــ ١٤ .

جـ ـ مذهب المالكية والمعتمد عن الامام أحمد تسَنُّ قراءة الفاتحة على المأموم في السرية والجهرية التي لا يصل إليه صوت الامام فيها ، ولا يجب ذلك في الجهرية ، لما ثبت عنه ﷺ أنه قال : (إنما جعل الامام ليؤتم به فاذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا) .

أخرجه مسلم وغيره (١)

وجعلوا ذلك طريقاً للتوفيق بين أدلة المذهبين السابقين .

٣ ـ يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول عند الفراغ منها (آمين) بمد الهمزة . ويجوز القصر ، بأن تقول : (أمين) وهذا اللفظ ليس من سورة الفاتحة ولا من القرآن ، إنما وردت به السنة . وهو كما قال جمهور العلماء : اسم فعل أمر معناه : (اللهم استجب) .

ويتأكد قوله : (آمين) في حق المصلي سواء كان إماماً أو مأموماً أو منفرداً .

أخرج الشيخان (٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا أمَّنَ الامام فأمِّنوا ، فإنه من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفِرَ له ماتقدم من ذنبه) .

فضل سورة الفاتحة :

وردت أحاديث كثيرة تدل على فضل سورة الفاتحة ، مما يدل على جلالة شأنها ورفعة منزلتها : نذكر منها هذه الأحاديث : إضافة الى الحديث السابق في أسماء السورة :

---

(١) رواه مسلم في صحيحه وأبو داوود وابن ماجه من حديث أبي موسى وأخرجه أبو داوود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة . أنظر التوسع في تصحيحه في نصب الراية ج٢ ص١٤ ـ ١٦ .

(٢) البخاري في الصلاة (جهر الامام بالتأمين) ج١ ص١٥٢ . ومسلم (باب التسبيح والتحميد والتأمين) ج٢ . ص٧ .

١ ـ حديث أبي سعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أصلي ، فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه . قلت : يارسول الله ، إني كنت أصلي ، قال : ألم يقل الله : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم » . ثم قال : (ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؟) . فأخذ بيدي ، فلما أردنا أن نخرج قلت : يارسول الله ، إنك قلت : لأعلمنك أعظم سورة من القرآن ! . قال : (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُه) .

أخرجه البخاري وغيره (١)

٢ ـ حديث أنه ﷺ قال لأبي بن كعب في سورة الفاتحة : (والذي نفسي بيده ما أُنْزِلَتْ في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مِثلها وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته) .

أخرجه الترمذي وصححه والنسائي والحاكم وابن حبان (٢)

٣ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : (قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ماسأل : فاذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : حمدني عبدي . وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى عليَّ عبدي ، فاذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مَجَّدني عبدي . وقال مرة : فوّض إليّ عبدي . فاذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ماسأل . فاذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . قال هذا لعبدي ، ولعبدي ماسأل) .

أخرجه مسلم (٣)

---

(١) البخاري في فضائل القرآن ج٦ ص١٨٧ ، وأبو داوود ج٢ ص٧١ ـ ٧٢ ، والنسائي ج٢ ص١٠٧ .

(٢) الترمذي في فضائل القرآن ج٥ ص١٥٥ ـ ١٥٦ ، والمستدرك ج٢ ص٢٥٧ ـ ٢٥٨ . وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وموارد الظمآن ص٤٢٤ .

(٣) مسلم ج٢ ص٩ والترمذي ج٤ ص٢٠١ ، والنسائي ج٢ ص١٠٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة لقمان

تعريف عام بالسورة :

سورة لقمان سورة مكية وعدد آياتها ٣٤ آية ، نزلت بمكة المكرمة حين كانت الدعوة تؤسس قواعد الإيمان في القلوب ، ومن هنا كان من الطبيعي أن يدور محور السورة على الدعوة وترسيخ الإيمان .

مناسبة السورة لما قبلها :

من أوجه المناسبة العامة بين سورة لقمان وسورة الروم :

١ ــ افتتاح كل من السورتين بـ « ألم » .

٢ ــ في كلتا السورتين جملة من الآيات الكونية الشاهدة بعظمة الله تعالى ووحدانيته وتقديسه سبحانه .

وأما المناسبة الخاصة وهي وجه ارتباط أول السورة بآخر سورة الروم : فإنه تعالى قال في آخر سوة الروم : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » ، وفي مطلع سورة لقمان قوله تعالى : « وهم بالآخرة هم يوقنون » وهو وجه بديع من المناسبة بين آخر السورة السابقة وبين مفتتح هذه السورة ، كما فصلت الآيات في بداية لقمان عظمة القرآن وعناد الكفار مما يناسب آخر سورة الروم .

سُورَةُ لُقْمَان

ترتيبها ٣١ — آياتها ٣٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ
لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ
وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ
إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ
وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ
بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ
مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ
وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟
مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ
ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ
وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ
وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ
وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ
كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ
فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ
﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ
عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ
وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

عظمة القرآن وهدفه

سورة لقمان

مكية وآياتها أربع وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

سورة لقمان (١ ـ ٥)

اللغـــة :

الم : هـــذه الأحرف كنظائرها مما افتتحت به ســـور كثيرة من القرآن ، وهي حروف مسرودة عـــلى طريق التعداد إشـــارة الى إعجاز القـــرآن • لا محل لهـــا من الاعـــراب •

آيات : جمع آية • وهي في اللغة العلامة • ســـميت بذلك الآية من القـــرآن لكونها علامة على نبوة رســـول اللـــه ﷺ لما اشتملت عليه من الإعجاز بمفردها إذا كانت طويلة أو بانضمامها لغيرها إن كانت قصيرة •

هدى : الهدى الدلالة الموصلة .

الحكيم : المتصف بالحكمة . وهي غاية السداد في القول والعمل .

وقال القرطبي : الحكيم المحكم أي لا خلل فيــه ولا نقص . والأول أولى في نظرنا لأنه الظاهر من هذه الكلمة .

المحسنين : العاملين للحسنات .

المفلحون : الفائزون .

الاعـــراب :

هدى : حال منصوب من آيات .

الذين يقيمون : صفة للمحسنين ، قصد بها مدحهم ، أي انهم محسنون عاملون لكل الحسنات ، ثم مدحتهم بهذه الأعمال من حسناتهم لعظمة شأنها .

الشــرح :

« ألم » : بهذه الفاتحة من الأحرف الهجائية المقطعة ينبه القرآن كل ذي عقــل الى وصفه المعجز ، فيسرد هذه الأحرف : (ألف ــ لام ــ ميم) ليلفت النظر الى أن القرآن الكريم لايعدو أن يكون مركباً من تلك الأحرف أو مثيلاتها كما أن كــلام العــرب مركب من ذلك أيضاً ، وحيث عجزوا عن أولهــم وآخرهم عن الإتيان ولو بسورة من مثله وتقاصرت عنه هممهم وهم أرباب الفصاحة والبلاغة كان ذلك دليلاً على أن آياته نازلة من عند الله خالق القدر والقوى .

« تلك آيات الكتاب الحكيم » : هــذه الآيات القــرآنية المعجزة التي جمعت خصال الكمال وتميزت بذلك هي آيات هذا « الكتاب الحكيم » ذي الحكمة البالغة في أسلوبه وخطاباته ، في أحكامه وعقيدتــه في مقاصده وأهدافــه . ويجيء وصف القرآن هنا بالحكمة متناسباً تماماً مع هدف الســورة ، لأن الســورة تبرز اتفاق الحكمة وانسجامها مع دعوة القرآن .

« هدى ورحمة للمحسنين » : فهو غاية في الهداية حتى صار كأنه نفس الهدى ، فعبر عنه بالمصدر « هدى » . وهو غاية في تحقيق الخير للناس حتى صار هو كأنه الرحمة بعينها .

« للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » : وهي خصال جامعة تؤثر في جوانب النفس وتصلحها . فدل اتصافهم بها على أن الإحسان شمل كل أمورهم الظاهرة والباطنة .

فالصلاة تدل على الإحسان في أعمالهم لأن الصلاة عنوان لها ، مسيرة لها تجاه رضوان الله تعالى .

والزكاة تدل على الإحسان في أمورهم المالية والفردية والاجتماعية .

والإيمان بالآخرة عنوان لما في قلوبهم من إيمان وشفافية تخترق حجب المادة .

« أولئك على هدىً من ربهم » : أي أنهم في غاية الهداية ، كما يدل عليه التعبير « على هدى » ولم يقل « مهتدون » فعبر بـ « على هدى » ليدل على غاية تمكنهم من الهداية . وهي واصلة إليهم من مصدر العناية التي لا نهاية لها : « من ربهم » كما ينبىء عنه هذا التعبير باختيار لفظ الرب مضافاً إليهم ، فهي إذن هداية بالغة غاية الغايات .

« وأولئك هم المفلحون » : عبر بتعريف الخبر (المفلحون) لإفادة اختصاص الفلاح بهم . فهم واصلون الى رضوان الله تعالى ، فائزون بمطالبهم من الخير كلها .

البلاغـــة :

أشـار بالبعيد في قوله (تلك) و (أولئك) لبيان غاية فخامة المذكورين بالاشارة وقوله (وأولئك هم المفلحون) فيها القصر بتعريف طرفي الجملة الاسمية ، والضمير (هم) لتقوية الربط والحكم الذي أفادته الجملة .

الاستنباط :

١ ــ علو مرتبة القرآن في الاعجاز ، كما تدل لام البعد في (تلك) •

٢ ــ فضل الأركان الثلاثة : الصلاة ، الزكاة ، الايمان بالآخرة ، حتى جعلت عنوانا للمحسنين الذين يمدحهم الله • فهي ركائز العقيدة والسلوك •

٣ ــ لا فلاح في الآخرة إلا لأهل الايمان •

* * *

موقف المعاندين من القرآن وثواب الطائعين

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ (٨) خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩)﴾

سورة لقمان (٦ ـ ٩)

سبب النزول :

أخرج الفريابي وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » قال : باطل الحديث وهو الغناء ونحوه . « ليضل عن سبيل الله » قال : عن قراءة القرآن وذكر الله ، نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية [1] . وورد مزيد من التفصيل في روايات أخرى .

(١) الدر المنثور ج٥ ص١٥٩ ولباب النقول ص١٨٥ .

أبحاث اللغة والقراءات والاعراب :

يشتري لهو الحديث : الاشتراء معروف ، وهو دفع النقد ثمناً لشيء ، وقد ذكر المفسرون له هنا معنيين :

الأول : هذا المعنى ، وذلك أخذاً بما روي عن النضر بن الحارث من شراء الجواري المغنيات ، أو شراء كتب أخبار الأعاجم .

الثاني : ان الشراء هنا مستعار بمعنى الاستبدال والاختيار على سبيل المجاز ، والمعنى : يستبدل لهو الحديث ويختاره مكان القرآن الكريم . وهذا أولى في اختيارنا ، وذلك لأن روايات سبب النزول لم يصح منها شيء [1] فضلاً عن الاختلاف بينها . ثم إنها لو صحت لا يجوز أن تخرج النص عن إطلاقه أو شموله ، وذلك عملاً بقاعدة هامة في التفسير وهي : « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » والنص هنا عام يشمل كل لهو من الأحاديث الباطلة الصارفة للانسان عن الحق أو الخير .

اللهو : كل باطل ألهى الانسان عن الخير أو عما يعنيه من الأمور .

لهو الحديث : اللهو الذي هو الحديث ، والمراد بالحديث : الحديث المنكر لا كل حديث .

ليضل عن سبيل الله : بضم الياء من فعل (يضل) . وهو قراءة أكثر القراء ، والمعنى ليضل غيره عن سبيل الله : أي عن دين الإسلام ، أو عن القرآن ، وفي قراءة سبعية متواترة ليَضل بفتح الياء ، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو [2] ، والمعنى

---

(١) ولعله بسبب ذلك لم يذكر ابن كثير شيئاً منها في تفسيره .

(٢) تفسير الآلوسي ج٦ ، ص٤٧٢ .

ليضل هو عن سبيل الله بذلك الفعل الشنيع ٠وفعل يضل منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ٠

كأن في أذنيه وقرا : صمماً مانعاً من السماع ٠ وفي الجملة تشبيه ٠

وعد الله مفعول مطلق لما أفاده قوله « لهم جنات النعيم » ٠ « حقا » مفعول مطلق ثان [1] ٠

المعنـى :

بعد أن بينت الآيات حال المؤمنين مع القرآن من حسن استماعهم له ، والتقبل لهذه الحكمة والرحمـة ، أخذت تصور فريقاً آخر على الضد من المؤمنين ، قد غطى الجهل والغرور عقله ، فإذا به (يشتري) يسـتبدل بالحكمة والهداية الراحمة (لهو الحديث) : أي كل باطل يشغل عن الخير وعما يعني الانسان، كالأساطير الباطلة التي لا أصل لها ، ومطرب الغناء ٠ ليصد الناس بهذه الأشـياء عن سبيل الله ، ويلهيهم عما ينفعهم ٠

وقد فسر كثـير من السـلف (لهو الحديث) في الآية بأنه الغناء : أخرج ابن جرير [2] عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية فقال ابن مسعود : « الغناء واللـه الذي لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات » ٠

قال الحافظ ابن كثير [3] : « وكذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسـعيد بن جبير ، ومجاهـد ومكحول وعمرو بن شـعيب وعلي بن بذيمـة ٠ وقال الحسـن

---

(١) كما في تفسير النسفي ج٣ ص٢٧٩ ٠

(٢) في تفسيره ج٢١ ص٣٩ ٠

(٣) ج٣ ص٤٤٢ ٠

البصري : نزلت هذه الآية : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » في الغناء والمزامير •

وورد عن بعض السلف تفسير الآية بما هو أعم من الغناء : عن ابن عباس قال : باطل الحديث وهو الغناء ونحوه • وعن مجاهد : الغناء وكل لعب لهو [1] • فكيف الأمـر ؟ •

الجـواب : لا تنافي بين هذه التفاسـير على الحقيقة لأن من فسر الآية بالغناء لا ينفي دخول غيره في مضمون الآية ، وعليه تدل عبارة الآية ، لأنه أضاف اللهو الى الحديث فيشمل كل ماهو من هذا القبيل ، طبقاً للقاعدة : النكرة المضافة تعم جميع ما أضيفت إليه •

فالآية تصور ما درج عليه أعداء القرآن من بعض أساليب الصد عن دين اللـه الحق من العبث واللهو يغطونها باستغلال الغرائز والشهوات الهابطة يصدون بها عن سبيل الله ، يخدرون بها يقظة الشعوب •

ويقع قوله تعالى : « بغير علم » موقعاً عظيماً في غرض الآية ، لأنـه ليس أحد يصد عن سبيل الله إلا وقد خلع رداء العلم عن نفسه ، لكن شـياطين الإنس والجن لا يبالون أن يظهروا أفكارهـم بطلاء خادع مـن زعـم العلم والفهم أو التنطـع بما يسمونه حديثاً : النظريات العلميـة وما هي من العلم في شيء إنما هو اسـتهواء الشهوات وتزيين الباطل باسم العلم • لذلك قال : « لهم عـذاب مهين » أي عذاب عظيم لا يحيط به التعريف •

والجزاء من جنس العمل فهو « عذاب مهين » مقابل استهزائهم بالحق • ثم قال عز وجل : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مسـتكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم » •

---

(١) انظر الدر المنثور ج٥ ص١٦٠ •

هذه الآية تصور هذا المعاند إذا قرئت عليه آيات القرآن وما في تضاعيفها من مظاهر عظمة الله كما تشير الإضافة (آياتنا) أي آياتنا الجليلة الشأن ، فتوضح الآية إعراضه وحركاته المتكبرة واستخفافه بها ، (ولى مستكبراً كأن في أذنيه وقراً) أي صمماً مانعاً من السماع .

« فبشره بعذاب أليم » هكذا بشره ويالها من بشارة مرة سماها القرآن بهذا تهكماً واستهزاءاً ، وهو جزاء يليق ويقابل تكبر هذا المتكبر . وهذا العذاب قد بلغ الغاية القصوى من الإيلام أعاذنا الله منه .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها » : بعد أن ذكر القرآن الكريم عقاب الكافرين المستكبرين عقب بثواب المؤمنين العاملين ، وهو أسلوب حكيم يقوي دوافع الأمتثال في القلب درج عليه القرآن :

وقد وعد الله المؤمنين أجزل الثواب « لهم جنات النعيم » يتنعمون فيها بأنواع المسرات والملذات مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر « خالدين فيها » لايخرجون منها ولا ينقطع نعيمها ، بل هم في رقي وازدياد من النعيم على الدوام .

ثم أكد الله تعالى هذا الوعد بمصدرين مؤكدين — مفعولي مطلق — هما : (وعد الله) ، (حقا) . وذلك ليستقر المعنى في ذهن السامع ويزداد رغبة بما عند الله ، ثم زاد المعنى عمقا في النفس بقوله : « وهو العزيز » الذي قهر كل شيء ، وذل كل شيء لقدرته « الحكيم » في أقواله وأفعاله يضع كل شيء موضعه المناسب ، فلا بد من إثابة المؤمنين وعقاب الكافرين .

الاستنباط :

١ — تحريم الغناء الذي يحرك الشهوات ، أو يذكر بالخمر والمجون . لكن يجوز ما سلم من ذلك في أوقات المناسبات ، كالعرس ، والعيد وما أشبه ذلك ، أو لحفز الهمم في العمل .

٢ ـ التحذير من مكائد أعـداء الاسـلام ، بما يقدمون للناس مما يزعمونه علما ، أو نظرية علمية ، يعارضون بها الاسلام ، فكل ذلك سراب خادع .

٣ ـ قرنت الآية بين الإيمان وعمل الصالحات ، وهذه سـنة القرآن : يقرن الإيمان في مقام المدح بالعمل الصالح ، لأن اللـه تعالى لا يرضى أن يكون جوهـر الإيمان النفيس مجرد فكرة أو عقيدة جامدة سكنت النفس .

* * *

دلائل قــدرة الله و نعمتــه

قال تعالى :

> خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
> تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ
> وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ
> ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾
>
> سورة لقمان (١٠ ـ ١١)

المفــــردات :

ـ عمد : جمع عماد .

ـ رواسي : جبالاً ثوابت .

ـ تميد : تضطرب .

ـ بث : نشر ووزع .

ـ زوج : صنف أو نوع .

ـ كريم : حسن أو نافع .

الاعـــراب :

خلق الســموات : الجملة وما عطف عليها خبر آخر لقولـه : « وهو العزيز الحكيم » .

ترونهـا : الضمير للســموات أي ترون الســموات ليس لها عمد . والجملة اسـتئنافية لا محل لها من الإعـراب ، وهي استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة ، أي خلق السموات بغير عمد أنتم ترونها ليس لها عمد ، كما تقول لصاحبك : أنا بغـير سلاح تراني .

أن تميد : أي لئلا تميد ، بتقدير لام الجر التعليلية ولا النافيــة ، أو كراهة أن تميد بكم .

بل : حرف إضراب ، وتأتي لمعنيين : الأول لإبطال ما قبلها كقوله : جاء علي بل أحمد ، الثاني : الانتقال من مســألة الى مســألة أو من رتبة الى رتبة أخرى ، وهذا الثاني هو المراد هنا .

المعنـى :

بعد أن ذكر القرآن أن الله عزيز غالب لكل شيء ، حكيم في خلقه ، ذكر هنا دلائل عزته وحكمته في عجائب مخلوقاته ، كأنه يقول : وعد الله المؤمنين ذلك النعيم وعداً قاطعاً ثابتاً وهو العزيز الذي يغلب كل شيء الحكيم خالق السموات بغير عمد ترونهـا .

وقد عرض القــرآن في هذه الآية عرضاً سريعاً لخمس دلائل من بديع صنعــه عز وجل ، يعترف كل إنســان أنها من صنعه تعالت عظمته ولا ينازع أحد في ذلك ولا يدعي أنها صنع غير الله سبحانه :

أولها : « خلق السموات بغير عمدٍ ترونها » : هذه الجملة وضعت أمام الإنسان عالم السموات تلك العوالم العليا ، وما فيها من الكواكب والنجوم بغير عمد تحملها ، إنما أمسكها بقدرته وسخرها بعزته : ووضعها على نظام دقيق بحكمته حتى انتظم هذا العالم الضخم بأبدع نظام .

ثانيها : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » : هذه دلالة من الأرض وهي مشهد الجبال الراسية الثابتة في مكانها وما لها من أثر في تثبيت الأرض ومنعها من الاضطراب .

ثالثها : « وبث فيها من كل دابة » : هذه دلالة الحياة بشتى مراتبها وهي صنع إلهي لا يستطيع أحد أن ينازع فيه .

رابعها : « وأنزلنا من السماء ماءً » : هذه دلالة أخرى على عظمته سبحانه وحكمته ، حيث إن إنزال الماء إنما يتم بشروط طبيعية يعلم كل انسان أنه لا يقوم بتدبيرها إلا الله .

خامسها : « فأنبتنا فيها من كل زوجٍ كريم » : هذه دلالة أخيرة يسردها القرآن هنا ، تبرز عظمة الخالق وحكمته ، وهي إنبات أنواع النبات وإخراجها من الأرض ، والعلم يزيدنا اليوم فهماً لما تضمه هذه الجملة من جليل الآيات الإلهية .

« هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه » ! : هذا المذكور من الأشياء مخلوق خلقه الله لا شك عند أحد في ذلك ، المؤمنون والكافرون يقرون به ، حتى الملاحدة يقرون بذلك إقراراً ضمنياً ، حيث ينسبون ذلك الى الطبيعة ، وما هو إلا ستر (كفر) منهم للحقيقة الظاهرة ، لذلك وجه إليهم هذا التحدي : « فأروني ماذا خلق الذين من دونه » ووجهه إليهم بصيغة الاستفهام تبكيتاً لهم وتهكماً بهم لما اتخذوا من دون الله من أرباب أصنام عبدها الجاهليون والوثنيون

قديماً ، أو من طواغيت البشر العالين في الأرض تخضع لهم الناس من دون اللـه في عصورنا الحديثة .

« بل الظالمون في ضلال مبين » : جاء بحرف الإضراب الانتقالي (بل) أي إنهم ليسوا سفهاء فقط بانحرافهم عن عبادة الله وتوحيده بل إنهم ضالون ضلالاً عظيماً عن جادة الصواب ، وهو ضلال مُبين يوضح بطلان نفسه بنفسه ، ويفضح أهلـه الغارقين فيه .

البلاغـة :

الالتفات في « وانزلنا » التفت من الغيبة الى المتكلم . للتنبيه على نوع جديد من الآيات ، هي آيات الرزق بعد آيات الخلق . وكذا التفت في « بل الظالمون » من المخاطب الى الغائب .

أروني : فعل الأمر مجاز عن التعجيز .

ماذا خلق : الاستفهام للاستهزاء والتهكم .

* * *

وصايا لقمان تؤكد دعوة القـرآن

قال تعالى :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ
وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)
وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى
عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ
بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)
يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَـٰبُنَىَّ
أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ
إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى
ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ
وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ (١٩)

سورة لقمان (١٢ ــ ١٩)

مناسبة الآيات لما قبلها :

بما أن السورة وصفت القرآن بأنه حكيم الآيات فقد ساقت من أخبار الأولين مايناسب وصف الحكمة هذا ، فجاءت قصة لقمان ترتبط بهذا العنوان الذي صدرت السورة به ، وتناسب ما سبقها مباشرة من الآيات الدالة على عزته وحكمته مما يوجب شكره وتوحيده والخضوع له دون سواه .

المفردات والاعراب :

إذ : ظرف بمعنى حين ، متعلق بفعل محذوف تقديره (اذكر إذ) . وقد ورد مصرحاً به .

وصينا : أمرنا .

وهناً على وهن : أي ذات وهن فهو حال أو تهن وهناً على وهن أي : تضعف ضعفاً فوق ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها ، والجملة في موضع الحال على هذا . ووهنا مفعول مطلق .

فصاله : فطامه .

أن اشكر : أن تفسير لوصينا ، وقوله « حملته ... » جملة معترضة بين «وصينا » . وتفسير الوصية وهو « أن اشكر » وأن تفسيرية لا محل لها من الاعراب ، بمعنى أي . وأن التفسيرية تقع بعد صريح القول أو معناه ، وإيتاء الحكمة يتضمن معنى القول .

معروفاً : صفة لمفعول مطلق محذوف أي : صحاباً معروفاً . ومعنى معروفاً : حسناً بخلق جميل واحتمال وبر وصلة .

مثقال حبة : أي قدر حبة .

من خردل : نبات معروف له بذور دقيقة جداً .

لطيف : يعلم الخفيات ، أو يحقق ما يريد بأدق الأسباب .

من عزم الأمور : مما عزمه الله وأمر به .

تصعر خدك : الصَّعَر داء يصيب البعير فيلوي منه عنقه ثم عبر به عن التكبر لأن المتكبر يعرض بوجهه أي يميله عن الناس ترفعاً عليهم واحتقاراً لهم .

مرحاً : أي فرحاً وتبطراً .

مختال فخور : المختال هو المتكبر بنفسه ، والفخور : هو الذي يفتخر على النّاس بحظّه من المال أو الشرف أو القوة أو غير ذلك .

اقصد في مشيك : توسط فيه .

اغضض من صوتك : أي انقص منه .

سبب النزول :

أخرج مسلم بلفظه [1] وأصحاب السنن (عدا ابن ماجه) عن سَعْد بن أبي وقاص أنه نزلت فيه آيات من القرآن . قال : حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب ، قالت : زعمت أن الله أوصاك بوالديك ، وأنا أمك وأنا آمرك بهذا ، قال : مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد . فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد ، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك

(1) مسلم في الفضائل ج٧ ص١٢٥ ـ ١٢٦ من حديث طويل .

به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً » . قال القرطبي [1] : (والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد كما تقدم في العنكبوت وعليه جماعة المفسرين) فهو سبب نزول هذه الآية التي بين أيدينا في لقمان أيضاً .

من هو لقمان ؟

كثرت الروايات حول شخصية لقمان واختلفت اختلافاً كثيراً ، فقيل : كان عبداً حبشياً نجاراً وقيل : كان من بلاد النوبة بمصر ، وروي عن عكرمة أنه كان نبياً ، وعن قتادة : خير بين الحكمة والنبوة فاختار الحكمة [2] . وقيل غير ذلك . ومثل هذه المسألة تخضع لقانون أخبار الإسرائيليات الذي فصلناه في قسم علوم القرآن وإذا نظرنا الى الأخبار التي نقلت في شأن لقمان الحكيم نجد أنه لم يأت في شيء منها بإسناد مقبول عن النبي ﷺ واختلفت الأقوال المنقولة اختلافاً كثيراً مما يدل على أن الحدس والتخمين والظن قد دخل في أخباره . اللهم سوى اتفاقهم على أنه كان أسود اللون ، كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم [3] . عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه « أن لقمان عليه السلام كان أسود من سودان مصر ذا مشافر . أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة » . وهناك رواية اخرى عن سعيد ابن المسيب تدل على ذلك أيضاً .

وأضعف الأقوال في شأن لقمان الحكيم قول من زعم أنه كان نبياً ، وقول من قال إنه خير بين النبوة والحكمة ، لأنه من غير المقبول أن يختار أحد الحكمة على

---

(١) ج١٤ ص٦٣ وانظر ج١٣ ص٣٢٨ .

(٢) انظر الروايات في تفسير ابن جرير ج١٢ ، ص٤٣ ـ ٤٤ ، وتفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٣ ـ ٤٤٤ والدر المنثور للسيوطي ج٥ ص١٦٠ ـ ١٦٢ .

(٣) تفسير ابن جرير ج٢١ ص٤٣ وانظر الدر المنثور ج٥ ص١٦١ .

النبوة : فضلاً عن أن هذا ينافي اختيار الله للأنبياء وتكليفه إياهم بأعباء النبوة [1] .

المعنى :

تأتي قصة لقمان معبرةً عن أسلوب الحكماء في بنيانهم للفروع على أصل تنبثق منه ، لذلك نلحظ بالتأمل فيها أنها تبين نظام الإيمان في جملته بياناً يوضح ركيزته التي ينطلق منها ، ثم ما يقتضيه من شعور وجداني إيماني وسلوك ديني وخلقي .

وركيزة الإيمان ونظامه يقوم في حكمة لقمان على قضية يسيرة بدهية مسلمة فسرتها (أن) التفسيرية في قوله : « أن اشكر لله » وهي فريضة يحس بها كل صاحب شعور سليم ووجداني إنساني .

« ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه » : لأن منفعة الشكر تعود على الشاكر بزيادة النعمة في دنياه ، وبالثواب العظيم في آخرته . وبالتالي فإن الكفر لن يضر إلا شخص الكافر بالذات :

« ومن كفر فإن الله غنيٌ حميد » : ولا يضره سبحانه كفر الكافر فإن الله عز وجل غني بذاته عما سواه ، وهم مفتقرون إليه سبحانه وهو يمدهم بنعمه ، وهو سبحانه (حميد) أي حقيق بالحمد مستوجب لأن يشكر ، سواءٌ شكره الخلق أو لم يشكره أحد منهم .

« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه » : أي اذكر الوقت والزمان الذي صدرت فيه هذه الموعظة الحكيمة ، فإن رفعة شأنها بلغت غاية عظيمة حتى سَرَتْ الى الوقت الذي قيلت فيه .

---

(1) الكشاف ج٣ ص٣٨٩ . وانظر الآلوسي ج٦ ص٤٧٥ . وانظر الشوكاني ج٤ ص٢٤٠ .

« يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » : وأي ظلم أكبر من الإشراك في العبادة بين الخالق والمخلوق : أو التسوية بين الرب الذي منه كل النعم وبين مخلوق لا نعمة له أصلاً .

وفي الحديث القدسي عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال : « إني والجن والإنس في نبأ عظيم ، أَخْلُقُ ويُعْبَدُ غيري ، وأرزق ويُشْكَرُ غيري ».

ثم بين القرآن عظمة حق الوالدين وبين أن هذا الحق المقدس المؤكد كل التأكيد لا يصح ولا يجوز أن يقدم على فريضة التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ، مهما بذل الوالدان من محاولات وجهود ، فأورد هاتين الآيتين : « ووصينا الإنسان ... » الى آخرهما ضمن وصايا لقمان لهذا الغرض ، وقال فيهما :

« وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما » ، فأشار بقوله « جاهداك » الى أنهما بذلا غاية ما في الوسع . وهو أمر يؤثر في الإنسان كثيراً ، ويزيد وجوب برهما : لكن لا يسوغ له الشرك بالله أبداً ، أيَّ شرك كان ، وهو أمر واضح جداً . قد بين القرآن سببه في قوله « ماليس لك به علم » فهو شيء لا يمكن أن يعرف لأنه لا يوجد ، ولا يمكن أن يوجد ليعلم ويدرك ، فهو إذن ليس بشيء . « فلا تطعهما » في الشرك بالله . والكفر به . لكنه لا يسمح بالإساءة إليهما :

« وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » : وليصبر الابن وليثبت على محنة أبويه ، فالكل راجع في النهاية الى الله :

« ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » : أي فأجازيكم بما كنتم تعملون ، الحسنة بالإحسان والسيئة بالعقاب .

ويتمم لقمان ماسبق من النهي عن الشرك بتزويد ابنه بأصل جامع في معرفة الله فيقول له :

« يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردلٍ فتكن في صخرة أو في السماء »: أي الخصلة والفعلة التي تفعلها من خير أو شر لو بلغت في دقتهـا أن تكون غاية في الصغر بمثل حبة الخردل في خفة وزنها وصغر حجمها ، ثم كانت مُحَصّنة محتجبة في أخفى موضع وأحرزه وهو جوف صخرة صماء ، أو كانت شاردة تائهة في فضاء السماء الفسيح الذي تقاس أبعاده بآلاف الملايين من السنين الضوئية « أو في الأرض » في أي بقعة من بقاع الأرض لاتبين حصاها وثراها ، فانها لاتغيب عن علم الله ، فهو سبحانه لطيف ، يتوصل الى ما يشاء بأدق الوسائل ، خبير يحيط علمه بأخفى الخفيات ؛ فمحال" أن تفلت فعلة من فعالك أيها الإنسان من إحاطة علمه وقدرته ثم من حسابه وجزائه •

« يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » : إنها أوامر تعد صاحبها لمهمة جليلة تجعله كاملاً في نفسه ، بإقام الصلاة أي أدائها على وجه الخشوع والإتقان ومراعاة السنن والآداب ، فيصلح بها أن يكون مكملاً لغيره كما قال :

« وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » • وليتسلح لذلك بزاد الدعاة الى الله ودرع الأنبياء والمرسلين : « واصبر على ما أصابك » ، فالناس أعداء لما جهلوا والهوى يعمي ويصم • [حتى يصور المصلح الذي يريد إنقاذ المجتمع بصورة من يحيل الدنيا الى ظلام ، مما يجعل الداعية بأمس الحاجة الى الصبر والمصابرة لتحمل أذى الناس] •

« إن ذلك من عزم الأمور » : إنها أمور في غاية من الأهمية عزم الله على عباده أي أمرهم أمراً مؤكداً أن يفعلوها •

ثم يتجه لقمان الى ابنه يحذره من خصلتين خبيثتين :

« ولا تصعر خدك للناس » صوّر هيئة المتكبر في شموخه بأنفه وكلامه للناس متعاليا مائلا بجانب وجهه بهذه الصورة . وعبر عن العجب بقوله :

« ولا تمش في الأرض مرحاً » : أي فرحاً وتبطراً ، وهو خلق ملازم للفخر والخيلاء وقلة المبالاة بالناس يفعله مرضى النفوس الذين فقدوا القيم والأعمال النافعة ، ثم يأمر باللين والاعتدال :

« واقصد في مشيك » : فالاعتدال في المشية هو ما يكون بين التباطؤ والجري يدل على طمأنينة النفس وسكونها وخلوها من الخيلاء والعجب .

وأكد الأمر بغض الصوت بأسلوب بديع وهو تصوير الصوت المرتفع والصراخ بأقبح صورة :

« إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » : صورة منفرة غاية التنفير ، تزيدها بشاعة صيغة الجمع (الحمير) وتوحيد كلمة صوت الذي يدل على صوت هذا الجنس البالغ غاية القبح بسبب صَخَبِه وقبحه .

البلاغة :

الطباق بين (يشكر) و (كفر) .

التخصيص بعد التعميم في (حملته أمه) بعد (بوالديه) لزيادة الاعتناء بها .

الحصر في (إليّ المصير) ، (إليّ مرجعكم) . لتقديم ما حقه التأخير وهو (إلي) . (وامر بالمعروف وانه عن المنكر) مقابلة بين الجملتين .

(ان أنكر الأصوات لصوت الحمير) : تشبيه ضمني ، شبه الصوت المرتفع بصوت الحمار .

الاستنباط :

١ ــ ان فريضة الشكر لله فريضة محتمة توجبها بداهة العقل السليم ، كما توصل إليها لقمان الحكيم • وقد قرر العلماء قديما : (شكر المنعم واجب عقلا) •

٢ ــ الشكر يرجع نفعه لصاحبه ، لأنه يثاب عليه ، ولأنه يلزمه بفعل الطاعات وترك المنهيات ، قال السرّي السَقَطِي : : الشكر أن لاتعصي الله بنعمه •

٣ ــ وجوب بر الوالدين على أي دين كانا ، واحتمال أذاهما مهما بلغ •

٤ ــ تأكيد حق الأم أكثر من الأب ،لأن القرآن زادها خصلتين بعد ذكرها مع الأب فصار لها ثلاثة أمثال الأب •

٥ ــ أن حق الله أعظم الحقوق ، والوالدان مع عظم حقهما لايطاعان في معصية الله تعالى • قال القرطبي يفصل ذلك : « طاعة الأبوين لاتراعى في ركوب كبيرة ، ولا في ترك فريضة على الأعيان ، وتلزم طاعتهما في المباحات ، وتستحسن في ترك الطاعات الندب ، ومنه أمر الجهاد الكفاية ، والاجابة في الصلاة مع امكان الاعادة ••• » •

هذا مع أن قطع الصلاة لايجوز ، فتأمل عظمة حق الوالدين •

٦ ــ استدلوا بقوله تعالى : « وصاحبهما في الدنيا معروفاً » على جملة أحكام منها : ان الوالد لا يُقتل إذا قتل ولده ، ولا يُحدّ حد القذف إذا رماه بالزنا ، ولا يحبس إذا كان مدينا لابنه ، وان على الولد نفقة أبويه المعسرين ••• وجه الاستدلال : ان ذلك كله من الصحبة بالمعروف وعكسه ضد الصحبة بالمعروف •

٧ ــ ان مدة الرضاع الذي يجب فيه التحريم عامان ، لنص الآية « وفصاله في عامين » • وعلى ذلك الجمهور ، واستدلوا بذلك على أن أقل مدة الحمل ستة

أشهر : لقوله تعالى : «وحمله وفصاله ثلاثون شهراً» ، فاذا أسقطنا منها مدة الرضاع عامين بقي للحمل ستة أشهر .

٨ ـ استدل بقوله تعالى : « واتبع سبيل من أناب إليّ » على فضيلة سيدنا أبي بكر الصديق لأن سعد بن أبي وقاص أسلم على يد أبي بكر ، والآية عامة ، لكن سبب النزول يدخل فيها دخولا أولياً .

٩ ـ دل عموم قوله « واتبع سبيل من أناب إليّ » على صحة الاجماع .

١٠ ـ اشتملت وصايا لقمان على مكارم الأخلاق ، وأصول الفضائل الدينية والنفسية ، والنزاهة عن الادناس والدنايا ، وهي ظاهرة لمن نظرها فاعتصم بها ، فقد أعظم الله أمرها كما عرفت . وأكدها غاية التأكيد .

* * *

تسخير المخلوقات للانسان

قال الله تعالى :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ
نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ
السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ
بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾
نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

سورة لقمان (٢٠ ــ ٢٤)

مناسبة الآيات لما قبلها :

هذه الآيات تقرير لما اشتملت عليه قصة لقمان من الشكر لله وعدم طاعة الوالدين في معصيته تعالى .

اللغـة :

ألَمْ : الهمزة للاستفهام الإنكاري تفيد النفي ، دخلت على لم النافية فأفادت الإثبات لأن نفي النفي إثبات ، أي قد تحققت رؤيتكم •

سخر : ذلل •

أسبغ : أتم •

أوَلَوْ : فيها محذوف ، أي أيتبعونهم في كل الأحوال ولو كـان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير •

يُسلم وجهه الى الله : أي يسلم نفسه إليه والمـراد الاستسـلام لله تعـالى والتفويض الكامل إليه •

العروة : ما يعلق به الشيء •

الوثقى : تأنيث الأوثق ، على زنة فعلى •

ننبئهم بما عملوا : نخبرهم ، وهو كناية عن مجازاتهم •

غليظ : الغلظ وصف للأجرام ، والمراد هنا عذاب شديد ثقيل على المعذب •

المعنى :

افتتحت الآيات بذكر نعمه سبحانه وأنها شاملة متنوعة ، مما يوجب شـكره تعالى وتوحيده •

وقد عرضت الآية الأولى لنعمة الله في قاعدة علمية معجزة وهي تسخير ما في السموات وما في الأرض هكذا بهـذا الشمول لآفـاق السماء ومـا فيها والأرض وأكنافها ، كل هذا مُسَيَّر على وجه يحصل منافعكم أيها الناس وتخدمكم بالمجال دون أن يكلفكم شيئاً أو أن تدفعوا له ثمناً أو أجراً •

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى »

لكن مع هذا كله يوجد فريق من الناس لايذكرون إذا ذُكِّروا بهذه النعم ولا يشكرون إذا عرفوها ، يجادلون بغير علم فليس لديهم علم حقيقي ألبتة ، وإن كانوا قد يزخرفون جهالتهم بألوان من المخادعة والمغالطة يسمونها نظرية وما هي من العلم في شيء ولم يقم الدليل على صحتها ، وليست من الهدى الإلهي المعصوم عن الخطأ والزلل ، ولا تستند لا ستنباط من كتاب سماوي صحيح ينير السبيل ويبدد ظلمات الوساوس والأوهام .

« بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » :

هنا يبرز منهج المعاندين ومنهج الإسلام ، فالمعاندون يتحجرون على التقاليد ويستأسرون لها من غير وعي ولا فهم سليم، أما الاسلام فلايدعو الىفعل شيء الابعد أن يبين وجه الصواب فيه بالبرهان القاطع .

« أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير » :

أي هل يتبعون آباءهم في كل حال من الأحوال ولو في حال دعوة الشيطان لهم وقيادته إياهم الى عذاب السعير الملتهب ؟ هذا هو مآل خطتهم ومنهجهم فيها .

ثم بين القرآن مآل كل فريق من المؤمنين والكافرين :

« ومن يسلم وجهه الى الله » :

فالمؤمن قد فوض أموره كلها الى الله تفويضاً كاملاً يرجع في كل شيء منها الى شريعته يمتثلها ويتمثلها حتى صار في موقفه هذا من ربه موقف من سلم الشيء الى صاحبه يتصرف فيه كيف يشاء ، وبهذا التفويض يفوز المؤمن ويصل الى مطلوبه كما قال :

« فقد استمسك بالعروة الوثقى » :

فهو كمن نزل من جبل شاهق وهو متعلق بحبل متين لا ينقطع ، فهو واصل الى سفح السلامة لامحالة . أو كما قال ابن كثير : «فقد أخذ من الله موثقاً ألا يعذبه».

« والى الله عاقبة الأمور » :

الى الله وحده مآل الأمور فيثيب الطائعين ويجزل لهم العطاء .

« ومن كفر فلا يحزنك كفره » .

لأنه أهون من أن تأسف عليه أو يأسف عليه أحد طالما جحد كل تلك الآيات وتنكر لنعماء الله وكفر بها .

« إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور » :

نحاسبهم ونجازيهم بسيئات أعمالهم ولن تفوت منهم خفية لايجازون عليها ، لأن الله تعالى عليم بأخفى خفيات الانسان التي أصبحت لشـدة خفائها كأنهـا ذات صدره محال أن تخرج منه فالله يعلمها ، ويحاسبه عليها .

« نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم الى عذاب غليظ » :

نمتعهم متاعاً قليلاً وهو انتفاعهم التافه في دنياهم ثم نلزمهم عذابـاً شـديداً لاينفك عنهم ولا يزول .

البـلاغة :

١ ـ شبهت الآيات المؤمن حيث جعل التصرف في نفسه مرتبطاً بمرضاة الله وفوض أموره لله كمن سلم المتاع لصاحبه يتصرف فيه كما يريد . وفي التعبير عن النفس بالوجه مجاز مرسل علاقته الجزئية والكلية .

٢ ـ الحصر لتقديم ماحقه التأخير في قوله : « الى الله » وقـوله « إلينـا مرجعهم » •

٣ ـ شبهت الآيات إلزام العذاب للكفار باضطرار المضطر للشيء لامفر له منه ثم أكد القرآن ذلك وضاعف هوله في قوله « عذاب غليظ » أي فظيع صعب مشق على النفوس • وعبر عنه بقوله « غليظ » تشبيهاً له بالجرم الكثيف لايطيق صاحبه له رفعاً ولا دفعاً بل هو لازم لايخرج من تحته • وحذف المشبه به وهـو الجرم على سبيل الاستعارة المكنية • وفيه مع ذلك الكناية عن لزومه وعدم زواله •

* * *

عظمة قدرة الله وعلمه

قال الله تعالى :

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ
يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾
مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ
ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ
ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ
كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ
وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

سورة لقمان (٢٥ ــ ٣٢)

سبب النزول :

روي في سبب نزول الآية [1] أن المشركين قالوا إن هذا القرآن سينفد ، فأنزل الله تعالى : « ولو أن ما في الأرض ... » .

المفردات :

والبحر : المقصود به البحر المحيط لأنه المراد عند الإطلاق .

سبعة أبحر : المقصود بالسبعة هنا الكثرة لا الحصر بهذا العدد ، ولا أن هناك سبعة أبحر محيطة بالعالم كما يقول من تلقى عن الاسرائيليات .

كلمات الله : الكلمة في اللغة معروفة وهي مفرد الكلام . أما المقصود بها هنا فقد اختلفت آراء المفسرين ، فذهب جماعة منهم النسفي وغيره الى أنها معلوماته سبحانه لأن الكلمات تعبر عن العلم .

وقال ابن كثير : « كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله » . واختار القرطبي وتابعه الشوكاني أن يكون المراد بالكلمات هنا كلام الله الذي هو صفته سبحانه أخذاً بظاهر العبارة وتوافقاً مع سبب النزول .

يولج : يدخل .

كلٌ : أي كل من الشمس والقمر .

أجل مسمى : معين معلوم . هو آخر الشهر للقمر ، وآخر السنة للشمس ، وقيل : يوم القيامة .

الفُلْك : بضم الفاء وسكون اللام ، وفي قراءة بضم اللام أيضاً وهو: السفينة ، يطلق على الواحدة فيذكر ويكون جمعاً فيؤنث .

(1) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٥١ .

بنعمة الله : بإحسانه ورحمته ، قيل بالريح لأن الريح من نعم الله وهو تفسير ضعيف لأنه تفسير للفظ العام بشيء خاص •

آياته : دلائل قدرته البالغة ونعمته •

صبار : كثير الصبر على البلاء • وهي صيغة مبالغة من صابر •

شكور : كثير الشكر على النعم • صيغة مبالغة من شاكر •

مقتصد : أصل الكلمة « قصد » بمعنى توسط ، طلب الأسدّ ولم يجاوز الحد ، وهذا يناسب ما عليه أكثر المفسرين من تفسير المقتصد هنا بأنه موفٍ بما عاهد الله عليه في البحر من إخلاص الدين •

ختار : كثير الختر وهو أقبح الغدر • صيغة مبالغة • وكذا كفور مبالغة ، أي جحود •

الاعراب :

ليقولُنّ : جواب القسم سد مسدّ جواب الشرط في قوله « لئن سألتهم •• » •

والبحرُ : بالضم : الواو للحال والجملة في محل نصب حال • وبالنصب عطفا على اسم ان وهو « ما » في قوله : ولو أنّما » •

المعنى :

تبين هذه الآيات عظمته تعالى وقدرته وصفاته ، وان المشركين يعترفون بذلك حين يواجهون بدلائل الكون ثم مع هذا يعبدون معه شركاء •

وهذا الذي أخبر عنه القرآن هو دأب الكفرة في كل عصر فالملاحدة يقرّون ضمناً بالخالق المبدع لكنهم يسترون ذلك الذي تنطق به فطرتهم بمخادعات كلامية

فارغة حيث يسمونه « الطبيعة » أو « عوامل مؤثرة مصادفة » أوجدت الحياة ٠٠ ؟! وإذا سألتهم عن هذه الطبيعة هل هي قادرة أم لا ؟ عليمة أم لا ؟ متصفة بالحياة والإرادة ٠٠٠٠الخ كان لابد من الجواب بأنها تتصف بهذا كله وغيره مما لابد منه لكي يصدر عنها الخلق •

« قل الحمد لله » :

أي الحمد لله إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ، أو الحمد لله على وضوح الحق في براهين السموات والأرض واستقراره في طبائع النفوس والفِطَر [1] •

« بل أكثرهم لايعلمون » :

هـذا إضراب انتقالي قصـد به الانتقال عن مجادلتهم وانتصار الحق عليهم كما ينبيء عنه هذا التعقيب « الحمد لله » ، إلى تعقيب آخر يحكم على وضع هؤلاء الكفرة بأن « أكثرهم لايعلمون » •

أي لاينظرون ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء تجب له العبادة دون غيره [2] •

ثم قال سبحانه :

« لله مافي السموات والأرض » :

فقـرر بهذا أنه وحـده يملك العوالم كلها العلوية المعبر عنها بالسموات ، والسفلية المعبر عنهـا بالأرض فهو يملكها وحده (أي فيجب إفراده بالعبادة دون سواه) ثم ذيل بقوله :

(١) النسفي ج ٣ ص ٢٨٣ •

(٢) بتصرف يسير عن الشوكاني ج ٤ ص ٢٤٢ •

« إن الله هو الغني الحميد » :

هكذا على سبيل الحصر والتأكيد أي هو وحده الغني عما سواه وكل شيء فقير له سبحانه ، وهو الحميد أي المحمود في جميع ماخلق وشرع •

ثم ذكر مايدل على غاية عظمته وصفاته العلية وأسمائه الحسنى وعلمه العظيم سبحانه فقال :

« ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام ••• » :

فعرض أمام الإنسان مشهداً كونياً واسعاً يقرب لعقله المحدود سبيل معرفة مالا حد له ولا نهاية • فعرض الدنيا وكأنها قد تحولت كلها الى أدوات للكتابة وكتاب ، فالشجر بَرِيَ أقلاماً والبحر أصبح مداداً يمده من ورائه أبحر كثيرة وهذا يعني أن الخلق كلهم أصبحوا كتبة يكتبون كلمات الله الدالة على عظمته وعلمه وجلاله سبحانه ومع ذلك كله لما انتهت أو نَفِدَتْ كلمات الله ولنفد المداد وذابت الأقلام •

« إن الله عزيز » :

غالب على كل شيء لايعجزه شيء « حكيم » لايخرج عن علمه وحكمته شيء ، يضع الأمور في موضعها المناسب لها •

« ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميعٌ بصير » :

أي ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة الى قدرته الا كنسبة خلق نفس واحدة اليها ، فالجميع هيّن عليه على حدٍّ سواء •

« إن الله سميع بصير » :

قال ابن كثير : (أي كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم ، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة ، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة) •

« ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ... » :

يستشهد القرآن بمشهد لنعمة عظيمة من نعم الله : هي تبادل الليل والنهار ، ودخول أحدهما في الآخر كلما أقبل المساء وأقبل الصباح . مشهد عجيب يتكرر دائماً على غير اختلال واضطراب .

« وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجلٍ مُسَمّى » :

وهي آية كبيرة تدل على عظمة الله وعلمه حيث قدر لهما الفلك الذي يناسب دورة كل واحد فهو يجري إلى الوقت المعلوم عنده سبحانه ، وهو يوم القيامة ، أو الوقت الذي تنتهي فيه دورة كل واحد منهما ليبدأ دورة أخرى . الشمس الى آخر السنة والقمر الى آخر الشهر . وهو الأقوى هنا لمناسبة الاستشهاد ولقوله تعالى : « ألم تر » .

« وأن الله بما تعملون خبير » :

فهو الخالق المدبر وبالتالي العالم بكل شيء سبحانه .

«ذلك بأن الله هو الحق » :

ذلك النظام الكوني البديع في إيلاج الليل في النهار وتسخير الشمس والقمر قائم بسبب أن الله حق" لاريب فيه واحد لاشريك له .

« وأن ما يدعون من دونه الباطل » :

لا وجود له وليس شيئاً غير الباطل .

« وأن الله هو العلي » :

الذي لانهاية لعلو عظمته سبحانه فهو وحده العلي ، « الكبير » الذي هو أكبر من كل شيء فكل شيء حقير خاضع له سبحانه .

ثم يعرض القرآن لآية عظيمة من آيات اللـه تعالى فيها دلائل نعمته السـابغة وقدرته القاهرة :

« ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته » :

إن السفن وهي تجري على ظهر البحر محملة بأنـواع الخيرات تشـهد بفضل الله الذي سخرها ، وبما أعد في الكون من أنظمة سهلت ذلك الجري •

« إن في ذلك لآيات » تنفـع وتؤثـر في نفس المتكمل بالفضائل « لكل صبار شكور » ، فهو يقف دائماً موقفاً سـديداً حكيمـاً ، يصبر في الضراء صبراً كثـيراً بليغاً ، ويشكر في السراء شكراً كثيراً لاينقطع •

« وإذا غشيهم موج كالظلل ••• فمنهم مقتصد » :

الناس إذا ركبوا البحر وثارت عليهم أمواجه تغطيهم كالسحب وتظلم لشدة ارتفاعها وظلمتها ، يتجردون من القوة المغرورة وتبقى الفطرة تدفعهم للجوء الى الله والخشوع له ، وعنـدما يخلصهم من تلك الأهـوال إذا هم قسـمان : « فمنهـم مقتصد » وهو القليل الذي يوفي بعهده ويبقى على إخلاص الدين للـه ، والقسـم الآخر عبر عنه بقوله : « وما يجحد بآياتنا إلا كل ختارٍ كفور » : نكث العهـد ولم يبق على إخلاص الدين لله•وهؤلاءلم تذكرهم الآية صراحةً اكتفاءً بمعرفةحالهم من السياق في ذلك التنديد ، وهو تعبير قوي يبين سبب انقلاب هؤلاء عن الإيمان وهو خبث نفوسهم وانحطاط طبائعهم الخبيثة اللئيمة ، التي درجت على الغدر أقبح الغدر والكفر أقبح الكفر •

البلاغة :

١ ـ القصر بتقديم ماحقه التأخير « لله مافي السـموات » ، وبتعريف طرفي الجملة الاسمية « ان الله هو الغني الحميد » ،« الله هو الحق » ، « مايدعون من دونه الباطل » ، « الله هو العلي الكبير » ، وكل ذلك لتقرير التوحيد •

٢ ـ ضرب المثل لسعة علم الله وعظمة صفاته ، بتصوير الكون كله جهاز كتابة وتقوية الصورة بافراد (شجرة) وزيادة (من) حتى لاتبقى شجرة إلا بريت أقلاما ، ثم التعبير بجمع القلة « ما نفدت كلمات الله » ، أي ان القليل من كلامه لاتفي بكتابته البحار فكيف بكلمه كله .

٣ ـ الايجاز بالحذف في آيته « ما خلقكم ولا بعثكم » ، وقوله « فمنهم مقتصد » أي منهم كافر ، دل عليه تمام الآية .

الاستنباط :

١ ـ ان الايمان بالله وتوحيده مَغْرُوز في فِطَرِ النفوس ، لذلك فإنها إذا فوجئت بسؤال « من خلق السموات والأرض » أو أحيطت بالشدائد آمنت وأخلصت وتركت إلحادها ، وشركها ، لأنها تكون قد تخلصت من العوارض التي أفسدت فطرتها . وكذلك تسمية الملاحدة : « طبيعية » إقرار ، لأنا اذا سألناهم هل الطبيعة موجودة ، عالمة قادرة ، فلابد أن يقولوا : نعم .

٢ ـ ان كسل العقل عن التفكير في دلائل الخلق سبب الجهل بالله والكفر ، لذلك لابد من العلاج بتوسيع آفاق الانسان ، وقد عني القرآن بذلك جدا ، كما هو واضح من سورة لقمان .

٣ ـ ان صفات الله تعالى وعلمه ، لاتنفد ، ولا تفي بكتبة شيء منها البحار .

٤ ـ اعجاز القرآن العلمي ، فقد قرر تسخير المكونات كلها للانسان ، وكان الناس يخضعون للطبيعة ويقدسون النجوم أو يعبدونها .

٥ ـ أهمية الفضائل الخلقية في استقامة العقيدة «لآيات لكل صبار شكور» والتحذير من مساوىء الأخلاق ، وانها دافع للكفر « وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور » . وتأمل صيغة الحصر ، لتحذر كل الحذر .

التذكير بالآخرة وضعف علم الانسان

قال الله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

سورة لقمان (٣٣ ـ ٣٤)

اللغة :

تغرنكم : تخدعنكم ٠

الغرور : الشيطان ، أو الأمل الكاذب ٠

الغيث : المطر ٠

المعنى :

بعد أن عرضت السورة ما يوجب الايمان بالله وتوحيده وشكره ، اتجهت في الختام بخطاب قوي الى الناس تأمر بالتقوى وتحذر من أهوال القيامة تأكيداً لما طالبت به السورة من شكر نعم الله وتوحيده ٠ وقد صورت الآية هول يوم القيامة بعرض بعض مشاهده ٠

« لايجزي والدٌ عن ولده » :

فالوالد الشفيق الذي يحمي ولده بنفسه في الدنيا ويؤثره عليها ، لايغني عن ولده ولا يحمل عنه من العذاب والأوزار شيئاً في الآخرة .

« ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً » :

والولد البار لايغني شيئاً عن والده ولا يحمل عنه من ذنوبه وأوزاره لشدة الأهوال ودقة الحساب . « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

« إن وعد الله حق » :

ثابت لايتأخر ، مؤكد غاية التأكيد لأنه وعد الله ، ثم أردف بما يُزيحُ الآمال الفارغة التي تغري الانسان بالقعود عن واجبه الكبير نحو ربه .

« فلا تغرنكم الحياة الدنيا » :

بمتاعها ولذاتها وزخارفها عن الآخرة .

« ولا يغرنكم بالله الغرور » :

أي الشيطان كما فسره ابن عباس وغيره ، فإن الشيطان يدأب على مخادعة هذا الانسان بالآمال الفارغة والتمنيات الكاذبة .

« إن الله عنده علم الساعة ويُنزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير » .

تقرر السورة هنا التحذير السابق من الاغترار بالدنيا بالتذكير بجهل الانسان بألصق الأشياء به : فهذا الانسان لايعلم عن تحديد مصير عالمه النهائي أي شيء ، والله هو الذي ينزل المطر يغيث الأرض ولا يعلم أحد غيره متى ينزل المطر ، وهو وحده يعلم ما في الأرحام من ولد ذكر أو أنثى ، ويعلم أطوار تخلق الولد في الرحم وزيادة الدم أو نقصه الى آخر ما هنالك ... ولا تدري النفس أخص شيء بها وهو ماذا تفعله

غداً والمكان الذي تموت فيه فكيف يغتر هـذا الإنسان وهـو ضعيف الى هـذه الدرجة ؟ وكيف ينخدع بالآمال والوسـاوس ؟! « ان الله عليم خبـير » ببواطن الاشياء وخفياتها كلها .

البلاغة :

١ ـ يقع هذا الاختتام على غاية المناسبة لمضمون السـورة العام ، وللآيـة الأخيرة قبله التي ذكرت هول البحر وخوف الناس منه ، فكأنها تقول : إذا كان هذا حالكم في مثل هذا الخوف الصغير فاحسبوا حساب الخوف الأكبر .

٢ ـ أشارت الآية الى عظم هول يوم القيامة بإيراده منكراً « يوماً » إشارة الى أنه لهوله لا يُحاط بوصفة ومعرفته فلا يُعرّف .

٣ ـ لقد راعى القرآن غاية الدقة في الأداء الفني لهذه العبارات الخمس :

فجعل العلم لله لأنه أكمل الإحاطات وهو وصف ثابت له سبحانه ، وعبر عن اطلاع نفس الانسان بالدراية ، لما في الدارية من معنى الاجتهـاد والحيلة كما قال النسفي : « والمعنى هنا أنها لاتعرف وإن أعملت حيلها ما يختص بها » . ولا شيء أخص بالانسان من كسبه وعاقبته فإذا لم يكن له طريق الى معرفتها كان معرفته ما عداها أبعد .

الاستنباط :

١ ـ التحذير من الاغترار بالدنيا ، والانخداع بالآمال عن التقوى والعمل الصالح .

٢ ـ في الآية الأخيرة دلالة على أن المذكورات فيها غيب لايعلمه إلا الله . قال عبد الله بن مسعود ، « أوتي نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شيء غير خمس » : « إن الله عنده علم الساعة ... الى آخر الآية » أخرجه أحمد (١) .

---

(١) المسند ج ١ ص ٣٨٦ .

وصح أنه ﷺ قال : « مفاتيح الغيب خمسة لايعلمهن الا الله ، ان الله عنده علم الساعة ... الآية » (١) .

٣ ـ قد يشكل ما قررناه بتنبؤات الأرصاد الجوية ، وكشوف الأشعة على الرحم ؟ .

والحقيقة أن أخبار الأرصاد الجوية ، وإخبار الطبيب عما في رحم المرأة في هذا العصر الأخير لايشكل على هذه الآية ، وذلك من عدة أوجه منها : أن علم الله ذاتي له قديم ، وعلمنا هذا ناشيء عن النظر في العلامات ، واجراء بعض الحسابات ، أو إزالة الحجب ، فليس هو علماً بالغيب ، وقد أشار القرآن الى امكان ذلك ، فقال : « وهو الذي يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته » .

وبهذا الاختتام البليغ قررت الآية وعمقت في القلب ما سبق من النهي عن الاغترار بآمال الدنيا ، وأرسلت فكر الانسان يسبح الى مالا نهاية له في علم الله العظيم ، وفي جهل المخلوق المسكين ، لينتهي به هذا الفكر الى تلقي آيات الله الحكيم ، حيث شعر في نهاية المطاف أنه يجب أن يلوذ في العلم والعقيدة ونظام الحياة بعلم العليم الخبير ، فلا يجد مناصا ولا سبيلا الا العودة إليه ، الى آيات كتابه الحكيم ، تبارك وتعالى ، وبذلك أعادتنا السورة في خاتمتها الى فاتحتها : « تلك آيات الكتاب الحكيم » .

تم تفسير سورة لقمان

ولله الحمد

* * *

---

(١) البخاري في آخر الاستسقاء (لايدري متى يجيء ...) ج ٢ ص ٣٣ وانظر تفسير ابن كثير فقد أورد جملة من الاحاديث في ذلك .

سُورَةُ المُلْكِ

ترتيبها ٦٧ — آياتها ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾
ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن
تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ
يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ
ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ
مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾
قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ
﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ
تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى
هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ
﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ
وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى
كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ
أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ
ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

* * *

تفسير سورة تبارك (الملك)

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف عام بالسورة :

سورة « الملك » وتسمى « سورة تبارك الذي بيده الملك » وسورة « المانعة » و « المنجية » كما سنذكر من الأحاديث ان شاء الله تعالى .

وهي سورة مكية كلها باتفاق العلماء ، تبلغ عدة آياتها ثلاثين آية ، كما نص عليه الحديث الشريف . وموضوع السورة تقرير توحيد الافعال ، أي اعتقادان الله وحده هو المتصرف في العالم .

مناسبة السورة لما قبلها :

ترتبط سورة « الملك » بالسورة التي قبلها وهي سورة « التحريم » بعدة أوجه من المناسبات نذكر منها :

أنه تعالى اختتم سورة التحريم بآية عظيمة معجزة هي خلق عيسى عليه السلام من غير آب ، فناسب ذلك افتتاح سورة الملك بما يدل على غاية عظمة قدرة الله فقال : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » [1] .

---

(١) قارن بتفسير روح المعاني للالوسي ج ٩ ص ١٢٠ فهذا أقوى وأوضح مما ذكره .

فضل السورة :

وردت عدة أحاديث في فضل سورة تبارك ، وما أُعِدَّ لمن يقرؤها بتدبر، وفهم، وذلك لعظمة مضمونها ، نذكر من هذه الأحاديث :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له « تبارك الـذي بيده الملك » . أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة رجل من الصحابة قال : « يارسول الله ضربتُ خِبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ؟ » . فقال ﷺ : « هي المانعة هي المنجية من عـذاب القبر » أخـرجه الترمذي [1] .

* * *

---

(١) انظر للاستزادة تفسير ابن كثير والدر المنثور .

بسم الله الرحمن الرحيم

الملك في قدرة الله

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾
ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن
تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ
يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

سورة تبارك « ١ — ٤ »

المفردات :

تبارك ، أصل هذا الفعل من البركة . وهي النماء والزيادة حسية كانت أو معنوية . وذكر المفسرون لقوله « تبارك » معنيين :

الأول : تعالى وتعاظم : أي اتصف بغاية العلو والعظمة ، وتقدس عن صفات المخلوقين .

الثاني : تكاثر إنعامه وخيراته على عباده ، حتى بلغ حداً لا يحيط به عد ، ولا إحصاء [١] .

(١) واعتمده الراغب في المفردات . مادة « برك » وانظر للتوسع روح المعاني ج ٩ ص ١٢٠ ، وتفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٢٣ .

يبلوكم : يختبركم .

تفاوت : اختلاف ، وعدم تناسب .

ارجع البصر : اردد بصرك الى السماء[1] .

فطور : شقوق وصدوع .

خاسئاً : بعيداً محروماً من وجدان ما بحث عنه من التفاوت .

حسير : حَسِرَ حَسَراً : تَعِبَ وأعيا . فهو حسير أي كليل مُتْعَب .

الاعراب :

الذي خلق : بدل من الذي قبله .

أيكم أحسن : أيٌّ مبتدأ ، والخبر أحسن .

الذي خلق سبع سموات : نعت للعزيز ، أو بدل .

طباقاً : صفة لسبع ، أي مطابقة ، أي بعضها فوق بعض ، عبر بالمصدر وأريد به اسم الفاعل ، أي ذات طباق على حذف مضاف .

من تفاوت : من حرف جر زائد ، تفاوت مفعول به ، وكذا « من فطور » .

افتتحت السورة بهذا الثناء الجامع المعبر :

« تبارك الذي بيده الملك » . وقد بين هذا الافتتاح تمجيد ذات الله تعالى وتعظيمه وزيادة خيراته وأفضاله على الملك الذي بيده ، ودوامها عليه .

وعبر القرآن بهذه الصيغة « تبارك » لأن هذه الصيغة « على زنة تفاعل » تختص بمعنى جليل ، هو الدلالة على غاية الكمال ونهاية التعظيم ، لذلك لم يجز

(١) راجع تفسير : « الجامع لاحكام القرآن » ج ١٨ ص ٢٠٩ .

المعنى :

استعمال الوصف بها للمدح الا لله سبحانه وتعالى . فلا يجوز أن تقول : «تبارك» أو « تعاظم » أو « تعالى » الا لله عز وجل [1] .

« الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » :

أي له السلطان النافذ في كل شيء : ملك السموات والأرض ، والدنيا والآخرة .

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » :

وقد بينت هذه الآية مثالين عظيمين من آثار السلطان الالهي والقدرة الالهية . هما : الموت والحياة . وأنهما مبنيان على قوانين الحكم وغاياتها الجليلة ، وهي اختبار الناس ، ليظهر أيهم أحسن عملاً .

وقد روي في الحديث أنه ﷺ قال في هذه الآية : « أيكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله تعالى ، وأسرع في طاعة الله عز وجل .. » [2] .

وعن السدي في الآية : « أيكم أحسن عملاً » قال : « أيكم أحسن للموت ذكراً ، وله استعداداً ومنه خوفاً وحذراً » [3] .

« وهو العزيز » الغالب المنتقم ممن عصاه « الغفور » لمن تاب إليه ورجع عن إساءته [4] .

---

(١) . ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم » المعروف بتفسير أبي السعود ج ٥ ص ١٧٧ .

(٢) أورده الألوسي في تفسيره روح المعاني ج ٩ ص ١٢١ . ومعنى « أيكم أحسن عقلا » أي أيكم أتم فهماً لما يصدر عن جناب الله ، وأكمل ضبطاً لما يؤخذ من خطابه سبحانه .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الايمان . انظر الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ج ٦ ص ٢٤٧ .

(٤) لباب التأويل للخازن ج ٤ ص ٢٩٠ وانظر مدارك التنزيل للنسفي بحاشيته .

« الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » :

فالله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير • هو الذي خلق سبع سموات فربطت الآية العقيدة اليقينية بسلطان الله وقدرته ووصلتها بهذا الخلق العظيم «خلق سبع سموات طباقاً » : مطبقة بعضها فوق بعض ، كل واحدة كالقبة على الأخرى •

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » :

هذا الخطاب الى كل انسان له عقل وبصر يقول له : « ما ترى » في هذا الخلق العظيم اي خلل أو نقص •

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة تقريراً في غاية القوة ، بأن وَجّه الخطاب بالأمر للتحدي الى كل من يتأتى منه الخطاب ويعقل الجواب « فارجع البصر هل ترى من فطور » ، فهذا الامر يتحدى كل من يعقل الكلام بأن « يرجع » أي يردد بصره في السماء يفتشها هل يرى فيها من فطور ، أي أدنى وأقل فطور أي تشقق وصدوع •

« ينقلب اليك البصر خاسئاً » :

اي يرجع اليك بصرك مطروداً محروماً من أن يشاهد أي خلل أو صدوع في السماء •

« وهو حسير » :

قال ابن عباس : « يعني وهو كليل » ، وقال مجاهد وقتادة والسدي : « الحسير : المتقطع من الاعياء ــ أي التعب الشديد ــ ولا يرى نقصاً » (١) •

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٣٩٦ •

البلاغة :

ليبلوكم : شبه معاملة الله لعباده لاظهار حقيقتهم بالاختبار . وحذف المشبه على سبيل الاستعارة •

خلق الرحمن : الأصل « ما ترى في خلقه » فأظهر في موضع الاضمار ، لبيان سبوغ رحمته عليها •

خاسئاً وهو حسير : في التعبير تشبيه للسماء بكائن حي يشعر بمن يتجسس عليه فيطرده بقماءة وذلة • والمراد أن يبين غاية إحكامها •

الاستنباط والفوائد :

١ ــ وقع في الآية الاولى : « الذي بيده الملك » ، فنسب لله اليد ، تعالت أسماؤه وصفاته •

وهذه النسبة في القرآن ونحوها من المتشابهات التي اشتهر كلام العلماء فيها ، وترجع الأراء المقبولة الى مذهبين شهيرين : مذهب السلف ، ومذهب الخلف •

فمذهب السلف : اعتقاد أن الله تعالى منزه عن مشابهة الخلق في أي صفة من صفاته ، وأن حقيقة معنى اليد وما شاكلها غير مراد قطعاً ، انما المراد معنى يليق بكماله سبحانه • الله أعلم بحقيقته •

ومذهب الخلف : أن المعنى الظاهر غير مراد لاستحالته في حق الله تعالى ، وبالتالي قالوا ان المراد هو معنى مجازي ؛ وفسروا اليد بالقدرة ، و « الرحمن على العرش استوى » بمعنى استولى ودبر العالم • وقوله : « ولتصنع على عيني » أي عنايتي •

والحقيقة أن المذهبين متفقان في الأصل وهو تنزيه الله تعالى عن أن يوصف بصفة تشبه صفة أحد من خلقه • وابعاد الكلام عن أن يقصد به شيء يتصل بذلك•

وهو تطبيق لقوله تعالى : « ليس كمثله شيء »، وقوله : « ولم يكن له كفواً أحد »، وغير ذلك من النصوص المُحْكمة ، والأدلة القطعية .

٢ ـ أن مبنى الموت والحياة على حِكْمَةٍ جليلة هي اختبار الناس أيهم أحسن عملاً . فالله تعالى يحض عباده ؛ أن يكونوا أحسن عملاً في كل عمل ، ديني ودنيوي وهذا هو التقدم الحقيقي الذي غفل عنه الناس وقصر فيه المسلمون .

٣ ـ قوله تعالى : « سبع سموات طباقاً » :

دل على أن السموات سبع . وأنها طبقات بعضها فوق بعض .

وقد كثرت الأقاويل في حقائق السموات . وحاول بعضهم اخضاع تفسيرها لبعض نظريات علم الفلك ، حتى وجد من يزعم أن السموات السبع هي الكواكب السيارة السبع . وهو مسلك مجاف للصواب في تفسير القرآن ، حيث جعل أصحابه النظرية أصلاً والقرآن تابعاً . وهذا خطأ في العلم وفي التفسير أيضاً .

* * *

عقاب الكافرين و ثواب المؤمنين

قال الله تعالى :

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ
الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ
السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ
مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾
قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ
إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾
وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

سورة الملك « ٥ ــ ١٤ »

المفردات :

مصابيح : جمع مصباح ، وهو السراج ، والمراد هنا الكواكب • سميت مصابيح لاضاءتها •

جعلناها رجوماً : أي جعلنا شهبها رجوماً • ورجوماً : جمع رجم بسكون الجيم . مصدر . معناه الرمي • والمقصود ما يرمى به •

أعتدنا : هيأنا •

السعير : أشد الحريق •

شهيقاً : أي صوتاً ، ويطلق على صوت الحمار • أي صوتاً منكراً فظيعا كصوت الحمير •

تفور : تغلي •

تميز : أصلها تتميز • حذفت التاء الأولى تخفيفاً ، ومعناه تتقطع وينفصل بعضها عن بعض من شدة الغضب •

الغيظ : قال الراغب : أشد الغضب •

سحقا : بعداً •

ذات الصدور : الأسرار المكنونة في الصدور •

الخبير : أصله من الخبر ، والله خبير : عالم بأخبار أعمالكم • وقيل : عالم ببواطن أموركم . وعليه عمل المفسرين •

الاعراب :

سُحقاً : مفعول مطلق منصوب بفعل محذوف ، والتقدير : أسحقهم الله سحقاً أي باعدهم بعداً .

بالغيب : الجار والمجرور « بالغيب » متعلق بمحذوف حال من الفاعل ، والمعنى يخشون عذاب ربهم حال كونهم غائبين عنه .

ألا : « ألا » هنا مكونة من أداتين : الهمزة للاستفهام ، وهو هنا استفهام انكاري للنفي ، ولا النافية ، والمعنى حقاً يعلم من خلق .

من خلق : مَن » فاعل يعلم . ومفعول خلق محذوف تقديره جميع الأشياء . المعنى ألا يعلم السر والجهر من خلق جميع الأشياء ، ومنها السر والجهر .

المعاني :

بعد أن بين الله تعالى في الآيات السابقة اعجاز السماء ودلالتها على عظمة الله وسلطانه لما فيها من دقة الصنع واتقانه البالغ غاية الغايات ، بين في هذه الآيات دلالتها على عظمته سبحانه من جهة أخرى هي كونها في غاية الجمال فقال : « ولقد زينا السماء الدنيا » أي القربى منكم « مصابيح » ، أي وبالله لقد فأقسم لإظهار كمال الاعتناء بمضمون الآية ، ثم عبر بنون المتكلم المعظم « نا » في قوله « زينا » و « جعلناها » دلالة على عظمة الله وقدسيته . ثم ذكر لهذه المصابيح منافع أخرى :

« وجعلناها رجوماً للشياطين » :

ترميهم بشهب تنفصل عنها ، لتدحرهم عما أرادوه من تطلع أخبار السماء .

« وأعتدنا لهم » :

هيأنا للشياطين العذاب المحرق البالغ أشد الاحراق .

« والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير » :

بين هنا أن العذاب مُسْتَحَقٌ لكل من كفر بالله عز وجل على سبيل الاستئناف .

ثم ذكر ما يلقون فيها من شديد العذاب في تصوير مروع مخيف :

« إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور » :

فأول ما يحسون منها فظاعة صوتها الذي سماه « شهيقاً » وهو صوت الحمير أنكر الاصوات .

« وهي تفور » :

قال ابن عباس : « تغلي بهم غلي المرجل » . وهذا من شدة لهب النار من شدة الغضب ، كما يقول : « فلان يفور غيظاً » . وقال مجاهد : « تفور بهم كما يفور الحب القليل في الماء الكثير » [1] .

«تكاد تميز من الغيظ » :

أي توشك جهنم أن تتقطع وتنفصل عن بعضها البعض لما بها من أشد الغضب على هؤلاء الذين كفرو بربهم [2] . وفي هذا العذاب المروع :

« كلما أُلْقي فيها فوجٌ سألهم خَزَنَتُها » :

وهم حراس النار والقائمون بعقاب أهلها :

---

(1) أخرجه هناد وعبد بن حميد : الدر المنثور : ج ٦ ص ٢٤٨ .

(٢) انظر أقوالا متعددة في الألوسي ج ٩ ص ١٢٦ .

« ألم يأتكم نذير » :

ويعلم الخزنة أن الرسل جاءتهم وأنذرتهم هول العذاب ، لكنه سؤال التوبيخ واللوم يضاعف عليهم ما يلقون من العذاب .

« قالوا : بلى قد جاءنا نذير » :

« قالوا » اعترافاً بأنه عز وجل قد أزاح عللهم بالكلية : «بلى قد جاءنا نذير» .

هكذا بالتأكيد والتحقيق « قد جاءنا نذير فكذبنا » أي الرسل وقلنا : ما نزل الله من شيء ، ان أنتم الا في ضلال كبير » : أي ما أنتم الا في ضلال كبير .

ثم عادوا على أنفسهم باللوم : « وقالوا لو كنـا نسمع أو نعقل ما كنـا في أصحاب السعير » : فقد أقروا أن الدعوة كانت في غاية الوضوح والقوة يدركها كل ذي سمع وكل ذي عقل ، لكن الآفة منهم ، حيث غلبهم الهوى حتى عطّلوا أسماعهم وأبطلوا عقولهم ، لأنهم لم ينتفعوا بأهم ما خلقت له هذه المواهب .

قال الحق سبحانه : « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » : أي بعداً لهم عن رحمة الله ، فذكر الله تعالى عدله في خلقه ، وأنه لايعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه . كما قال : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

وأخرج الامام أحمد في المسند [1] عنه ﷺ أنه قـال : « لـن يهلك الناس حتى يُعْذِرُوا من أنفسهم » . أي تزال أعذارهم التي يعتذرون بها عن ضلالهم أو فسقهم .

ثم ذكر القرآن نعيم المؤمنين الصالحين اكمالاً لما أشار اليه في صدر السورة

(1) المسند ج ٦ ص ٢٦٠ وانظر ج ٥ ص ٢٩٣ .

بقوله : « ليبلوكم أيكم أحسن عمــلاً ••• » ، وقد عبر القــرآن عــن المؤمنين بهذا الوصف :

« إن الذين يخشون ربهم بالغيب » : وهو وصف جليل يصف المؤمنين بغاية الصدق في ايمانهم بالله والتعظيم لربهم ، فخافوا عذابه وإن لم يروه •

« وأسرو قولكم أو اجهروا به » :

وهو تقرير لوجوب خشية الله وترسيخ لها في القلب وأنه لابد من حصــول الثواب والعقاب • لان السر والجهر عنده سواء •

« إنه عليم بذات الصدور » :

أي أنه عالم غاية العلم بمضمرات صدور الناس وأسرارهم الخفية المستقرة في صدورهم لاتفارقها •

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »•

أي ألا يعلم السر والجهر من خلق جميع الاشياء ومن بينها الســر والجهر ، وهو سبحانه اللطيف الخبير : اللطيف الذي يتوصــل الى ما يريــد بأدق الوسائل وأخفاها وأنفذها ، فهو يعلم خفايا الصدور ، وهو سبحانه « الخبير » المتوصــل علمه الى دقائق الأمور وخفاياها ، لاشك أنه يعلم مخلوقاته غاية العلم وأعظم •

البلاغة :

١ ــ تشبيه السماء بسقف الدار ، والنجوم بالمصابيح المعلقة فيه •

٢ ــ « سمعوا لها شهيقاً » الشهيق من التنفس ، فهو استعارة • شبه جهنم بكائن حي وهو الحمار ، ورمز له بشيء من لوازمه : استعارة مكنية • وكــذا في قوله : « تميز من الغيظ » لأن الغضب صفة الانسان •

٣ ـ « قالوا : بلى قد جاءنا ... » إطناب لاظهار غاية ندامتهم وتحسرهم .

٤ ـ « إن أنتم الا في ضلال » حصر ، أي ما أنتم الا في ضلال ، لافادة غاية كفرهم وشدة تكذيبهم للرسل .

٥ ـ « وأسروا قولكم أو اجهروا به » قدم السر للمبالغة في إحاطة علمه ، حتى كأن علمه بالسر أقدم من الجهر .

الاستنباط :

١ ـ كمال إقامة حجة الحق على الخلق ، واعترافهم بذلك حتى وهم يعذبون .

٢ ـ شمول الحجج جانب العقل والنقل ، لقولهم « نسمع أو نعقل » .

٣ ـ وجوب الخوف من الله في السر والعلن ، لأنه يحيط علماً بهما .

* * *

التحذير من العقاب الدنيوي

قال الله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ
﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ
تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى
هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ
﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ
وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

سورة الملك « ١٥ ــ ٢١ »

اللغة :

ذلولاً : من الذل ، وهو اللين والانقياد .

مناكبها : جمع منكب وهو ـ كما في المفردات ـ مجتمع ما بين عظمي العضد والكتف . ومنه استعير للارض قال « فامشوا في مناكبها » انتهى . والمعنى امشوا في جوانبها وأطرافها .

النشور : الحشر يوم القيامة .

تمور : من المَوْر وهو الاضطراب بالذهاب والمجيء . وقال الراغب : « المور الجريان السريع » .

حاصباً : حجارة من السماء . وقيل ريح فيها حجارة وحصباء . وقيل : سحاب فيه حجارة ! .

نذير : أصله نذيري ، حذفت منه ياء المتكلم . أي إنذاري .

نكير : أي إنكاري ، بحذف ياء المتكلم ، والمراد من النكير انزال العذاب عليهم .

صافات : باسطات أجنحتها في الجو . « ويقبضن » : يضربن بأجنحتهن على جنوبهن .

غرور . خداع .

لجوا : تمادوا عناداً . اللجاج التمادي فيما زجر عنه الانسان عناداً .

عتو : تكبر .

نفور : شراد وتباعد عن الحق .

الاعراب :

أمّن : مركبة من كلمتين هما : « أم » و « من » أدغمت الميم في الميم فصارت « أمّنْ » . « أم » هنا منقطعة . وأم المنقطعة تفسر بكلمتين « بل » وهمزة الاستفهام وبل هنا للاضراب الانتقالي . أما همزة الاستفهام فلا مجال لتقديرها هنا لأن بعدها « من » وهي للاستفهام . والاستفهام لايدخل على الاستفهام في المعروف عندهم [1] .

أمسك رزقه : منعه ، والفاعل ضمير مستتر يرجع الى الله ، أي ان منع الله الرزق عنكم ، وجواب الشرط محذوف تقديره : « فمن يرزقكم غيره » . أي لايرزقكم أحد غيره .

البلاغة :

أأمنتم : الاستفهام للتوبيخ .

ذلولا : شبه الأرض في تسهيلها للناس بالدابة المذللة أي المنقادة لهم ، وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية .

المعنى :

بين القرآن هنا سوابغ نعم الله عليهم بياناً فيه اظهار قدرته تقوية لدعوتهم الى توحيد الله وطاعته فقال :

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا » : أي أنه تعالى جعل الارض منقادة مسهلة لكم .

« فامشوا في مناكبها » :

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : « أطرافها وفجاجها ونواحيها » . فما على الانسان الا أن يثير هذه المنافع كما أمر الله وقال له :

---

(1) روح المعاني ج ٩ ص ١٣٢ .

« وكلوا من رزقه » :

أي التمسوا من نعمه على شتى أنواعها ، وليس المقصود خصوص الاكل فقط كما يتوهم ، لكنه ذكر الأكل لأنه الاهم الأعم . وهذا كله قد جاء بصيغة الأمر « فامشوا » و « كلوا » لاظهار المنة والرحمة الالهية بهذا الانسان ، حتى يشكر نعمة ربه ، ولذلك عقبت الآية سياق هذه النعمة بهذا التذكير :

« وإليه النشور » :

فذكرهم بأنه اليه وحده سبحانه المرجع لا الى غيره .

« أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور » :

عقب ذلك بقوارع من التذكير حتى ينتبه الناس من غفلة الطمأنينة على هذه الأرض المستقرة المذللة ويرجعوا الى الله تعالى . وقد خاطبهم بقوله « أأمنتم » يستنكر عليهم هذه الغفلة . ثم ينتقل الى تهديد آخر . « أم أمنتم » ؟ أي بل أأمنتم .

« من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً » :

حجارة من السماء تحملها الأعاصير أو غيرها مما يرسله بالعذاب : فستعلمون عند مشاهدتها كيف انذاري لكم وتوقنون به ، لكن حيث لاينفع العلم شيئاً . وهو تهديد قوي جداً ، يشير الى وشك نزول العذاب بالمعاندين .

« ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير » :

وهو تذكير مخيف تأكد بالقسم « ولقد » ثم ختم بهذا الاستفهام للتعجيب من هوله « فكيف كان نكير » أي انكاري عليهم بانزال العذاب !! .

« أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير » :

هذا برهان على ما سبق من الوعيد يذكر بمشاهدة الطير وهو يطير في الهواء • وقد بدأ التذكير بهذا الاستفهام الانكاري :« أولم » ، أي أغفلوا « ولم يروا الى الطير فوقهم صافات » بسطات أجنحتها ،« ويقبضن » أي تضرب جنوبها بأجنحتها في الطيران انه مشهد يدعو الى التفكير والتأمل في هذه الظاهرة الخارقة التي جعلت منها الالفة والتكرار شيئاً لايهتم به الغافلون فلفت القرآن اليها الأنظار •

ثم ذيلت الآية بقوله : «انه بكل شيء بصير » :

والمعنى انه لكونه اتصف بتلك القدرة والابـداع والرحمـة والصفات التي ظهرت آثارها في خلق الطير فهو سبحانه يعلـم كيفية ابـداع المبـدعات وتدبير المصنوعات ومنها خلقه للطير على وجه يتأتى به جريه في جو السماء •

ثم وبخ الله الكافرين أن يلجأوا الى غيره فقال :

« أمن هذا الذي هو جند لكم ••• » :

كأنه يقول : كفى مابينا من دلائل قدرة الله تعالى وسلطانه ماهذا السند «الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن » أي يمنعكم من عذاب الله تعالى ، وهـذا الأسلوب فيه توبيخ لهم بالاستفهام الذي يفيد النفي ، أي لا أحد ينصركم مـن دون الله تعالى •

ومن ثم سجل عليهم الحماقة في صنيعهم هذا فقال :

« إنِ الكافرون الا في غرور » :

فجاء تسجيلاً في غاية القوة والتأكيد في هذا الحصر : « إن الكافرون الا في غرور » : أي ما هم الا في غرور ، ثم بالتعبير بقوله : « في غرور » ، فقد أشار بذلك الى إحاطة الغرور بهم احاطة الظرف بالمظروف فهم غارقون في الضلالات والأوهام •
« أمن هذا الذي يرزقكم ان أمسك رزقه » :

أي بل من هذا الحقير الذي يرزقكم ان أمسك الله عز وجل رزقــه عنكم • فالرزقَ إنما يأتي بارادة الله تعالى وحده من أول مبتدأه الى أن يجنيه هذا الانسان الكفور •

أما ما يتوهمه هذا الانسان من جهده وصنعته فليس الا جنياً لحصاد قــدرة الله يجنيه أيضاً بما أعطاه الله من القدرة والعلم وغير ذلك ••• ••• ولذلك ذيّل الآية بقوله : « بل لَجّوا في عُتُوٍّ ونُفور » :

أي دعهم انهم متمادون في عصيان وتكبر وطغيان ، وفي نفور فظيع من الحق تلبس بهم حتى ظلوا في هذا الاعراض المتمرد النافر •

استنباط وفوائد علمية :

١ ـ قوله تعالى : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً » :

في هذه الآية مع وضوح المعنى المراد منها عمق عظيم يجعل العبارة ذات دلالة بعيدة لمن تأمل ودرس تقدم العلم • وهي آية الهية عظيمة جاء بها القرآن بهذا التعبير الذي يزيده تقدم الزمان قوة في البرهان على عظمة الله وسلطانه ، في حين جاء تقدم الزمان والعلم مُعْنِتاً على تراث الفكر الأرضي البشري ومبطلاً العقائد الدينيــة التي كانت عليها أمم كتابية أخرى • فكان ذلك برهاناً واضحاً ساطعاً يدل على اعجاز القرآن وحقية رسالته •

٢ ـ قوله تعالى : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » •

هذه الآية دليل على فضل الكسب وشرفه حيث أمر الله تعالى به عباده في هذه الآية (١) •

٣ ـ قوله تعالى في وصف طيران الطيور في الهواء : « صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن » • فيه اعجاز علمي في تصوير القرآن لمشهد الطيران حيث عبر

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ •

عن بسط الجناح في الطيران باسم الفاعل « صافات » وعن القبض بالفعل «يقبضن» ليأتي التعبير على غاية الدقة في موافقة قانون الطـيران ، فان الاصـل فيه بسـط اطراف الجسم الطائر في الهواء وهو القانون الذي بنيت عليه الطائرات الحـديثة بأنواعها ووجدت به رياضة الطيران الشراعي • وقد عرف المسلمون هذا القانون لكن لم تتوفر لديهم وسائل الافادة منه في زمنهم [٢] •

* * *

(٢) انظر الكشاف ومدارك التنزيل •

وضوح حجة المؤمنين و تحدي الكافرين

قال الله تعالى :

أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى
كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ
أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ
ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

سورة الملك « ٢٢ ـــ ٣٠ »

اللغة :

مكباً على وجهه : الكبّ إسقاط الشيء على وجهه • مكباً ساقطاً على وجهه •

سوياً : معتدلاً قائماً •

الأفئدة : آلات التفكير والعقل •

ذرأكم : نشركم في الأرض وفرقكم على ظهرها •

زلفة : قريباً ، وقال الحسن البصري : عياناً •

سيئت : أصل السوء القبح • والسيئة ضد الحسنة •

تدّعون : من الدعاء : أي تطلبونه وتستعجلون به في الدنيا •

غوراً : غائراً في الأرض ذاهباً في بطنها •

معين : من قولهم معنَ الماءُ : جرى • معين : جار •

المعنى :

بعد أن بين في الآيتين السابقتين عناد الكفار واستكبارهم وانخراطهم في مهاوي الغرور العمياء ضرب في مطلع هذا النص مثلاً للكافر والمؤمن الموحد تبياناً لحال الفريقين في وضوح الرؤية عند المؤمن وظلام القضية التي في قلب الكافر والملحد ، لذلك عطف بحرف الفاء فقال :

« أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى » :

وهذا مثل مادي يبين حقيقة حال الكافر والملحد وأنه ليس على بصيرة ولا يقين له بعقيدته • لذلك فان الكافر والملحد قلق دائماً من براهين الايمان والتوحيد ، [لايريح بالتسليم لأهلها ولا يستريح بالاذعان لها والاهتدار بضيائها] فهل هذا أهدى : « أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم » :

ان المؤمن « يمشيء سوياً » معتدلاً يرى كل شيء أمامه وهو في طريق مستقيم لاعوج فيه ولا خفاء لشيء منه .

« قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » :

وذكر أولاً في هذه الآية خلق أنفسهم فهذا الخلق العظيم المحكم الذي عليه الانسان لابد له من خالق ، وليس من المعقول أن عدماً يخلق موجوداً فان هذا من أوضح المستحيلات .

« قل هو الذي ذرأكم في الأرض واليه تحشرون » :

فبين اختصاصه بخلق الناس واظهارهم في هذه الدنيا ونشرهم فيها ، « واليه تحشرون » : أفاد أن الحشر مختص بكونه الى الله تعالى لا الى غيره ، هو يجمع الخلق بالبعث اليه بعد الموت ومن قدر وفعل الخلق الاول قادر على الاعادة في الحشر ، فهو دليل ضمني احتوت عليه الآية .

« ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » :

انه مجرد سؤال للشعب والتشكيك في أدلة الحشر القطعية لذلك جاء الجواب : « قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين » :

هذا وعد لايعلمه أحد الا الله وليست وظيفة النبي أكثر من الانذار أي اعلام الناس بمخاطر مخالفاتهم وأعمالهم .

« فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا » .

هددهم بما يلقون من هذا اليوم وعطف الكلام بحرف الفاء « فلما رأوه زلفة سيئت » أي قريباً منهم . وأكثر المفسرين على أن المراد ـ بقوله رأوه معناه العذاب الموعود وهو عذاب الآخرة الذي دل عليه قوله « تحشرون » .

« سيئت وجوه الذين كفروا » :

أي ظهرت عليهم المساءة والذلة بأن غشيتها الكآبة ورهقها القتر والذلة .

قال ابن عباس : « اسودت وعلتها الكآبة والقترة » . ووجهوا بهذا القول :

« هذا الذي كنتم به تدعون » : أي تطلبونه في الدنيا استعجالاً واستهزاء .

وبعد أن بين تحقق العذاب في هذه الصورة المعبرة رجع بالخطاب للكافرين يقول لهم : « قل أرأيتم ان أهلكني الله ومن معي أو رحمنا » :

والرؤية هنا مجاز عن الاخبار لانها سبب للاخبار،وفيها تحد لهم أن يأتوا بخبر يقيني آنه افترض أن الله أهلك النبي والمؤمنين ووقع ما يتمنى أعداؤهم بهم من الهلاك أو رحمنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم جزاء على كفركم . فمن يجيركم من عذاب الله ؟! أي لايخلصكم أحد فخلصوا أنفسكم بالتوبة والانابة والرجوع الى دينه [1] . وفي هذه الآية استدلال بديع يزحزح المعاندين من جحودهم .

وقريب من ذلك قول المعري :

زعم المنجم والطبيب كلاهما
لابعث بعد الموت قلت : إليكما

أن صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولي فالخسار عليكما

ثم يخاطبهم القرآن خطاباً ثانياً يترقى فيه من التهديد السابق الى الجزم باطمئنان النبي ﷺ والمؤمنين :

(١) عن روح المعاني بتصرف .

« قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا » :

فالله عز وجل من أعظم صفاته الرحمة ، ومن أعظم أسمائه الحسنى الرحمن أي البالغ الرحمة في حق عباده وقد آمنا به واعتمدنا عليه دون غيره في مصـيرنا ، ومن كان كذلك فهو ناج لامحالة ومضاده هالك لامحالة ، وألمـح الى ذلك تلميح الواثق في هذه الجملة :

« فستعلمون من هو في ضلال مبين » :

وأخيراً يوجه القرآن اليهم في ختام السورة هذا الخطاب الذي يهـز النفس من الأعماق :

« قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ مَعين » :

وهذا الزام لهم بالضعف الانساني عن أبسط شيء من ضروريات الحياة وهو الماء الذي جاءت به العناية الالهية على الناس حتى ظنوا أنه أمر سهل .

فوجه اليهم هذا السؤال وهو استفهام انكاري : « ان أصبح ماؤكم غوراً »: أي ذاهباً في أعماق الأرض .

« فمن يأتيكم بماء معين » : أي عذب كثير سهل المأخذ .

والمقصود أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر . أي أخبروني : إن صار ماؤكم ذاهباً في الأرض « فمن يأتيكم بماء معين » فلا بد وأن يقولوا : الله رب العالمين . فتضمن السؤال الالزام بعبادة الله وحده وألا يشرك به الانسان شيأ .

* * *

سُورَةُ القَلَمِ

ترتيبها ٦٨ — آياتها ٥٢

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢
وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤
فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧ فَلَا تُطِعِ
ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ
حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ
أَثِيمٍ ١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ
١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٥
سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ
لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١ أَنِ
ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣

أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ
رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ
ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ
﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ
عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم
بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾
خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ
﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم
مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ

لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا
أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ
فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ
لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة القلم

تعريف عام بالسورة :

سورة « ن و القلم » سورة مكية كلها ، نزلت في الفترة التي اشتدت فيها حملة قريش ضد النبي ﷺ ، وراحت تثير الاشاعات المختلفة عن النبي ﷺ وتلفق الأكاذيب .

· فنزلت السورة تكذب اشاعاتهم الباطلة عن النبي ﷺ وتبين عظمته ﷺ وفضله الذي لايقاس بشيء « انك لعلى خلق عظيم » ثم حذّرت السورة أهل مكة أن تزول عنهم هذه النعم التي يرفلون فيها . ثم تكشف السورة إفلاس المشركين من كل مستند وتحضّ النبي ﷺ في ختامها على الصبر ، « فاصبر لحكم ربك » .

مناسبة السورة لما قبلها :

ترتبط سورة « ن » بسورة الملك التي قبلها بأكثر من وجه نذكر منها :

١ ـ ان سورة الملك تقرر التوحيد وهذه تقرر النبوة فهي تكمل سورة الملك بتقرير الشطر الثاني من كلمة التوحيد : لا اله الا الله محمد رسول الله .

٢ ـ في آخر سورة الملك : « قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » اشهاد لكل معاند أن الذي يأتي بالماء هو رب السماء والماء أساس الحياة للأبدان ، فكذلك أيضاً هو ينزل الوحي الذي هو أساس حياة الأرواح والقلوب ، فما الاستغراب من تنزيل الوحي على النبي ﷺ الا من جهل المنكرين وعنادهم .

فضل النبي صلى الله عليه وسلم

سورة القلم — ترتيبها ٦٨ — آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

سورة ن « ١ — ٤ »

المفردات :

ن : رأي المحققين في هذا الحرف وأشباهه أنها اشارة الى اعجاز القرآن •

لكن ورد في خصوص الحرف « ن » ههنا روايات عن بعض الصحابة والتابعين اشتهر منها ما رواه ابن جرير الطبري [1] وغيره عن ابن عباس قال : « أول ما خلق الله القلم ، قال : اكتب • قال وما اكتب قال : اكتب القدر فجرى بما يكون من ذلك اليوم الى يوم قيام الساعة •

ثم خلق « النون » ورفع بخار الماء ، ففتقت منه السماء وبسطت الارض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادت الارض ، فأثبتت بالجبال ، فانها لتفخر على الأرض » •

(١) ج ٢٩ ص ٩ — ١٠ وانظر تفسير ابن كثير •

وفي رواية أخرى : ثم قرأ : « ن والقلم وما يسطرون » •

فقد فسر ابن عباس النون هنا بأنه « الحوت » • وأنه حوت عظيم حامل للأرض !! • وهو تفسير بعيد نشك في صحة نسبته الى هذا الحَبْرِ ، ونجد من الصعوبة اعتباره تفسيراً لهذا الحرف « ن » وذلك لأسباب تقدح في السند والمتن منها : ان الرواية عن ابن عباس لا يخلو شيء من اسنادها من الضعف القادح فيها كما أنها مضطربة ، فقد ورد عنه تفسير ن بالدواة [1] وأنه آخر حرف من حروف الرحمن [2] •

وهكذا اختلفت الرواية عن ابن عباس ، مما يجعل قبول تفسير « ن » بالحوت أو الدواة أمراً صعباً جداً • [يؤكد ذلك أنه لو كان اسما فلا بد له من الاعراب سواء كان اسم جنس أي يراد به جنس الدواة أو اسم علم أي يراد به دواة معينة ، فالسكون دليل على أنه من حروف المعجم] [3] •

والقلم : الواو للقسم ، والمراد بالقلم : كل قلم مما يكتب به من في السماء ومن في الارض •

وما يسطرون : وما يكتبون •

ما أنت : ما نافية بمعنى ليس ، وأنت اسمها •

بنعمة ربك : أي برحمة ربك وفضله عليك •

والباء للملابسة ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير في الخبر• والعامل فيها معنى النفي • والمعنى انتفى عنك الجنون في حال كونك متلبساً بنعمة ربك ، أي منعماً عليك بما أنعم من حصافة الرأي والنبوة والشهامة •

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٢٢٤ •

(٢) انظر تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٩٣ • وفي الفاظ روايته لتفسير النون بالحوت نكارة •

(٣) كما بين النسفي ج ٤ ص ١٩٣ بحاشية الخازن •

بمجنون : الباء حرف جر زائد لتأكيد النفي ومجنون خبر ما •

ممنون : مقطوع ، يقال : مَنَنْتُ الحبل اذا قطعته •

المعنى :

بهذا الحرف « ن » افتتحت السورة فأشار بهذا الحرف الى اعجاز القرآن ودلالة هذا الاعجاز على أن رسالة النبي ﷺ حق • ثم تلاه بهذا القسم « والقلم وما يسطرون » واطلاق الكلام في قوله القلم يتناول بظاهرة كل قلم ، مما يكتب به أهل الأرض فأقسم الله تعالى به لعظمة شأنه لما فيه من البيان ، كاللسان بل ان القلم قد يبلغ مالا يبلغه اللسان •

« وما يسطرون » :

أي ما يكتبه الكاتبون من أهل السموات والأرضين • وفسر بعض العلماء القلم بالقلم الذي كتب به اللوح المحفوظ ، وهو عالم عظيم لا يعلم حقيقته الا الله تعالى •

وفسر « وما يسطرون بما كتبه الحفظة من أعما بني آدم • وكل هذا داخل في الآية ، ويمكن أن نعتبر تفسيرهم هذا بياناً لبعض مدلولها وليس تخصيصاً للآية • لأنه لايصلح تخصيص الآية الا بدليل •

« وان لك لأجراً غير ممنون » :

أي بل لك يارسول الله الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك لرسالة ربك الى الخلق وصبرك على أذاهم •

« وانك لعلى خلق عظيم » :

يثني الله تعالى في هذه الآية الكريمة على نبيه ثناء عظيماً يصفه بغاية الفضائل

والكمالات في صفات الانسانية وآدابها وسجاياها وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » أخرجه مسلم [٢] وغيره .

وقال ابن عباس : المعنى « وانك لعلى خلق عظيم » يعني الاسلام . وكذا قال مجاهد وجماعة من التابعين [٣] .

وهذا الثناء هنا جاء في غاية المناسبة لأنه بعد أن نفى عنه ما قاله الآفكون ، أثبت له غاية الفضل والكمال ، وذلك يدل على أنه ﷺ كان على أعلى مراتب العقل ورجاحة الحكمة لان عظمة الخلق لايمكن أن تأتي الا من انسان في غاية قوة الارادة وغاية النبل حتى يستطيع أن يتحلى بمكارم الاخلاق .

البلاغة :

دلت الآية على فخامة ما أعد الله تعالى لنبيه ﷺ بأساليب متعددة اشتملت عليها الآية على وجازتها .

نذكر منها :

التأكيد بان ، واللام في قوله : « لأجراً » .

ومنها : التنكير في قوله : « أجراً » فانه هنا يفيد التعظيم ، أي ثواباً عظيماً لايُقادر قدره ولا تحد حدوده .

ومنها : وصفه بالدوام في قوله : « غير ممنون » فوصفت ثوابه بأن مع كونه عظيماً لايحاط به فانه دائم لاينقطع وذلك غاية ما يكون عليه الثواب الجزيل والاكرام .

وهذا يدل بالتضمن واللزوم على فخامة شأنه ﷺ وعظمته وهو ما جاءت الآية التالية تقرره وتؤكده بأبلغ البيان .

---

(١) الخازن ج ٤ ص ٢٩٤ .

(٢و٣) من الصفحة التالية .

استنباط الفوائد :

١ ـ ابطال ما افتراه الكافرون في حقه ﷺ في قولهم « مجنون » وقد أوردت الآيات هذا الابطال على أبلغ وجه وأكده ، حيث اقسمت عليه بأدوات العلم والكتابة « والقلم وما يسطرون » وهذا التعظيم يدل على حكمة النبي ﷺ .

وأشارت الى ما هو معروف من كماله ﷺ في قوله : « بنعمة ربك » .

٢ ـ أنه ﷺ كان في الذروة العليا من الفضائل النفسية والكمالات الخلقية لقوله : « وانك لعلى خلق عظيم » فقد بينت الآية أنه ﷺ في غاية الذروة العليا والفضائل من مكارم الأخلاق بوسائل تعبيرية بليغة كثيرة .

٣ ـ انه في غاية كمال القوة العلمية والقوة العملية ﷺ ، لأنه لا يكون على خلق عظيم الا اذا تحقق بكمال القوتين .

٤ ـ تعظيم العلم ، وذلك لما في الآيات من القسم بأدوات العلم ، والقسم يقتضي تعظيم المقسم به .

---

(١) مسلم في المسافرين « باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض » ج ٢ ص ١٦٨ ـ ١٧٠ وأبو داود في التطوع . وباب في صلاة الليل .

(٢و٣) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٢١٤ طبع الشعب والطبري ج ٢٩ ص ١٢ ـ ١٣ .

خذلان أعداء النبي صلى الله عليه وسلم

قال تعالى :

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ
حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ
﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾
سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

سورة ن « ٥ ــ ١٦ »

اللغة :

بأيكم : الباء في قوله « بأيكم » زائدة على ما اختاره كثير من المفسرين والمعنى فستبصر ويبصرون أيكم المفتون .

المفتون : المجنون الذي فتنه الشيطان .

تدهن : الادهان التليين ، ويستعمل فيما لاينبغي له التليين ٠

فيدهنون : هكذا باثبات النون وهو يدل على أن « يدهنون » ليس جواباً لقوله « ودوا لو تدهن » إنما هو كلام مستقل ٠ والمعنى : فهم يدهنون حينئذ ، أو فهم الآن يدهنون طمعاً في أن تدهن لهم ٠

حلاّف : على زنة فعّال ، صيغة مبالغة من حلف فهو حالف أي كثير الحلف ٠

همّاز : مبالة من الهمز أي كثير الطعن في الناس والقدح عليهم في غيابهم ٠

مشاءٍ بنميم : كثير المشي بالنميمة بين الناس وهي نقل الكلام على جهة الافساد من شخص لآخر ٠

عتلٌ : الجافي الغليظ في أخلاقه وأموره ٠

زينم : أصل هذه الكلمة من الزّنمة وهي جلدة زائدة تخرج من عنق الشاة وتتدلى منها فتكون بها منفردة عن مثيلاتها ٠

ويطلق الزنيم على الدعي ، أي الذي يلصق نسبه بالقوم وليس منهم ٠

والمراد بالزنيم هنا على الراجح المشتهر بالشر والفساد ، من اشتهار الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها ٠

أن كان ذا مال : قيل إنه متعلق بقوله :« لاتطع » أي لاتطع من كانت هذه مثالبه لأن كان ذا مال كثير وبنين يتقوى بهم ٠

وقوله : اذا تتلى عليه ٠٠٠ : الجملة من الشرط وجوابه مستأنفة لتبين سبب النهي عن طاعة هذا الكافر المذكور ٠ أي ننهاك عن طاعته لانه اذا تتلى عليه آياتنا كفر بها ٠

سنسمه على الخرطوم : السِّمَة العلامة ، وَسَمه جعل له علامة والميسم آلة تحمى بالنار ثم توضع على الجلد حتى يتعلم بها •

الخرطوم : من الانسان هو الانف •

والمعنى الظاهري للجملة سنضع له علامة على أنفه ، وهو مروي عن ابن عباس•

وقال ابن قتيبة : « تقول العرب للرجل يُسَب سُبَّةً قبيحة باقية : وسَمَهُ مِيْسَمَ سوء ، أي ألصق به عاراً لايفارقه ، كما أن السمة لايمحى أثرها » وهذا هو الراجح في رأينا لأنه أليق بمقاصد السياق (١) •

البلاغة :

الخرطوم في الاصل للفيل ، وماله أنف طويل ، والمراد به هنا الأنف • فحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية ، والمراد : الاهانة والاذلال • واطلق « سنسمه » والمراد نلحق به عاراً لايمحى ، وتفصح به فضيحة لايزول اثرها •

المعنى والأسلوب :

بعد أن أبطلت الآيات السابقة ما أفتراه الأعداء على النبي ﷺ وجهت الخطاب الى النبي ﷺ « فستبصر » أي فستعلم يا محمد وسوف يعلم أعداؤك من هو المفتون الذي فتنه الشيطان عن الهداية والحق وعن استواء التفكير والعقل • وهذا رد على عدو الداعية الى الحق مليء بالثقة والقوة في الحكم عليه بأنه هو الضال الذي فتنه الشيطان حتى طاش عقله وفقد رشده ، وقد أكدت الآيات ذلك في هذه الآية : « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » هكذا بهذا التأكيد في إثبات علمه عز وجل •

---

(١) ج ٩ ص ١٤١ من روح المعاني وفيه نقد التفسير الظاهري •

وكأن تقديم الوعيد ليتصل بما أشعر به أولاً • والتعبير في جانب الضلال بالفعل للايحاء بأنه خلاف ما تقتضيه الفطرة وزيادة « هو أعلم » لزيادة التقرير مع الايذان باختلاف الجزاء [1] •

« ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم ••• » •

قال الامام الرازي [2] : واعلم أنه تعالى لما نهاه عن طاعة المكذبين وهذا يتناول النهي عن طاعة جميع الكفار ، إلا أنه أعاد النهي عن طاعة من كان من الكفار موصوفاً بصفات مذمومة وراء الكفر وتلك الصفات هي •••• الخ ••

« ولا تطع كل حلاف مهين » :

أي كثير الحلف ، مهين كاذب لان الكاذب يكون ضعيفاً جباناً فيهان عند الناس ويستذل ، فيتقي بالأيمان كثيراً بها حتى يوثق به ويقبل قوله •

« هماز » : أي كثير الاغتياب للناس والطعن عليهم في غيابهم وذلك لحقده واحتقاره على الآخرين •

« مشاءٍ بنميم » : كثير السعي بالنميمة ينقل الكلام من هذا الى ذاك للافساد بين الناس فهو عدو لهم ، فاسد ، مفسد لأمورهم •

« مناع للخير معتد » : على الناس بالظلم وأكل أموالهم ، وانتهاك ما لا يحل منهم •

« أثيم » : في نفسه ، كثير الآثام والذنوب •

---

(١) الآلوسي ج ٩ ص ١٣٩ •

(٢) مفاتيح الغيب ج ٣٠ ص ٨٣ •

« عتل » : جافي الطبع غليظ في أموره . قال الكلبي : « الشديد الخصومة في الباطل » وقيل الشديد في الكفر وقيل : « الذي يعتل الناس » أي يجرهم الى حبس أو عذاب . [وقال علي بن أبي طالب والحسن البصري : « العتل الفاحش السيء الخلق » وقال معمر : « هو الفاحش اللئيم » . وكل هذه المعاني داخل في مدلول العتل ، موضح لمعناه العام في اللغة في الغلظة والجفاء وبذلك] وورد الحديث المرفوع عنه ﷺ أنه سئل عن العتل الزنيم فقال : هو الشديد الخلق المُصحّ ، الأكول الشروب ، الواجد للطعام والشراب ، الظلوم للناس ، رحيب الجوف [1] .

« زنيم » : مريب ، يعرف بالفساد واللؤم والشر ، اشتهر بذلك حتى تميز به كما تتميز الشاة عن غيرها من الشياه بالزنمة أي زائدة الجلدة العالقة بها ...

« سنسمه على الخرطوم » أي سنبين أمر هذا ومن على شاكلته بياناً واضحاً حتى يُعرَف ويلصق به عاره إلصاقاً واضحاً لايفارقه ، كالسمة أي العلامة بالميسم على الخرطوم أي الأنف .

استنباط :

١ ـ تدل الآيات على خطة خطيرة حاول أعداء الاسلام بواسطتها صرف الدعوة وتحويلها عن طريقها وذلك بالدعوة الى مسايرتهم في بعض ماهم عليه مما يخالف الاسلام الحنيف ، وهي خطة يسلكها أعداء الاسلام في كل زمان وقد نجا المسلمون في أول عهدهم باجتنابها والحذر منها وهلكوا في عصرهم هذا باتباعها والانخداع بها .

---

(١) أخرجه أحمد بسنده عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم قال : « سئل رسول الله ﷺ عن العتل الزنيم .. » وهو مرسل ، وشهر تكلم فيه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ما يشهد له وهي مرسلة أيضاً .

٢ ــ تحريم ملاينة الكفار ، فيما لايجوز شرعاً ، لقوله : « فلا تطع المكذبين ... » والنهي يقتضي التحريم .

٣ ــ ان سبب تكذيب المكذبين هو مجافاة خلائقهم المنحرفة لما جاء به النبي ﷺ لذلك رسمت السورة معالم شخصية النبي ﷺ وفضحت مساوىء أعدائه وليحذر الناس من هذه الخصال لأنها تؤدي الى الضلال .

٤ ــ التحذير من مفاسد الأخلاق ومساوئها ، لأنها دافع عظيم الى الضلال والكفر ، كما بينت الآيات .

* * *

تهديد قريش بمثل أصحاب الجنة

قال تعالى :

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟
لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ
ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾
أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ
رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

سورة ن « ١٧ ــ ٣٣ »

المفردات :

« يصرمنها مصبحين » : أي يقطعون ثمارها في الصباح الباكر • ومصبحين حال من فاعل يصرمنها •

« ولا يستثنون » : أي لايتركون شيأ للفقراء •

« طاف عليها طائف » : أي نزل بها البلاء •

كالصريم : أي كالحقل المقطوع ثماره •

حرد : أي قصد وتصميم •

أوسطهم : أعقلهم •

المعنى :

بعد أن بينت السورة فيما سبق سقوط القيم عند أعداء النبي ﷺ ضربت لهم مثلاً يوضح أن ما اغتروا به من المال والقوة والنعم التي أنعم الله بها عليهم ، انما هو ابتلاء أي اختبار لهم ليشكروا لا ليبطروا ، فاذا لم يتوبوا الى الله من كفرهم وبطرهم أزال عنهم النعمة وعاقبهم •

« إِنَّا بَلَوْنَاهُم كما بَلَوْنَا أصحابَ الجَنَّة » :

هذا المثل الذي ضربه الله تعالى لهم هو قصة قصيرة واقعة حدثت لاصحاب جنة ، أي بستان فيه أنواع الثمار والفواكه والزرع •

وقد ذكر غير واحد من السلف أنهم كانوا من أهل اليمن حيث كانت لقريش رحلة سنوية من أجل التجارة ، وكانت الجنة على مقربة من صنعاء ، وكان والد أصحاب الجنة يسير فيها سيرة حسنة ويتصدق على الفقراء والمساكين ، فلما مات وورثه بنوه قالوا قولة المغرور : « لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه الجنة للفقراء » وتعاهدوا فيما بينهم عهداً أيدوه بالحلف :

« أقسموا ليصرمنها مصبحين » :

أي يقطعون ثمارها حين دخولهم في وقت الصباح .

« ولا يستثنون » : لايتروكن شيئاً منها للفقراء .

وقال كثير من المفسرين : لم يقولوا : إن شاء الله ؟! . وهو غير ظاهر ، لانه لم يقل « ولم يستثنوا » ، لأن العذاب نزل لظلمهم ، لابسبب ترك هذا القول .

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون » :

قد اطمأنوا على خطتهم ، فنزل البلاء على الحديقة في هذه الحال .

« فأصبحت كالصريم » أي كالحقل المقطوع ، أو كالليل سوداء لاحتراقها .

« فتنادوا مصبحين » أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين » ...

ويتنافسون في تنفيذه وإنما كان تدميرهم في تدبيرهم ، تصور هذه الآيات هؤلاء المانعين للخير كيف يتقلبون فرحاً بتدبيرهم ، وقد ذهب به من أيديهم كل شيء جزاء كفرانهم ومنعهم حق المساكين وتأتي الصورة تدعو للسخرية حيث تعرضهم في جدهم بهذا الأمر يراهم الناظر وقد علم من حال جنتهم مالم يعلموا هم فيها هم ينادي بعضهم لبعض منذ انبلاج الصبح على السير الباكر بأسلوب محرض قوي « ان كنتم صارمين » أي تريدون قطع الثمار وحيازتها كما يقول الرجل لصاحبه وعلم عزمه على بيع شيء « ان كنت بياعاً فانزل الى السوق !! » ....

« فلمّا رأَوْها قالوا إنّا لَضالّون » :

أدخلت المفاجأة في روعهم أنهم ضلوا الطريق لكن تبين لهم أنهم لم يضيعوا طريقهم الى بستانهم [فهذه أرض جارهم فلان وهذه حديقة فلان فعرفوا الحقيقة وأقروا بها] فقالوا « بل نحن محرومون » .

عندئذ تكلم صاحب العقل والحكمة فيهم يذكرهم في الوقت المناسب .

« قال أوسطهم ألم أقل لكم لا تسبحون » :

فذكرهم أوسطهم أي أعقلهم وأعدلهم رأياً بتأكيد « ألم أقل » أي قد قلت « لكم » مذكراً « لولا تسبحون » أي هلا تسبحون الله ، أي تذكرونه وتعظمونه وتتوبون اليه من خبث نيتكم .

« قالوا سُبْحانَ رَبِّنا إنا كنا ظالمين » :

فاعترفوا وأقروا بفعلتهم لكن بعد أن كان ما كان وفات الأوان .

وكما يحدث عند فشل أي جماعة في مؤامرة شر من توجيه اللوم لبعضهم البعض حدث هنا أيضاً :

« فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين » :

ثم تداركوا موقفهم بالانابة الى الله ورجاء ما عنده .

« عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا الى ربنا راغبون » :

وهذه العبارة منهم ابتهال فيها دلائل الانابة في التعبير بـ « عسى » التي تدل على الترجي ثم كلمة ربنا باطلاق « رب » مضافاً الى ضمير أنفسهم وقولهم : « انا الى ربنا راغبون » أي نوصل توبتنا ورغبتنا اليه لا الى غيره وهذا يقوي القول بأن الله عوضهم عنها فانه يجيب الدعاء .

« كذلك العذابُ ولَعذابُ الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » :

أي مثل هذا العذاب نعذب في الدنيا من كفر بنا وجحد نعمتنا « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » فختمت القصة بالتحذير الذي هو المقصود من سياقها .

البلاغة :

١ ـ التشبيه لحال أهل مكة في الاختبار بأصحاب الجنة « إنا بلوناهم كما بلونا ... » . كذلك الشبيه « فأصبحت الصريم » .

٢ ـ قوله « فطاف عليها طائف » : شبه البلاء الذي أصاب الجنة وشمل بالتلف جميع ما فيها بكائن حي يطوف ويتجول ، وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية [1] .

٣ ـ « انا الى ربنا راغبون » اظهار « ربنا » لزيادة الضراعة ، وتقديمه لافادة الحصر . أي الى ربنا لا الى غيره راغبون .

الاستنباط :

١ ـ ان النعم في الدنيا انما هي اختبار للانسان ، فاذا لم يراع حقوقها حل عليه العقاب . فلما منع أصحاب الجنة ماوجب عليهم للمساكين عوقبوا .

٢ ـ ان الانسان يؤاخذ على العزم المستقر في قلبه ،وجه الدلالة أن هؤلاء لما استقر عزمهم على حرمان المساكين حقهم عاقبهم الله تعالى .

٣ ـ فضل التوبة والانابة الى الله تعالى والحض عليها مهما عظم الذنب .

---

(١) حاشية الانتصاف للسكندري على الكشاف ج ٤ ص ٤٧٢ .

عدالة الله و افلاس جاحد القيامة

قال تعالى :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ
﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ
عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم
بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾
خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ
﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم
مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾

سورة ن « ٣٤ ــ ٤٧ »

المفردات واللغة :

أم لكم كتاب : أم في الموضع وما بعده منقطعة • والمعنى بل ألكم كتاب فيه تدرسون ولاستفهام إنكاري [1] •

ان لكم فيه لما تخيرون : أصله « أن لكم » بفتح الهمزة « أن » لأن الجملة معمولة في محل نصب مفعول به لتدرسون • لكن كسرت الهمزة « إن » لدخول اللام في قوله « لما تخيرون » فمنعت اللام من فتح همزتها •

تخيرون : تختارون وتشتهون •

ان لكم لما تحكمون : الجملة جواب القسم الضمني في « لكم أيمان » أي أقسمنا لكم أن لكم ما تحكمون • ومثل هذا الموضع تنصب فيه همزة « أن » لكن كسرت لدخول اللام كما سبق •

زعيم : كفيل وضامن • قاله ابن عباس وقتادة •

المعنى :

بعد أن بين الله تعالى في الآية السابقة مصير الكافرين من عذاب الدنيا والآخرة بين ثواب المؤمنين فقال :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » •

وأضاف الرب اليهم فقال : « عند ربهم » وهي تدل على صلة القرب والمحبة بينه وبينهم حيث نسبهم الى ذاته المقدسة •

وكان المشركون يغترون بما آتاهم الله من مال وأولاد وقوة فاذا سمعوا بحديث الآخرة قالوا : إذا صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا

(١) انظر ما سبق في تقسيم « أم » ومعناها •

وحالهم الامثل ما هي في الدنيا ، والا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا . فأكذب الله تعالى زعمهم بأسلوب قوي جداً ووبخهم بهذا الاستفهام الانكاري وبما يليه :

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين » :

أي أنحيف ونجور فنجعل المسلمين كالمجرمين ، أي : ذلك لايمكن أبداً في قضية العدل وبداهة العقل . وعبر عن الكافرين بالمجرمين لبيان ما في حقيقة الكفر من الأثم العظيم ، وما يستتبعه من الخطايا والجرائم فإن من تخلّى عن الفرض الأعظم عليه بالايمان بالله وتوحيده فقد تخلى عن كل القيم الصحيحة .

« أم لكم كتاب فيه تدرسون » :

أي بل ألكم كتاب من عند الله تعالى تدرسون فيه ان لكم ما تتخيرونه أي تنتقونه وتشتهونه ؟! وهذا تحد لهم بافلاسهم وسخرية بهم بهذا المرجع والمزعوم الذي ينزله الله تعالى ليدلل شهوات المارقين ونزواتهم !! .

« أم لكم أيمان علينا بالغة الى يوم القيامة » :

هذا انتقال بأم التي بمعنى بل مع الاستفهام يسألهم سؤالاً آخر : بل ألكم عهود موثقة بالأيمان ثابتة الى يوم القيامة بالغة النهاية في التوكيد تضمن أن لكم ما تحكمونه من هذا الحكم ؟! .

« سلهم » أي سؤال تبكيت وتوبيخ : « أيهم بذلك زعيم » يتكفل بذلك الزعم ويتصدى لاثباته وصحته .

« أم لهم شركاء » أي مشاركون يوافقونهم في زعمهم أن لهم الجنة والنجاة كالمسلمين « فليأتوا بشركائهم » يشهدون لهم حين تمس الحاجة أشد ما تمس الى شهادتهم وتأييدهم يوم القيامة حين تشتد الخطوب الى أقصى غاية في الشدة والهول

« يوم يكشف عن ساقٍ » : وهو مثل ضربه العَرَب لغاية ما تكون عليه الخطوب وشدة الأمر وكثرة في الشعر العربي استعماله . قال ابن عباس : « يوم يكشف عن ساق » قال : هو يوم القيامة يوم كرب وشدة .

وقال مجاهد : « يوم يكشف عن ساق » قال : « شدة الأمر وجده » وهكذا روي نحوه عن غير واحد من السلف .

هناك في هذا الهول « يدعون الى السجود » وما التكليف به وقد مضى وقته الا التوبيخ لهم على تركهم السجود لله تعالى في الدنيا ، وهم الآن وقد تملكهم الذل وبدا على سيماهم فهم « خاشعة أبصارهم » تغطيهم الذلة يودون الآن السجود بعد أن فات الوقت ، كما في الحديث : « فيذهب أحدهم ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » .

« فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون » :

أي أنهم ينعمون بمتاع الدنيا ويغيظون بها المؤمنين ولكنه ليس نعيماً في الحقيقة انما هو استدراج لهم الى شديد العذاب يأخذهم على غفلة وهم لايشعرون أنه استدراج لهم واملاء ، أي امهال .

قال الحسن البصري : « كم مستدرج بالاحسان اليه وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور ابلستر عليه !!! » .

« فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » :

تعبير عن وعيد وتهديد عظيم لهم ، أي أوكل أمره اليّ واتركني وإياه ، ولا يهمنك أمره مهما وجدت عنده من الدنيا ، فإني عالم بما يستحقه من العذاب قادر عليه .

« أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » :

أي أنك لا تسألهم أجراً على هذه الهداية التي تكفل لهم خير الدنيا والآخرة ليثقلهم أي يصرفهم عن الاسلام •

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون » :

هذا آخر استفهام انكاري انتقل اليه الكلام بأم التي بمعنى بل التي للانتقال ، والاستفهام الذي للنفي ، أي ليس عندهم علم الغيب •

وعن ابن عباس ان الغيب : اللوح المحفوظ ، وهو لايخالف تفسيرنا •

البلاغة :

المسلمين ـــ المجرمين طباق •

ما لكم كيف تحكمون ، أم لكم •••• الاستفهامات في هذه الجمل للتوبيخ• وقد أحاطت السورة بكل ما يتذرع به المخالفون • فجاء فيها حسن التقسيم •

أفنجعل المسلمين كالمجرمين : تشبيه مقلوب ، والأصل « أفنجعل المجرمين كالمسلمين ، لان المشركين زعموا أنهم سيكونون كالمسلمين لما عندهم من المال ، والتعبير القرآني أقوى في الرد عليهم •

يكشف عن ساق : كناية عن شدة الهول كما عرفت •

وقد ظن بعضهم ان المراد حقيقة الساق مضافا الى الله ، وربما استشهد بعضهم بحديث الصحيحين عن أبي سعيد الخدري سمعت النبي ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد ، فيعود وظهره طبقا واحداً » •

وهذا استدلال وهمي في فهم الحديث ، وفي تطبيق الآية عليه وذلك لأنه ، كما قال القرطبي [1] ـ « يتعالى الله عز وجل عن الأعضاء والتبعيض وان يكشف ويتغطى ، ومعناه ان يكشف عن العظيم من أمره » .

ويؤيد شرح القرطبي مافي شواهد الشعر من قولهم في الحرب : كشفت عن ساقها . أي شدتها .

الاستنباط :

١ ـ تحتم الثواب والعقاب في الآخرة ، ضرورة بداهة العقل والعدل .

٢ ـ وجوب بناء العقيدة ومصير الانسان على البرهان والدليل ، والا ضاع وضل . كما ضل المشركون بالأوهام والتقليد لآبائهم ، وتوهم ان أموالهم وأولادهم وقوتهم تنجيهم في الآخرة .

٣ ـ بطلان كل ما يتذرع به الكفرة لتسويغ ضلالهم .

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٨ ص ٢٤٩ .

مواساة النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته

قال تعالى :

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

سورة ن « ٤٨ ــ ٥٢ »

المفردات :

صاحب الحوت : هو يونس عليه السلام .

مكظوم : مملوء غماً ، وقيل غضباً .

اجتباه : اختاره .

يزلقونك : يسقطونك .

المعنى :

« فأصبر كحلم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم » :

فأصبر يامحمد على أذى قومك لك منتظرا لقضاء ربك بالنصر عليهم فانه سيحكم لك عليهم ويجعل العاقبة لك ولأتباعك .

« ولا تكن » عجولا « كصاحب الحوت » وهو يونس عليه السلام حين ذهب مغاضباً لقومه وركب البحر ، ثم ألقى فيه فالتقمه الحوت وشرد به في البحر « فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين » نادى هذا النداء الضارع « وهو مكظوم » أي مملوء غماً وكرباً لهذا الضيق الذي لحق به .

وقال أبو السعود « مملوء غضباً » ....

لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، بسبب تعجله « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » .

هذه عاقبة اللجوء الى جناب الحق عز وجل تغير به حال يونس عليه السلام من أن ينبذه الحوت بالعراء وهو مذموم الى أن يترقى « فأجتباه ربه » اختاره لمنازل أعلى وأقرب عنده « فجعله من الصالحين » أي الكاملين في الصلاح لذلك أشاد النبي ﷺ بفضل يونس عليه السلام ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « يعني الله عز وجل لاينبغي لعبد لي أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » (١) .

وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون » .

---

(١) اللفظ لمسلم ج ٧ ص ١٠٢ .

يبين القرآن في هذه الآية أن عداء الكفار للنبي ﷺ بالغ غاية المدى حتى انهم لما سمعوا الذكر أي وقت سماعهم القرآن • ينظرون الى النبي ﷺ نظرات الحقد يتطاير منها الشر حتى يكادوا يزلقونك بنظراتهم فتسقط صريعاً على الأرض لو أمكنهم ذلك وهذا غاية ما يبلغه العداء وحب الانتقام الحاقد ، لكن الله تعالى لايمكنهم من شيء مما أرادوه •

واختار القرطبي وابن كثير وبعض المفسرين ان المقصود بالآية « يزلقونك بأبصارهم » يصيبونك بالعين ، قال ابن كثير : وفي هذه الآية دليل على أن العين أصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل •

وهو تفسير لايخالف ما سبق في تفسيرنا من افادة شدة عداوتهم وارادتهم اهلاك النبي ﷺ ، لكن فيه زيادة الاصابة بالعين • وهو مايحتاج الى دليل على كونه مراداً بالآية ، وان كان قد ثبت بالسنة الصحيحة •

ويقولون أي الكافرون « انه لمجنون » لغاية جهلهم •

« وما هو الا ذكر للعالمين » :

لما كان قولهم الذي قالوه في حق النبي ﷺ بسبب سماعهم للقرآن رد الله عليهم قولهم ذلك بهذه الجملة التي تبين علو منزلة القرآن ومنزلة النبي عليه الصلاة والسلام وجاءت العبارة بأسلوب يفيد غاية بطلان قولهم ، حيث وقعت هذه الآية حالاً من فاعل يقولون ، أي يقولون ذلك والحال أنه ذكر للعالمين أي تذكير لهم ، وبيان لما يحتاجون اليه مما يصلح دينهم ودنياهم •

وقيل : معناه شرف وفضل لقوله تعالى : « وانه لذكر لك ولقومك » وعموم العالمين لما فيه من الاعتناء بما ينفعه (١) •

---

(١) الألوسي ج ٩ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ •

الاستنباط :

١ ـ التحذير من الاغترار بالنعمة مع ركـوب المعاصي ، فانـه استدارج وخطر عظيم .

٢ ـ التحذير من الانخداع بالآمال والاماني دون مستند من العمل بالشرع، وكل من أوهم الناس ذلك ، أو أنهم بمجرد متابعته ، أو الانتساب اليه فهو كافل لهم وموصل الى الله ، فهو تخرص على الله كذبا ، ما لم يسلك بهم طريق العلـم والعمل بالشريعة .

٣ ـ عظمة شأن القرآن ، وانه دعوة عامة خالدة للعالمين الى يوم الدين .

٤ ـ عظمة مقام النبي ﷺ ورفعة شأنه ، لأن الله تعالى اختاره لهذه الرسالة ولتلقي الوحي بالقرآن المعجز والمذكر للعالمين .

تم تفسير سورة القلم

ولله الحمد

★ ★ ★

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا (٢) نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا
(٣) أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا
ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي
ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا (٧) وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا (٨)
رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا (٩) وَٱصۡبِرۡ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا (١٠) وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ
أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا (١٢)
وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا (١٣) يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ
وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا (١٤) إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا
عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا (١٥) فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ
فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا (١٦) فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ
ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا (١٧) ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا (١٨)
إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (١٩)

۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ
مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ
عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ
وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ
يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ
ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ
عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾

* * *

تفسير سورة المزمل

تعريف بالسورة وسبب نزولها :

سورة المزمل مكية كلها على ما قاله الحسن البصري وعكرمة وعطاء وجابر (١) وعدد آياتها تسع عشرة آية .

وسورة المزمل من أول ما نزل من القرآن ، ولعلها ثالث سور القرآن نزولاً .

قال الآلوسي (٢) : « والجمهور على أنه ﷺ لما جاءه الملك في غار حراء وحاوره بما حاوره رجع الى خديجة رضي الله عنها ، فقال : زملوني ... زملوني » فنزلت « يا أيها المدثر » وعلى أثرها نزلت « يا أيها المزمل » . انتهى .

فسورة المزمل من أول ما نزل من القرآن .

مناسبة السورة لما قبلها :

ترتبط سورة المزمل بسورة الجن من عدة أوجه منها :

١ ـ المناسبة العامة :

ان سورة الجن تحدثت عن الوحي الى النبي ﷺ بإيمان الجن به وإعلانه مفصلاً ، وهذا من شأنه أن يثبت قلب النبي ﷺ ، فجاءت سورة المزمل لهذا

---

(١) انظر الدر المنثور ولباب النقول .

(٢) في تفسيره روح المعاني ج ٩ ص ٢٠٠ .

المقصد ، لما ذكر فيها من الأمر بالعبادة والصبر وغير ذلك مما يثبت قلب النبي ﷺ والمؤمنين ، هذه مناسبة عامة .

٢ ـ المناسبة الخاصة :

قال الآلوسي في ذلك : « ولما ختم سبحانه سورة الجن بذكر الرسل عليهم السلام افتتح عز وجل هذه السورة « المزمل » بما يتعلق بخاتمهم عليه أفضل الصلاة والسلام . [وهو وجه المناسبة] .

* * *

حض النبي صلى الله عليه وسلم على قيام الليل وتثبيته

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا
(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا
ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِى
ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨)
رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)

سورة المزمل « ١ ــ ٩ »

المفردات :

المزمل : بتشديد الزاي والميم ، أصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي وقلبت فصارت حرفاً واحداً مشدداً ، ومعنى المزمل هو الذي تزمل في ثيابه : أي تلفف بها •

رتـل : رتلت الكلام ترتيلاً : إذا تمهلت فيه وأحسنت تأليفه •

ناشئة الليل : الإنشاء لغة : هو الإحداث ، وقد اختار ابن كثير تفسيرها بقيام الليل ، وهو المتبادر من السياق •

وطئاً : مصدر واطأ . مواطأة أي موافقة وملاءمة [1] ؛ والمعنى : أشد فوافقه بين قلب القائم ولسانه [2] .

سبحاً : أصل السبح الجري السريع في الماء ، والمراد هنا : تقلباً وتصرفاً في مهماتك .

تبتل : أصل التبتل في اللغة « القطع » ، والمراد هنا الإخلاص لله تعالى .

وكيلاً : مفوضاً كل أمورك اليه ، وقيل : كفيلاً بما وعدك من النصر .

الاعراب :

قم الليل الا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه :

الراجح في إعراب هذه الآية [3] : أن قوله « نصفه » بدل من الليل الباقي بعد الاستثناء أي بدل من مجموع قوله « الليل الا قليلاً » و « أو » للعطف ، والمقصود التخيير بين ثلاثة أحوال : قيام نصف الليل ، أو أقل من نصف الليل قليلاً كالثلث ، أو الزيادة على النصف . فأي حال تيسر للمصلي من الليل أجزأه .

وطئاً : منصوب على التمييز وكذا « قيلاً » .

تبتيلاً : مفعول مطلق مؤكد لقوله « تبتل » .

المعنى والأسلوب :

افتتحت السورة بتوجيه الخطاب الى النبي ﷺ « يا أيها المزمل قم الليل الا

(١) الفخر الرازي ج ٣٠ ص ١٧٦ .

(٢) الكشاف : ج ٤ ص ٥١١ .

(٣) على ما اختاره المحقق أبو السعود في تفسيره ج ٥ ص ٢٠٤ ، وانظر احتمالات كثيرة لأوجه الاعراب في تفسير الآلوسي والبحر المحيط لأبي حيان وغيرهما .

قليلا » بهذا النداء المؤكد باستعمال « أي » ثم إبدالها بالمزمل وإدخال هاء التنبيه وذلك قصداً للتنبيه البليغ والإيقاظ المؤكد غاية التأكيد ليقبل بكليته [وبقلبه وقالبه على ما يلقى إليه ، لذلك كثر استعمال هذا الأسلوب للنداء في القرآن الكريم] .

قال الرازي (١) : « وأجمعوا على أن المراد بالمزمل النبي ﷺ » . وإنما وجه الخطاب الى النبي ﷺ بهذا الوصف تلطفاً وتأنياً لاثارة نشاطه ﷺ .

ثم بينت الآيات مانبه اليه النبي ﷺ [في هذا النداء] في قوله تعالى « قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زِدْ عليه » فخيره بين قيام نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه .

وقد أساء بعض المفسرين وهو الزمخشري فهم هذا النداء بصفة المزمل وأورد شوارد أفكاره على غير روية وتأمل ، فقال (٢) : « وكان رسول الله ﷺ نائماً بالليل متزملاً في قطيفة ، فنبه ونودي بما يهجن إليه الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته واستعداده للاستثقال في النوم كما يفعل من لايهمه أمر ولا يعنيه شأن .. » .

ويدل على بطلان فهمه هذا أمور نذكر منها :

١ ـ ان هذا الأسلوب في وصف المخاطب ليس نصاً ولا ظاهراً في إفادة ما زعمه الزمخشري فصيرورته اليه تحكم في النص .

٢ ـ ان الذم أو التهجين انما يتأتى لمن توجه اليه الأمر ولم يعطه الاعتناء

---

(١) ج ٣٠ ص ١٧١ .

(٢) في تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٠٧ ـ ٥٠٩ .

اللازم أو الاجتهاد اللازم ، وهو غير وارد هنا لأنه لم يسبق هـذا النـداء تكليف بقيام الليل ، فعلام التهجين •

ثم قال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلاً » :

فأمر الله النبي ﷺ بما يحقق غاية عظيمة من غايات الصلاة وهي الخشـوع واستلهام النفحات الإلهية بأن يرتل القرآن أي يقرأه على تمهـل وتنسيق ليكـون الكلام مبيناً مفصلاً •

« إنّا سَنُلْقِي عليكَ قولاً ثقيلاً ، إن ناشئة الليلِ هي أشدُّ وطئاً وأقومُ قيلاً ، إنّ لك في النهار سَبْحاً طويلاً » •

فذكر أولاً : إنزال القرآن الى النبي ﷺ ووصفه بغاية العظمة والرجاحة في قوله « قولاً ثقيلاً » وهذا كما قال ابن عباس :

قولاً ثقيلاً بمعنى كلاماً ، فهذا أرجح التفاسير الواردة في الآية ، والله تعالى أعلم لأنه يحقق وصف القرآن نفسه بأنه ثقيل : أي عظيم راجح •

وهـذا تقريـر للأمـر بصـلاة الليـل ، أي لأنـا سـنلقـي عليك قولاً عظيماً ، فلابد وأن تسعى في صيرورة نفسـك مستعدة لذلك القـول العظيم ، ولا يحصل ذلك ذلك الاستعداد الا بصلاة الليل (1) « ان ناشِئَةَ الليل هي أشدُّ وطْئاً وأقوم قيلا » :

هذا بيان لسبب آخر من دواعي قيام الليل ، وذلك أن العبادة بالليل وأفضلها الصلاة أشد مواطأة أي موافقة بين القلب واللسان بالحضور والخشوع ، وأجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ، لأنه وقت عمل الناس ولغط الأصوات واشتغال الأفكار بأمور الدنيا •

(1) الفخر الرازي ج ٣٠ ص ١٧٤ باختصار •

وأقوم قيلاً : أي أسد مقالاً وأصوب وأثبت . وبهذا يكون قيام الليل أقرب توصيلاً للفلاح والفوز بالقربي . قال تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هـم في صلاتهم خاشعون » .

« إن لك في النهار سَبْحاً طويلاً » .

أي إن في النهار مجالاً طويلاً لتصرف الإنسان في مهماته وشؤونه (٢) :

« واذكُرِ اسمَ ربِّكَ وتبتلْ إليه تَبْتيلاً » :

وهذا أمر بدوام الذكر ، وكان النبي ﷺ يذكر الله ، فأمره الله بالذكر اعتناء به وبياناً لشرفه وطلباً لاستدامته : أي دم على ذكر ربك في ليلك ونهارك ؛ واحرص عليه . وهذا يدل على مزيد شرف الذكر ، ويبطل من يظن أنه شأن العامة والبسطاء لذلك أكده بقوله « تبتيلاً » :

« وتبتل إليه تبتيلا » أي انقطع إليه عما سواه بقلبك وخشيتك ومراقبتك وهذا كما قال سيدنا عبد الله بن عباس ترجمان القرآن « وتبتل إليه تبتيلاً » أي أخلص له العبادة (١) .

« رب المشرق والمغرب لا إله الا هو فاتخذه وكيلاً » :

فبين هنا أنه رب الجهات،وهو رب العالمين سبحانه،فهو متولي العوالم بالتربية والإمداد يمدها حالاً فحالاً ، فإذاً ليس هناك من يتولاك أيها الإنسان غيره ، وليس هناك من يحق له العبادة والخضوع إلا الله سبحانه .

« فاتخذه وكيلاً » :

لأنك بعد أن علمت أنه ملك المشرق والمغرب ورب العالمين المتوحد بالربوبية

---

(١) انظر النسفي ج ٤ ص ٣٠٤ ونحوه في مصادر التفسير .

(٢) انظر تفسير ابن كثير .

وأنه الفرد في ألوهيته سبحانه ، فاتخذه كافياً لأمورك [1] ، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل عليه : « فاتخذه وكيلاً » [2] .

الاستنباط :

١ ــ تكريم الله تعالى للنبي ﷺ لما عرفت من سر هذا النداء « يا أيها المزمل» انظر ماسبق ص (١٣٢) .

٢ ــ فضل قيام الليل والعبادة فيه والحض على ذلك ، وقد دلت الآيات على ذلك من عدة جهات كما عرفت من تفسيرها . وظاهر الآية وجوب قيام الليل على النبي ﷺ لصريح الأمر ، ولما أن خطابه خطاب لأمته فيكون واجبا عليهم ، ثم خفف عن الأمة نصار تطوعاً [3] .

٣ ــ وجوب ترتيل القرآن لقوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلاً » وحده الأدنى مراعاة أدائه في حروفه ومداته وغناته من غير إخلال بنطق الحروف والكلمات مع مراعاة أحكام التجويد وكماله بتحسين الأداء والتغني به في حدود أحكام التجويد ، فإنها فرض كما ذكرنا .

٤ ــ الحض على الذكر بكل نوع من أنواعه وصيغه والأمر بالدوام عليه ليلاً ونهاراً وذلك يتناول أنواع الذكر والصلاة والقرآن ودراسة العلم وقد بينت الشريعة ما هو واجب منه كما في الصلاة وغيرها ، وما عداه مسنون أو مستحب . وفي الآية مايدل على مزيد شرف الذكر .

٥ ــ وجوب التوكل على الله والاستمداد منه والتفويض اليه .

---

(١) فسر بمعنى آخر هو : « اتخذه ولياً وكفيلاً بما وعدك من النصر » وهذا يدخل تحت المعنى الذي ذكرناه وانظر الكشاف والنسفي .

(٢) انظر ابن كثير .

(٣) يؤيد ذلك قوله لهم لما اجتمعوا يصلون بصلاته من الليل ، فتركها « خشيت أن تفرض عليكم ... » .

الحض على الصبر والوعد بالفرج

قال تعالى :

وَٱصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ
أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ
وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ
فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾
إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

سورة المزمل « ١٠ ـــ ١٩ »

اللغة :

هجراً جميلاً : الهجر الجميل أن يجانبهم ولا يقابلهم على إساءتهم بمثلها •
وهجراً : مفعول مطلق مؤكد ، وجميلاً : صفة •

ذرني والمكذبين : أي أوكل أمرهم لي •

النعمة : بفتح النون التنعم والترفه ، وبكسرها الانعام وباضم المسرة والقراءة بفتح النون •

أنكالاً : نكل وهو القيد ، وقال الزمخشري : النكل القيد الثقيل •

كثيباً : القطعة العظيمة من الرمل ، تجتمع محدودبة وجمعه كثبان •

مهيلاً : سائلاً قد أسيل ، يقال : مهيل ومهيول أي مصبوب ومسيل •

يوم ترجف : الرجفة : الزلزلة والزعزعة الشديدة ، ويوم منصوب على الظرفية متعلق بمقدار دل عليه الكلام ، أي : ينكل بهم ويعذبون يوم ترجف الأرض •

أرسلنا إليكم رسولاً : هو سيدنا محمد ﷺ •

كما أرسلنا الى فرعون رسولاً هو موسى عليه السلام ، (الكاف في محل النصب على أنها صفة لمصد رمحذوف على تقدير اسميتها « أي بمعنى مثل » أي بمعنى » أي إرسالاً مثل إرسالنا) •

وبيلاً : ثقيلاً شديداً • وضرب وبيل أي شديد •

يوماً : (الراجح أنه ظرف منصوب على الظرفية ، مفعول « تتقون » أي : « فكيف تتقون » عذاب يوم كذا « إن كفرتم » ؟) [1] •

---

(١) راجع للاستزادة : روح المعاني للآلوسي •

شيباً : جمع أشيب .

منفطر به : متشققة به ، كما يشق العود بالقدوم . لشدة هول اليوم

المعنى :

بعد أن أمر الله تعالى رسوله أن يتخذ مولاه وكيلاً يفوض أمره اليه وجهه الى عدة الداعية في معاملة الخلق وهي الصبر فقال :

« واصبر على ما يقولون » :

أي على ما يقولون فيك من الايذاء وما يقولون في الله تعالى من جعل الشريك والولد له سبحانه ، ولا تجزع من قولهم ، ولا تمتنع من دعوتهم الى توحيد الله .

« واهجرهم هجراً جميلاً » أي جانبهم بقلبك أو خالفهم في باطلهم وأعمالهم المنكرة مع المداراة والإغضاء وترك المقابلة على إيذائهم .

« وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً » :

أي ارض بي لعقابهم وهم صناديد قريش ورؤساء مكة « أولي النعمة » أي التنعم ، وكانوا أصحاب أموال وترف ، وقد جاء الأمر بالتفويض هنا بما فيه غاية الإنذار ، فإنه إذا اهتم إنسان بمهم وكان غيره قادراً على كفاية ذلك المهم على سبيل التمام والكمال . قال له : ذرني أنا وذاك .

« ومهلهم قليلاً » : زماناً قليلاً هو الدنيا ، وقيل الى يوم بدر ، ويؤيد الأول قولـه [1] :

« إنا لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً » :

وقد توعدهم فيها بأربعة أمور :

(1) كما أفاد ابن كثير .

١ ـ « إن لدينا أنكالاً » : قيوداً ثقالاً .

٢ ـ وجحيماً : أي ناراً مستمرة شديدة اللهب لايقادر قدر هولها .

٣ ـ « وطعاماً ذا غصة » : غير سائغ يأخذ بالحلق لاهو نازل ولا هو خارج كما قال ابن عباس ، وقال أيضاً : « إنه شوك يدخل الحلق فلا ينزل ولا يخرج » .

٤ ـ « وعذاباً أليماً » وفيه تعميم لسائر أنواع العذاب الهائل ، كما يشير إليه تنكير « عذاباً » وتنوينه .

« يوم ترجف الأرض والجبال » :

هذه الأنواع من العذاب يعذبون بها يوم الهول الأكبر ، يوم ترجف الأرض والجبال ، تهتز وتتحرك الأرض بسرعة ، والجبال التي هي مثقلة للأرض ورواسي لها ترجف تلك الرجفة العظيمة تتحول منها لشدة هول الرجفة شيئاً آخر : « كثيباً مهيلاً » رملاً سائلاً .

وقال خالد بن حسان : « أمسى عندنا الحسن وهو صائم ، فأتيته بطعام فعرضت له هذه الآية « ان لدينا ... » فقال : « ارفعه » فلما كانت الليلة الثانية أتيته بطعام ، فعرضت له أيضاً ، فقال : « ارفعه » وكذلك الليلة الثالثة فانطلق ابنه الى ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكائي ، فحدثهم بحديثه ، فجاؤوا معه ، فلم يزالو به حتى شرب شربة من سويق » (١) .

« إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم » :

هو محمد ﷺ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم وأعمالكم ، والخطاب لكفار مكة والمراد سائر الناس (٢) .

---

(١) كما أورد المفسرون هذا الأثر كالنسفي والقرطبي والآلوسي .

(٢) كما قال ابن كثير .

« فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً » :

بعد هذا يخاطب الله تعالى المعاندين بأنكم وقد بعث لكم الرسول وكفرتم به فكيف تتقون العذاب العظيم يوم القيامة .

وقد تضمنت الآية أنواعاً من أساليب التهويل منها الاستفهام الإنكاري « كيف » والتنكير في « يوماً » أي هائلاً لايقادر قدر هوله ، [ولا يحيط التصور بأخطاره] ، ثم بيان ما يقع فيه بنتيجة الأهوال ، وذكر القرآن هنا أمرين : أولهما قوله : « يجعل الولدان شيباً » أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله .

الأمر الثاني :

« السماء منفطر به » :

هذا أثر آخر من هول القيامة ، أي لن السماء على عظمها واحكامها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يشقه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق .

« كان وعده مفعولاً » :

أي واقعاً لا محالة وكائناً لامحيد عنه .

« ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً » :

بعد أن خاطب الناس بأصنافهم بما يناسب كلاً منهم من الوعد أو الوعيد عقب بتقرير ما سبق من ذلك كله فقال : « إن هذه تذكرة » أي هذه الآيات الناطقة بالوعيد » أو هذه السورة تذكرة يتعظ بها من جعل وجهته الاهتداء والتوجه الى ربه ، فاتخذ لذلك سبيله الذي يوصله ، وذلك بالتقرب اليه تعالى بالإيمان والطاعة ، فإنه المنهاج الموصل الى مرضاته تعالى والى السعادة .

البلاغة :

قوله تعالى : انا أرسلنا اليكم رسولاً شاهداً عليكم ...» :

في الآيات من دقة الأداء والتهويل ما لا يحد له حد : كالالتفات في مطلعها ، ثم تنكير رسولاً وشاهداً ، وإعادة ذكر فرعون والرسول مظهرين ، مع أن الظاهر إضمارهما ، وذلك فيه تفظيع شأن عصيانه وأن ذلك لكونه عصيان الرسول لالكونه عصيان موسى لذلك لم يذكر اسم الرسول موسى عليه السلام .

الاستنباط والأبحاث العلمية :

١ ــ اشتملت الآية الأولى « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً » على بيان ما تقوم عليه مخالطة الداعية للخلق ، وقد عرف من تفسيرها فانظره .

٢ ــ قال المفسرون : هذه الآية « واصبر ... » نزلت قبل تشريع القتال ثم نسخت بالأمر بالقتال الوارد في المدينة المنورة .

وقد قيل نحو هذا في كل آية تأمر بمثل هذا الموقف من التحمل أو حسن المجاملة وهذا توسع كبير جداً في النسخ بلاداع .

لذلك قال أهل التحقيق في هذه الآية : « إنها للأخذ فيما يكون أدعى للقبول، فلا يرد النسخ في مثله . قال الامام الرازي وهذا أصح .انتهى .

والحاصل أن التعامل مع المخالفين له حالان :

حال المسالمة والحوار : وهذه يراعى فيها ماورد عن الصبر والتحمل والمحاسنة معهم .

حال المحاربة : وهذه يطلب فيها اتخاذ العدة والمعاملة بالغلظة « جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » .

٣ ــ التحذير من أهوال القيامة ، وما لها من خطر شديد .

التخفيف من قيام الليل

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ
مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ
وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ
يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟
ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

سورة المزمل : « ١٩ »

اللغة :

أدنى : أقل •

فتاب عليكم : أصل التوبة الرجوع ، والمراد على الراجح : فتاب عليكم من فرض القيام اذا عجزتم •

فاقرؤا ما تيسر من القرآن : فيه قولان : أحدهما المراد نفس القراءة أخذاً بظاهر العبارة ٠

القول الثاني : الصلاة ٠ أي فصلوا ما تيسر عليكم ، والصلاة تسمى قرآناً ، لقوله تعالى « وقرآن الفجر » أي صلاة الفجر ٠ قال ابن العربي « وهو الأصح لأنه عن الصلاة أخبر ، وإليها يرجع القول : قال القرطبي [1] : « الاول أصح حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ والقول الثاني مجاز فإنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله » ٠ اهـ ٠ وانظر ما سيأتي ٠

علم أن سيكون منكم مرضى : أن مخففة من الثقلة أي علم أنه سيكون ٠ يضربون في الأرض : الضرب في الأرض كناية عن السفر : أي مسافرين للتجارة ٠

الاعراب :

ونصفه وثلثه : بالنصب عطفاً على أدنى والمعنى : تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه ٠ قال الفراء : وهو أشبه بالصواب لأنه قال : أقل من الثلثين ٠ ثم ذكر نفس القلة لا أقل من القلة ٠

المعنى :

عادت السورة في ختامها الى ما بدأت به من الأمر بصلاة الليل ، وهي عدة السالكين الداعين الى الله المتقربين اليه ، لكي تخفف عن النبي ﷺ وأصحابه ما أجهدوا به أنفسهم امتثالاً لأمر ربهم ٠

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل » :

أي زماناً أقل من ثلثي الليل ، وجاء الأسلوب في غاية التلطف في الخطاب باستعمال اسم « رب » المنبيء عن العناية والإمداد ، وإضافته الى المخاطب وهو النبي ﷺ تكريماً وتشريفاً له ﷺ ٠

(1) ج ١٩ ص ٥٤ ٠

« وطائفة من الذين معك » :

أي وتقوم معك طائفة من أصحابك ، والجملة معطوفة على الضمير المستتر في « تقوم » وحسنه الفصل بينهما .

« والله يقدر الليل والنهار » :

إنه يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ، وأنتم بالتحري والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ (٢) والليل والنهار تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، أو هذا من هذا (٣) .

« علم أنْ لَنْ تُحْصُوه فَتَابَ عليكم » :

والمعنى : علم أن الشأن لن تقدروا على تقدير الأوقات ، ولن تستطيعوا ضبط الساعات ، « فتاب عليكم » . أي بالترخيص في ترك القيام المقدر ، ورفع التبعة عنكم في تركه .

« فاقرءوا ما تيسر من القرآن » :

أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، عبر ـ كما هو الراجح ـ عن الصلاة بالقرآن ، كما عبر عنها بسائر أركانها ، مثل تسميتها ركعة ، وسجوداً وقياماً .

وقد اختلفت آراء المفسرين في المراد ، والظاهر أنه نسخ وجوب قيام الليل .

وترك لاختيار المكلفين وتسابقهم الى الخيرات . والأمر في قوله « فاقْرَؤُا » ليس للايجاب بل للسنة ويؤيد هذا قوله « فتاب عليكم » .

(١) قرطبي ٥٣ .

(٢) ابن كثير ج ٨/ ٢٨٤ .

« علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله » .

أي علم أن الشأن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض أي يسافرون فيها للتجارة ، أو لطلب العلم ، ونحو ذلك ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ... وهم المجاهدون .

« وأقرضوا الله قرضاً حسناً » :

القرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالى من المال الطيب ... وقال زيد بن أسلم : القرض الحسن النفقة على الأهل ، وقال عمر بن الخطاب : هو النفقة في سبيل الله [1] ، وما قاله عمر هو الأرجح ، ويدخل فيه النفقة على الأهل فإنها لمن أخلص النية صدقة .

« وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً » :

أي جميع ما تقدمونه بين أيديكم فهو لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا . وقال ابن عباس : « تجدوه عند الله خيراً وأعظم أجْراً من الذي تؤخره الى وصيتك عند الموت » . قال الفخر الرازي [2] : يرجح هذا التفسير : « والقول ما قاله ابن عباس » . وذكر الضمير « هو » في قوله : « هو خيراً » للتأكيد والمبالغة كما ذكر الرازي .

« واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » :

أي استغفروا الله تعالى في كافة أحوالكم .

البلاغة :

والله يقدّر : قصر بتقديم لفظ الجلالة : « الله » .

---

(١) قرطبي ص ٥٨ .

(٢) ص ١٨٨ .

فتاب عليكم : على تفسيره بمعنى خفف : استعارة ، شبه فيها الترخيص بقبول التوبة في إزالة المسؤلية .

ما تيسر من القرآن : مجاز مرسل على تفسير القرآن بالصلاة .

وأقرضوا الله : أي تصدقوا ، وابتغوا الثواب عند الله .

وهذا استعارة ، شبه التصدق ابتغاء الثواب بالاقراض لله ، لانه تعالى هو معطي الثواب . على سبيل الاستعارة التصريحية .

الاستنباط والفوائد :

١ ـ نسخ فرضية قيام الليل ، التي ثبتت بأول السورة .

والناسخ هنا قوله تعالى : « علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن » حيث عبر بقوله « تاب » أي خفف عنكم ، ثم ترك المسألة لاختيار المصلي « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » أي صلوا ندباً لاوجوباً ما تيسر لكم من صلاة الليل .

٢ ـ في الآية إشارة الى فضل قراءة القرآن حيث عبر بها عن الصلاة . اشارة لأهميتها ومن ذلك قوله تعالى : « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » يعني صلاة الفجر .

٣ ـ الآية على تفسير قوله « فاقرءوا ... » بالقراءة في الصلاة ، تدل على فرضية قراءة القرآن في الصلاة مطلقاً دون تقيد بسورة معينة .

فقال الحنفية هذا هو الفرض ، وتعيين الفاتحة واجب وقراءة سورة قصيرة أو قدر ثلاث آيات قصار مع الفاتحة واجب أيضاً .

وقال المالكية والشافعية والحنبلية تعيين الفاتحة فرض في الصلاة ، لحديث عبادة : « لا صلاة الا بفاتحة الكتاب » متفق عليه .

٤ ـ قوله « وآخرون يقاتلون في سبيل الله » :

هذا من إعجاز القرآن ، لأن الآية مكية ، وإنما وقع القتال بعد ذلك في المدينة ، وما كان يمكن في مكة القتال ، فكان من أعلام النبوة .

٥ ـ قوله « وأقيموا الصلاة » أي المفروضة « وآتوا الزكاة » هذا يدل على أن فرض الزكاة كان بمكة ، وأما مقادير الأنصبة ومصارفها فكان في المدينة .

تم تفسير سورة المزمل

ولله الحمد

* * *

ترتيبها ٧٨ — **سُورَةُ النَّبَإِ** — آياتها ٤٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾
وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا
﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا
فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا
مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ
أَلۡفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ
فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ
مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا
﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ
لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيۡءٍ
أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا
دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً
حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ
مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن
شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

* * *

تفسير سورة النبأ

تمهيد :

تسمى هذه السورة سورة « النبأ » ، وسورة « عمّ » و « عمّ يتساءلون » وسورة التساؤل وسورة المعصرات .

وهي مكية بالإتفاق وآياتها احدى وأربعون آية في المكي والبصري ، وأربعون في غيرهما .

ويدور موضوع السورة على ما وقع بين الكفار من انكار ليوم القيامة واختلافهم في هذا الانكار الى وجهات ، وتساؤلات يتعجبون بها وينكرون بها يوم القيامة ، فأثبتت هذه العقيدة وعرضت صوراً من الآخرة وأهوالها وعذابها ونعيمها، وختمت بعظمة الله ، والحض على طاعته قبل الحسرة التي لافائدة منها .

مناسبة السورة لما قبلها :

ترتبط سورة عمّ بالسورة التي قبلها وهي سورة المرسلات وذلك من وجه أنه سبق في هذه السورة أن ذكر تكذيب الكفرة بالبعث وجاء في هذه السورة اثباته بدلائل قدرة الله تعالى على خلق الأشياء العظيمة والعجيبة .

سُورَةُ النَّبَإِ — ترتيبها ٧٨ — آياتها ٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾
وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا
﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا
مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ
أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

المفردات والصرف :

عمّ : لفظ استفهام ، أصلها « عن ما » سقطت منها ألف « ما » لتميز الخبر عن الاستفهام . وكذلك « فيم » ، « مم » إذا استفهم بهما (١) .

النبأ : الخبر الذي له شأن وخطر ، فقيل يوم القيامة ، وهو المختار عند جمهور المفسرين لما سيأتي بعد في السورة .

(١) وذكروا لحذف الألف عللاً أخرى . انظر الرازي ج ٣١ ص ٢ ، والآلوسي ج ٣٠ ص ٢ ، وفيه قوله : وحال العلل النحوية معلوم .

كلا سيعلمون : كلا : حرف ردع وهو ردع عن التساؤل المذكور ، والسين في سيعلمون : للتقريب والتأكيد [1] .

ثم كلا سيعلمون : في هذا التكرار وجهان : الراجح الذي عليه المحققون : أنه تكرار ، الغرض منه التأكيد والتشديد ، ومعنى « ثم » الإشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الوعيد الأول وأشد .

ألم نجعل : الهمزة لتقرير ما بعد النفي ، وذلك بواسطة ابطال النفي فهي استفهام للإنكار كما قالوا : نفي النفي إثبات .

مهاداً : المهاد : الغطاء والفراش [2] .

أزواجاً : ذكر وأنثى .

سباتاً : السبات في اللغة معناه القطع . والمراد به هنا الموت . فيكون النوم مشبهاً بالموت لأنه قطع عن الحركة .

لباسا : تلبسكم ظلمته وتغشاكم [3] .

معاشا : مصدر ميمي بمعنى العيش ، ووقع هنا ظرفاً ، كما قيل في نحو أتيتك خفوق النجم وطلوع الفجر .

المعصرات : أصح الأقوال فيها أن المعصرات السحاب . وفي الصحاح « والمعصرات السحائب تعتصر بالمطر » [4] .

---

(١) أبو السعود ص ٢١٣ .

(٢) أبو السعود والقرطبي .

(٣) الطبري وعنه القرطبي ، وقارن بأبي السعود .

(٤) قرطبي ١٣٧ وفيه توسع .

ثجاجا : متتابعاً • من ثجّ يثجُّ • لازم ومتعد • يقال : ثججت دمه فأنا أثجه ثجاً ، وقد ثج الدم يثج ثجوجاً • وكذلك الماء •

العج : رفع الصوت بالتلبية ، والثج إراقة دماء الهدايا وذبحها •

ألفافا : أي ملتفة تداخل بعضها في بعض •

الاعراب :

عمّ : جار ومجرور متعلقان بيتساءلون المذكور بعده ، قدّم لأن للاستفهام حق الصدارة •

يتساءلون : الضمير الفاعل في يتساءلون فيه أوجه ، أرجحها ـــ والله أعلم ـــ أنه عائد الى الكفار والدليل على ترجيحه الزجر في قوله تعالى « كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون » •

عن النبأ العظيم : متعلق بفعل يتساءلون مقدر • دل عليه المذكور • اي عن النبأ العظيم يتساءلون •

وقدرناه بعدها للمسارعة لترتيب السؤال (١) •

المعنى والبلاغة :

يقول تعالى منكراً على المشركين تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها :

« عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم » •

أي عن أي شيء يتساءلون ؟ أعن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعني الخبر الهائل المفظع الباهر •

---

(١) أبو السعود ج ٥ ص ٢٢٢ •

« عن النبأ العظيم » :

وأي نبأ أعظم من بعث الناس بعد الموت ، وقد بين القرآن المسؤول عنه بياناً في غاية الفخامة والجزالة ، وذلك بهذا الايراد للكلام على طريقة الاستفهام من علام الغيوب . ثم قيل على طريق الجواب : عن النبأ العظيم ، على أسلوب قوله تعالى : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » .

« الذي هم فيه مختلفون » :

وهذا التعبير فيه مبالغة في شأن ذلك اليوم وشأن نبئه ، والاشعار بمدار التساؤل عنه . أي راسخون في الاختلاف فيه . فمن جازم باستحالته يقول ان هي الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وشاكٍ يقول : ما ندري ما الساعة إن نظن الا ظناً وما نحن بمستيقنين ، وقيل منهم من ينكر المعادين معاً كهؤلاء . ومنهم من ينكر المعاد الجسماني فقط كجمهور النصارى [1] .

ثم قال سبحانه يتوعد المتسائلين المنكرين المستهزئين .

« كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون » :

وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، افتتح بحرف « كلا » للردع عن تساؤل المنكرين والمستهزئين ، وأردف بالوعيد الشديد في قوله : « سيعلمون » أي ما يلاقونه من فنون الدواهي والعقوبات .

ثم كرر هذا الردع والوعيد فقال : « ثم كلا سيعلمون » وهذا تكرير للمبالغة في الردع والوعيد والترقي الى الأشد منهما .

---

(١) وهناك أقوال أخرى ضعيفة أوردها الرازي وتعرض لها أبو السعود فذكرها الآلوسي وقال . (والكل كما ترى وإن تفاوتت مراتب الضعف والمعول عليه الأول) .

ثم بيّن القرآن بعد هذا الوعيد حقية هذا اليوم بذكر قدرة الله العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والامور العجيبة الدالة على قدرة الله تعالى على ما يشاء من أمر المعاد وغيره (١) ·

وقد ذكر ههنا من عجائب مخلوقات الله تعالى أموراً (٢) :

أولها : « ألم نجعل الأرض مهاداً » :

أي وطاء أو فراشاً · كما قال تعالى في سورة البقرة : « الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » · وقد عبر هنا بقوله « ألم » بهمزة الاستفهام الدالة على لم لتفيد تقرير ذلك على أبلغ وجه وآكده ، وأنه من الأمور البالغة غاية الظهور أي قد تحقق عندكم أنا جعلنا الأرض مهاداً ، ثم التعبير بالمهاد وهو مصدر يفيد قوة في التعبير ، ويوضح الصورة بهذا التشبيه البليغ الأرض كالمهاد في التوطئة والتسهيل ·

ثانيها : « والجبال أوتاداً » :

أي هي للأرض كالأوتاد ، وفي هذا تشبيه بليغ أيضاً ·

ثالثها : « وخلقناكم أزواجاً » : ذكوراً وإناثاً ، كما قال : وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » ·

رابعها : « وجعلنا نومكم سباتاً » :

أي قطعاً للحركة ، حتى يصير كالموت ، أو سبيلاً للراحة على ما بينا ·

خامسها : « وجعلنا الليل لباساً » :

أي ساتراً يغطيكم على المجاز ·

---

(١) ابن كثير ·

(٢) أسلوب التعداد درجنا فيه على طريقة الامام الرازي رحمه الله ·

سادساً : « وجعلنا النهار معاشا » :

أي وقت حياة تبعثون فيه من نومكم [1] .

سابعها : « وبنينا فوقكم سبعاً شداداً » :

أي سبع سموات شديدة ، قوية الخلق ، محكمة البناء .

ثامنها : « وجعلنا سراجاً وهاجا » :

أي أنشأنا وأبدعنا سراجاً وهاجا مشرقاً متلألئاً يعني الشمس المنيرة على جميع العالم ، يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم [2] .

تاسعها : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » :

آية المطر ينزل من السحاب ، فالمطر ينزل من السحب التي تتقبل ذلك ثجاجاً أي صبابا متتابعاً .

« لنخرج به حباً ونباتا ، وجنات ألفافاً » :

قال ابن كثير : « أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك « حباً » يدخر للأناسي والأنعام ، ونباتاً أي خضراً يؤكل رطباً ، « وجنات » أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة .... » .

الأبحاث والفوائد العلمية :

١ ــ تهويل أمر القيامة وتعظيم الخوف من خطرها ، كما يدل التصدير بالاستفهام والوعيد .

٢ ــ هذه الآيات سيقت لإثبات حقية القيامة ، وقد ذكر فيها من أفعال الله تعالى العجيبة مايدل على صحة البعث وحقيته ، وذلك من وجوه نذكر منها :

---

(١) أبو السعود ص ٢٢٤ .

(٢) أبو السعود ص ٢٢٤ ، وآلوسي .

« الأول : باعتبار قدرته تعالى ، فإن من قدر على انشاء هذه الأفعال البديعة من غير مثال يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه كان على الاعادة أقدر وأقوى .

« الثاني » : بعتبار علمه وحكمته ، فإن من أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافع جميلة عائدة الى الخلق يستحيل أن يفنيها بالكلية، ولا يجعل لها عاقبة باقية .

٣ ــ عبرت الآيات عن جعل الناس أزواجاً بالخلق ، وعبرت في المواضع الأخرى بالجعل ، وهذا فيه لفت لعجيب صنع الله تعالى في خلق الذكر والأنثى ، كما في قوله تعالى : « وما خلق الذكر والأنثى ... » .

* * *

يوم القيامة وهوله

قال الله تعالى :

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ
فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ
مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ
أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

سورة عم : النبأ « الآيات : ١٧ ــ ٣٠ »

مناسبة الآيات لماقبلها :

في هذه الآيات نوع تفصيل لكيفية وقوع يوم القيامة وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعيد إجمالاً يعني في قولـه تعالى : « كـلا سيعلمون ؛ ثم كلا سيعلمون [1] » .

(١) انظر تفسير أبي السعود والآلوسي .

المفردات :

الفصل : جاء في مفردات الراغب الأصفهاني : « الفصل : إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فُرْجَة » .

يوم الفصل : أي يوم يبين الحق من الباطل ، ويفصل بين الناس بالحكم .

ميقاتاً : ميعاداً .

الصور : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام .

سراباً : مثل السراب . يخيل الى الناظر أنها شيء وليست بشيء .

مرصاداً : من الرصد وهو المراقبة ، والمرصاد اسم للمكان الذي يرصد فيه .

مآباً : مرجعاً يرجعون إليه .

أحقاباً : جمع حقب ، وهو المدة من الزمان ، أي دهوراً متتابعة كلما مضى حقب تبعه آخر (١) .

برداً : أي ما يبرد حر قلوبهم . وقيل : البرد النوم .

حميماً : ماءاً حاراً .

غساقاً : صديداً .

كذاباً : تكذيباً مفرطاً . وفعّال من باب فعّل شائع بين الفصحاء (٢) .

---

(١) آلوسي ج ٣٠ ص ١٥ .

(٢) أبو السعود ص ٢٢٧ .

الاعراب :

يومَ ينفخ : يوم : بدل من « إن يوم الفصل » منصوب .

للطاغين : متعلق بمضمر ، هو إما نعت لمرصاداً ، والمعنى مرصاداً كائناً للطاغين ، وإما حال من مآبا ، قدمت عليه لكونه نكرة . ولو تأخرت لكانت صفة .

مآبا : بدل من مرصاداً .

أحقابا : ظرف متعلق بلابثين .

لايذوقون : الجملة صفة للابثين ، أو حال من ضمير لابثين .

جزاء : مفعول مطلق منصوب بفعل مقدر ، أي جوزوا جزاء .

وفاقا : صفة لجزاء والوفاق مصدر وافق ، فهو هنا على تقدير مضاف أي ذا وفاق . أو بتأويله باسم الفاعل أي موافقاً .

كتاباً : مفعول مطلق لأحصيناه ، لأن الاحصاء والكتبة يتشاركان في معنى الضبط ، فإما أن تفسر أحصيناه بكتبناه ، أو تفسر كتاباً بإحصاء [1] .

المعنى والإسلوب :

يقول تعالى : مخبراً عن يوم الفصل وهو يوم القيامة إنه مؤقت بأجل معدود ، لايزاد فيه ولا ينقص منه .

« يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً » .

هذه النفخة هي الثانية ، لأنها هي التي تبعث فيها الأجسام ، كما قال تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »

---

(١) آلوسي ج ٣٠ ص ١٧ .

« فتأتون أفواجا » :

أي أمماً كل أمة مع إمامها ، كما قال تعالى : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » . أو زمراً وجماعات مختلفة الأحوال متباينة الأوضاع ، حسب اختلاف أعمالهم وتباينها .

« وفتحت السماء فكانت أبوابا » :

هذا حادث آخر مما يحدث يوم القيامة بعد النفخة الثانية ، أي كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة ، نزولاً غير معتاد ، حتى صارت كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة .

« وسيرت الجبال فكانت سرابا » :

أي سيرت الجبال في الجو على هيأتها بعد قلعها من مقارها .

ثم بيّن الله مآل حال الكافرين باليوم الآخر ، المتسائلين عن يوم القيامة إنكاراً واستهزاء ، وما يلحقهم ، من هول العذاب فقال :

« إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآبا » :

أي موضع رصد ومراقبة للطاغين ، وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ، ترصدهم خزنتها ليعذبوهم فيها . وهي لهم « مآباً » يعني مرجعاً ومتقلباً ومصيراً ونزلاً .

« لابثين فيها أحقابا » :

ماكثين في جهنم دهوراً متتابعة ، لا تنتهي ولا تحد ، خالدين فيها أبداً ، فالحقب الواحد مهما طال سوف ينتهي ، لكن الأحقاب لا تنتهي أبداً فهم خالدون فيها أبدا كما صرّحت الأدلة القطعية .

وقد اختلفوا في مقدار الحقب ، ولعل أولى الأقوال فيه ما أخرجه الطبري [1]

(1) ج ٣٠ ص ٧ وانظر ابن كثير ج ٨ ص ٣٢٩ .

أن علـي بن أبي طالب قال لهـلال الهَجَري : ماتجدون الحقب في كتـاب اللـه المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة اثنا عشر شهراً ، كل شهر ثلاثون يوماً ، كل يوم ألف سنة •

« لايذوقون فيها برداً ولا شراباً • إلا حميماً وغساقاً » :

قال الإمام ابن كثير أيضاً (١) :أي لايجدون في جهنم برداً لقلوبهم ولا شراباً طيباً يتغذون به ، ولهذا قال : « إلا حميماً وغساقاً » ••

فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه ، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لايُستطاع من بـرده ، ولا يواجه من نتنه •

البلاغة :

فكانت أبواباً : تشبيه بليغ •

فذوقوا •• : الأمر للاستهانة والاخزاء ، وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب •

برداً ••• حميماً : طباق •

الفوائد والأبحاث العلمية :

١ ـ قوله تعالى : « يوم ينفخ في الصور » •

ذُكِرَ النفخُ في الصور في أكثر من موضع في القرآن الكريم منها قوله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » •

---

(١) ج ٨ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ •

وذهب جماعة من العلماء الى أن هناك نفختين : نفخة إماتة ، ونفخة إحيـاء ، وقيل ثلاثة ، الثالثة نفخة الفزع ، والله أعلم .

٢ ـ حقيقة الصور والنفخ فيه :

وقد ورد التعبير عنه بالقرن : وهذا قد يتوهم منه أنه بوق عادي ، لكن ليس الأمر على ذلك إنما هو تقريب له .

قال الجمهور : هو عالم عظيم من عوالم الله تعالى . تجتمع فيـه الأرواح ، على هيئه القرن ، لذلك عبّر عنه بالصور وهو القرن [١] .

٣ ـ ان جهنم معدة قبل القيامة لقوله « كانت مرصاداً » ، وكـذا الجنـة بالقياس . والنصوص في ذلك كثيرة .

٤ ـ ان العقاب الشديد من الآخرة عدل ، لأنه كما قال : « جزاء وفاقا » .

★ ★ ★

---

(١) انظر التوسع في كتاب « الايمان بعوالم الآخرة ومواقفها » لفضيلة أستاذنا العلامة الشيخ عبد الله سراج الدين أمتع الله به .

ثواب المتقين والحض على الاستعداد للآخرة

قال تعالى :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا
دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً
حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ
مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن
شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

سورة النبأ : « ٣١ ـ ٤٠ »

المفردات :

مفازاً : مصدر ميمي من الفوز ، أي فوزاً وظفراً • أو اسم مكان موضع فوز •

حدائق : جمع حديقة ، وهي بستان فيه أنواع الشجر المثمر •

أعنابا : جمع عنب • ويطلق العنب على الكرم نفسه وعلى ثمرة العنب المعروفة•

كواعب : جمع كاعب وهي المرأة التي تكعب ثديها •

أترابا : أي لدات متقاربات في السن •

دهاقا : مترعة ، مليئة ، وهو قول أكثر أهل اللغة [١] ، مأخوذ من الدهق ، وهو ضغط الشيء وشده كأنه لامتلائه انضغط [٢] •

حسابا : صفة عطاء ، بمعنى كافيا على أنه مصدر أقيم مقام الوصف ، أو للمبالغة ، أو على تقدير مضاف • وعطاء منصوب مفعول مطلق ، والعامل فيه معنى قوله : « إن للمتقين » فإنه في قوة أن يقال جازى المتقين بمفاز جزاء كائنا من ربك [٣] •

الروح : الظاهر أنه جبريل عليه السلام •

مآبا : مرجعا •

المعنى :

بعد أن بينت السورة سوء أحوال الكفرة بينت محاسن أحوال المؤمنين في الآخرة •

« إن للمتقين مفازا » :

وعبرت عنهم بالمتقين لأنهم اتقوا الكفر والمعاصي والقبائح • وأخبرت أن لهم مفازا أي فوزا وظفرا بالكرامة ، والنعيم المقيم ، ثم فسرت ذلك بذكر مهمات منه ، فذكرت السورة :

---

(١) الرازي ص ٢٠ •

(٢) آلوسي ص ١٨ عن البحر •

(٣) أبو السعود ٢٢٧ •

« حدائق وأعنابا » :

أي بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة ، وأعنابا . وخصص الأعناب بعد تعميم الحدائق لزيادة الاعتناء بها .

« وكواعب أترابا » :

أي نساء فتيات تكعب ثدي الواحدة منهن واستدار مع ارتفاع يسير ، وذلك يكون في سن البلوغ .

« وكأساً دهاقاً » :

قال ابن عباس رضي الله عنهما مملوءة متتابعة (١) ، وذلك مما يزيد لذة شرب الكأس .

« لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا » :

ليس في الجنة سكر ولا كلام لاغ ، عار عن الفائدة ، وليس فيه إثم كذب .

« جزاء من ربك عطاءً حساباً » أي كافياً وافراً كثيراً .

« رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن » :

يخبر الله تعالى عن عظمته وجلاله ، وأنه رب السموات والأرض وما بينهما ، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء (٢) ، ولا يخفى ما في أسلوب البدلية في « رب السموات » من قوله « ربك » على قراءة الجر ، أو الرفع على المدح من تفخيم ذاته تعالى ، وبيان عظمته .

---

(١) ابن كثير ص ٣٣٢ .

(٢) ابن كثير ص ٣٣٣ .

« لايملكون منه خطابا » :

المراد بالضمير في « يملكون » أهل السموات والأرض [1] ، والمعنى أنهم لايملكون أن يخاطبوا الله في أمر من الأمور ، لأنه عدل لايجور ، وعقابه للكفار عدل [2] . وثوابه للمؤمنين عدل فبأي سبب يخاطبونه ، فلا يملك أحد من المخلوقين مخاطبة الله ومكالمته .

«يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » :

ذكر القرآن قيامهم مصطفين لتحقيق عظمة سلطانه تعالى وكبرياء ربوبيته عز وجل وتهويل يوم البعث الذي عليه مدار الكلام من مطلع السورة الى مقطعها .

وأخيراً بعد أن قررت السورة أحوال المكلفين من الثواب والعقاب ، وقررت عظمة يوم القيامة ، ختمت بالإشارة الى غاية هوله ، وبشدة التحذير من خطره :

« ذلك اليوم الحق » :

أي ذلك اليوم الموصوف بالأهوال ، وبفصل القضاء بين الناس هو اليوم الحق ، لاغيره من الأيام ، وهو كائن لامحالة .

« فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا » :

أي إذا كان الأمر كما ذكر من تحقق ذلك اليوم لامحالة فمن شاء أن يتخذ مرجعاً الى ثواب ربه وطريقاً يهتدي اليه فعل ذلك ، وذلك بالإيمان والطاعة .

---

(1) الرازي ص ٢٣ . وانظر تفسير أبي السعود ص ٢٢٧ .

(2) اورد الرازي هذا المعنى على أن ضمير يملكون للمؤمنين ثم صوب أنه عام للخلائق فجعلناه مفسراً للآية على هذا الذي استصوبه ، لأنه ينطبق عليه .

ومن ذلك قوله تعالى : « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا » .

ثم إنه تعالى زاد في الختام في التخويف من هذا اليوم فقال :

« إنا أنذرناكم عذاباً قريباً » :

« أي أنذرناكم بما ذكر في هذه السورة من الآيات الناطقة بحقية البعث وأهوال يوم الفصل وما بعده « عذاباً قريباً » وهو عذاب الآخرة ، وصفه بكونه قريباً ؛ لتحقق اتيانه حتماً فإن كل ما هو آتٍ قريب ؛ وإن رآوه بعيداً ؛ لقوله تعالى : « كأنهم يوم يَرَوْنها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » (١) .

« يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » :

أي ينظر كل أمرىء مسلم أو كافر ماقدمت يداه . أي كيف عمل ؛ أو الذي قدمته يداه من الأعمال ، فتعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها ، قديمها وحديثها : كقوله « ووجدوا ما عملوا حاضراً » . « ينبأ الانسان يومئذٍ بما قدم وأخر » (٢) .

« ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا » :

أي يود الكافر لشدة الحسرة وهول الموقف يود يومئذٍ أنه كان في دار الدنيا تراباً ، ولم يكن خلق ولا خرج الى الوجود .

الاستنباط :

١ — ان لله تعالى غاية العظمة والهيبة ، فلا يقدر أحد مخاطبته يوم القيامة الا من أذن له الرحمن وقال صوابا .

٢ — حتى الملائكة تقوم صفا يوم القيامة لشدة الخوف والرهبة فكيف غيرهم .

(١) أبو السعود والآلوسي .

(٢) ابن كثير .

٣ ــ قوله تعالى : « ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا » فيه دليل على شدة أهوال يوم القيامة وشدة العذاب الذي يعانيه الكافر حتى يتمنى أنه لم يكن وجد .

وقال الإمام ابن كثير [١] : « وقيل انما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا ، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لايجور ، حتى انه ليقتص للشاة الجمّاء من القرناء . فإذا فرغ من الحكم بينها ، قال لها : كوني تراباً ، فتصير تراباً . فعند ذلك « يقول الكافر ياليتني كنت تراباً » . أي كنت حيواناً فأرجع الى التراب .

وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور ، وورد فيه آثار عن أبي هريرة ، وعبد الله بن عمرو وغيرهما » انتهى . والله أعلم بالصواب .

انتهى تفسير سورة عمّ

ولله الحمد

* * *

---

(١) ج ٨ ص ٣٣٤ .

سُورَةُ عَبَسَ

ترتيبها ٨٠ — آياتها ٤٢

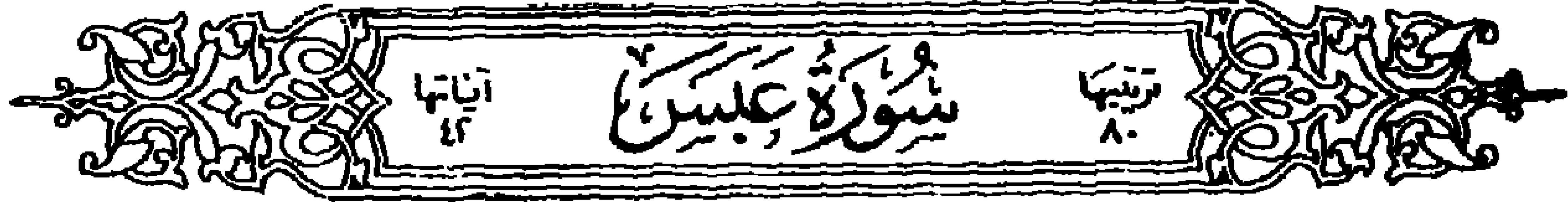
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ
يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾
وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ
عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ
﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ
مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ
ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا
يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا
﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾
وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ
وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾
وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ

يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

* * *

تفسير



تعريف بالسورة :

سورة عبس مكية كلها ، وعدة آياتها اثنتان وأربعون آية . تعالج السورة مشكلة على قدر كبير من الأهمية ، من خلال تعقيبها على قصة الأعمى الذي عرض للنبي ﷺ وهو يدعو بعض زعماء مكة للاســلام . فبين القرآن صغار هؤلاء الذين لا يرتفعون بقيم الإيمان والأخلاق ، وأن لا يأبه بهم النبي ﷺ ، وبين علو قدر المؤمنين الفاضلين وإن لم يكونوا من أهل الدنيا أو المناصب أو الزعامة .

ثم ذكرت السورة ضعف الانسان ببيان كيفية نشأته ورزقه ، وذكرت هول يوم القيامة وشدة عقاب الكافرين ، فكانت غاية في التأثير والعلاج لمن يتعظ .

مناسبة السورة لما قبلها :

ترتبط السورة بما قبلها وهي سورة النازعات بأكثر من وجه من التناسب . فمن جهة عامة : تتحدث السورتان عن القيامة وأهوالها وعاقبة الناس فيها : ومن ناحية المناسبة الخاصة ، في آخر السورة السابقة قوله تعالى : « إنما أنت منذر من يخشاها » ، فذكر عز وجل بعده في هذه السورة من ينفعه الإنذار ومن لا ينفعه (١).

---

(١) المناسبة الخاصة عن الآلوسي بتصرف .

القرآن موعظة لمن يتزكى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ
يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦)
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ
عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ
(١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)

سورة عبس « ١ ــ ١٦ »

سبب نزول الآيات :

أكثر المفسرون من ذكر الروايات والأقاويل في سبب نزول الآيات ، وأكثر ذلك ضعيف لاسند له . والذي يعول عليه من ذلك كله ما أخرجه الترمذي وأبو يعلى الموصلي وابن جرير الطبري عن عائشة رضي الله عنها قالت : « أنزلت عبس وتولى » في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى الى النبي ﷺ : فجعل يقول أرشدني . قالت

وعند رسول الله من عظماء المشركين . قالت : فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : « أترى بما أقول بأساً ؟ فيقول : لا . ففي هذا انزلت « عَبَسَ وتولى » .

فهذا الحديث في هذه الواقعة استوفى شروط القبول عند المحدثين ، وقال فيه الترمذي : « حسن غريب » . أما غيره فهو كما ذكرنا ضعيف أو لا سند له . وابن أم مكتوم اسمه عبد الله ، ويقال عمرو ، وهو عمرو بن قيس بن زائدة وهو ابن خال سيدتنا خديجة رضي الله عنها .

المفردات :

عبس : كلح بوجهه .

تولى : أعرض بوجهه .

يزكى : يتطهر . والمراد هنا طهارة في دينه .

يذكر : يتعظ . والضمير في يزكى ويذكر عائد الى الأعمى .

استغنى : أي عن الايمان والدعوة وفسره القرطبي بأنه ذو المال ويمكن أن يقال انه بيان للسبب الأول .

تصدى : تتعرض لدعوته .

تلهى : أصله تتلهى أي تتشاغل .

فمن شاء ذكره : عبر بالضمير المذكر مع أنه سبق التعبير بالضمير المؤنث (إنها) . وهذا المؤنث عائد الى آيات القرآن أو السورة . والمذكر في « ذكره » عائد الى التذكرة بمعنى التذكر أو الوعظ ، فذكر الضمير باعتبار المعنى (١) .

---

(١) بتصرف واختصار عن الرازي ج ٣١ ص ٥٣ .

مرفوعة : قال الطبري : « مرفوعة الذكر والقدر [1] » .

مطهرة : من كل دنس وكل ما ينزل عن الكمال .

سفرة : مأخوذة من « السَّفْر » . وهذه المادة في أصلها تدل على الكشف أو تبيين الشيء . والراجح هنا أنهم الملائكة لأنهم سفراء بين الله وبين البشر . ويؤيد ذلك ماذكره القاضي أبو بكر بن العربي وغيره [2] : « هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الاطلاق » .

كرام : أي كرام على ربهم .

بررة : جمع بار . وبررة أي مطيعون لله صادقون في أعمالهم .

المعنى :

تفتتح السورة بهذه العبارة « عبس وتولى » والضمير الفاعل في الجملتين للنبي ﷺ ــ بإجماع المفسرين [3] . أي كلح وقَطَّبَ وجهه لأن جاءه الأعمى وهو ابن أم مكتوم .

« وما يدريك لعله يزكى » :

أي . أي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى لعله يتطهر من الجهل أو من الإثم بما يتلقى منك .

« أو يذكر فتنفعه الذكرى » :

أي يتعظ فتنفعه ذكراك أي موعظتك .

---

(1) وثمة أقوال أخرى ترجع الى ما قاله الطبري انظرها في القرطبي ج ٩ ص ٢١٦ .

(2) الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ص ٢١٦ ، وبنحوه قال أبو السعود ج ١٥ ص ٢٣٨ وغيره .

(3) كما نص الرازي في تفسيره ج ٣١ ص ٥٥

« أما من استغنى فأنت له تصدى » :

أي إن الذي استغنى عن الإيمان وعما عندك من علوم النبوة ومعارف القرآن فأنت تتعرض لدعوته وتقبل عليه •

« وما عليك ألا يزكى » :

المعنى لاشيء عليك في أن لايتزكى بالإسلام من تدعوه الى الاسلام ، حتى يبعثك الحرص على اسلامه الى الاعراض عمّن أسلم •

« وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى » :

أي وأما من جاءك قاصداً إياك ليهتدي بما تقول •

« وهو يخشى » : أي يخاف الله تعالى ويحذر الآخرة • لأن الخشية إذا أُطْلِقت في القرآن ومُدِح بها كان المراد بها خشيته تعالى •

« فأنت عنه تلهى » : أي تعرض عنه وتتشاغل بغيره •

ثم بيّنت السورة عظمة شأن القرآن :

« كَلا إنها تَذْكِرَةٌ فمن شاء ذكره » :

حقاً إن قوام وظيفة القرآن هي موعظة الخلق وتبصيرهم بهداية الله تعالى فمن شاء اتعظ بوعظ القرآن ، وانتفع بحججه وبياناته •

« في صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرة » :

أي معظمة موقرة ، مرفوعة الذكر عند الله تعالى والقدر ، لعظمة القرآن الذي احتوته « مطهرة » من كل ما يشوبها أو يشينها من دنس أو شبهة أو تناقض ، أو نقص في بيان ما يحتاج اليه ، أو أن يزاد فيها أو ينقص •

---

(١) كما نص الرازي في تفسيره ج ٣١ ص ٥٥ •

« بأيدي سفرة كرام بررة » :

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وابن زيد : هي الملائكة وقال ابن جرير : « الصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعني بين الله وبين خلقه ، ومنه يقال السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير .

« كرام بررة » : كرام عند الله تعالى أعزاء على الله تعالى معظمين عنده . بررة أتقياء ، مطيعين لله صادقين في أعمالهم .

البلاغة :

عبر بضمير الغيبة في قوله : « عبس وتولى » عن النبي ﷺ ولم يخاطبه خطاباً : عبست وتوليت وفي ذلك إجلال له ﷺ . والتفت بالخطاب في قوله : « وما يدريك » لما فيه من الايناس بعد الايحاش .

وفي الآيات من البلاغة التعريض على ما حققنا أن الخطاب بالعتاب للنبي ﷺ والمقصود المشركون .

وأسلوب الآيات يشير الى رفعة مقامه ﷺ وذلك بتقديم ضميري الفاعل « أنت له تصدى » « أنت عنه تلهى » لأن هذا التقديم يشعر بأن سبب هذا التنبيه من الله تعالى خصوصية مقامه ، كأنه قال : « فأنت بعلو قدرك وشرفك تفعل هذا » تهتم كل هذا الاهتمام بالمعرض المستغني عن هداية الله حتى تلهيت به عن المهتدي الخاشي لله .

الاستنباط والبحث العلمي :

١ ـ الإقبال على كل من يستجيب للدعوة والاعتزاز به ، ولو كان في نظر الناس ضعيفاً قليل الشأن . قال الآلوسي(١) : «ان الفقراء كانوا في مجلسه أمراء ».

---

(١) ج ٩ ص ٤١ .

٢ ــ في توجيه هذا العتاب للنبي ﷺ بحث هام جداً ، فإن الظاهر أن الأعمى يستحق التأديب لما قال الفخر الرازي : لأنه لصحة سمعه كان يسمع مخاطبة رسول الله ﷺ أولئك الكفار ، وكان يسمع أصواتهم أيضاً ؛ فكان إقدامه على قطع كلام النبي ﷺ إيذاء للنبي ﷺ ، وذلك معصية عظيمة .

وأيضاً لأن الأعمى قد أسلم وتعلم ما يحتاج اليه ، أما أولئك فما أسلموا وإسلامهم سبب لإسلام جميع عظيم ، فمقاطعة ابن مكتوم تشويش على النبي ﷺ ، لكن الله تعالى لم يعاتب ابن أم مكتوم حتى لاتنكسر قلوب فقراء المسلمين ، أو ليعلم أن المؤمن الفقير أحب الى الله من الغني غير المؤمن [٣] .

٣ ــ قوله تعالى : « كلا إنها تذكرة » :

وقع في كلام المفسرين هنا إسراف في هذه الكلمة (كلا) حيث فسرها كثير منهم بما تفسر في الخطاب مع أي كان ، مع أنهم نصوا بناءً على فهمهم أن القضية انما كانت من باب خلاف الأولى .

ويعجبنا في هذا المقام قول الآلوسي [١] : « كلا » مبالغة في إرشاده ﷺ .

وأبدى القرطبي [٢] وجهاً في تفسير الآية يجب أن يعتني به فقال :

يجوز أن تقف على « تلهى » ثم تبتدىء : « كلا » على معنى حقاً إنها تذكرة » .

وهو وجه قوي بل نقول إنه الراجح ، بدليل ما سبق أن حققناه في أنه لاخطأ في فعله عليه الصلاة والسلام ، إنما المراد الرد على هذا الجاهلي المتعالي على الحق والناس ، ويؤيد ذلك أنهم فسروا « كلا » بمعنى حقاً في أكثر من موضع ، مثل :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٩ ص ٢١٢ .

(٢) ج ٩ ص ٤١ .

(٣) ج ١٩ ص ٢١٢ .

« كلا إن كتاب الأبـرار لفـي عليـين » و « كـلا إن الإنسـان ليطغى أن رآه استغنى »[1] .

٤ ــ قال ابن كثير في : « كرام بررة » : من هنا ينبغي لحامـل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

٥ ــ عظمة القرآن الكريم وصيانته عن كل نقص أو خلل أو أن تصل اليه قوة البشر بالتغيير والتبديل ، لقوله : « في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة » .

٦ ــ الدلالة على فضل قارىء القرآن حتى مدح بالقراءة الملائكة الكرام .

* * *

---

(١) انظر تفسيرها في الجلالين : ٧٨٩ و ٨٠٤ ، وارشاد العقل السليم . والبيضاوي ، والقرطبي ج ١٩ ص ٢٦٢ .

افتقار الانسان الى الله تعالى

قال تعالى :

قُتِلَ الْإِنسَٰنُ
مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ
السَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا
يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا
﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

سورة عبس : « ١٧ ـــ ٣٢ »

سبب النزول :

نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال : كفرت برب النجم ، فأنزل الله : « قتل الإنسان ما أكفره ... » . أخرجه ابن المنذر .

مناسبة الآيات لما قبلها :

تشنع هذه الآيات على هذا الكافر المستغني بسبب تكبره عن القرآن وهدايته وذلك ببيان افتقاره الى الله تعالى وحقارة ما خلق منه ، ثم بيان ما يصير اليه • رداً على هذا المتكبر ، وزجراً عن الكبر ، يؤيد ذلك ذكر الموت : « ثم أماته فأقبره » •

المفردات :

قتل : لعن •

أقبره : جعله ذاقبر •

حباً : قمحاً وشعيراً ، وسائر ما يحصد ويدخر •

قضباً : القَضْبُ في اللغة : القطع • والمراد هنا : ما يقطع من الزروع كالقت والرطب وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلها •

غلباً : غلاظاً •

أباً : أي مرعىً • وقال ابن عباس : « الأب ما أنبتته الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس » •

الاعراب :

أنا صببنا : بدل اشتمال من قوله طعامه ، لأن الماء سبب لحدوث الطعام ، فهو مشتمل عليه •

متاعاً لكم : مفعول لأجله ، أي فعل ذلك تمتيعاً لكم ولمواشيكم •

المعنى :

بعد أن بين الله تعالى سمو شأن القرآن ، انتقل الى التعجيب من كفرة قريش وأمثالهم ، فقال عز وجل :

«قتل الانسان»

أي لعن وقيل عُذِّب • والإنسان هو هنا المستغني عن القرآن • وهذه العبارة دعاء بأشنع الدعوات وأفظعها •

« ما أكفره » :

تعجيب من إفراطـه في الكفران وبيان لاستحقاقه الدعـاء عليه • أي مـا أشد كفره •

« من أي شيءٍ خلقه ، من نطفةٍ خلقه فقدره » :

بدأ باستفهام « من أي شيءٍ خلقه » وغرض هذا الاستفهام زيادة التقرير في التحقير ، ثم أجاب عن ذلك الاستفهام بقوله : « من نطفة خلقه » فالتكبر والتجبر لايكون لائقاً به لأن أصله مهين حقير •

« فقدره » : أي قدر كل عضو في الكمية والكيفية بالقدر اللائق بمصلحته •

« ثم السبيل يسرهُ » :

قال ابن عباس وغيره وجماعة من التابعين : « يسر عليه خروجه من بطن أمه »• والدلالة في هذا ، ما تحتاجه عملية الولادة من أمور عظام يعلمها الخبراء بهذا [1] •

« ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره »

هذه المرحلة الأخيرة للانسان وفيها ثلاث مراتب :

الإماتة ، والإقبار وهو أن يصير ذاقبر ، والنشور الى الله تعالى •

ونلاحظ هنا تعليق الانشار بمشيئة الله دون غيره ، وذلك للإيذان والاشعار بأن وقته غير معلوم لدينا •

---

(١) انظر الطبري ج ٣ ص٣٦ •

« كلا لما يقض ما أمره » :

قال الطبري يقول : « كلا ليس الأمر كما يقول هذا الانسان الكافر : من أنه قد أدى حق الله عليه في نفســه وماله ، « لما يقض ما أمره » ، يقول لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض لربه عز وجل » انتهى .

وقد فَسرَّ هنا « لما » بـ « لم » والضمير للإنسان الكافر . وهذا تفسير لا إشكال فيه ، وكان ابن عباس يقــول كما ذكر القرطبي [1] : « لم يف بالميثاق الذي أخذ عليه وهو في صلب آدم » .

يدل على ذلك أن الكلام تابع لقوله : « قتل الانسان » . والمراد به الكافر .

ثم بعد أن ذكر الله تعالى ضعف هذا الانسان من منشئه الى نهايته في القـبر ذكر افتقاره اليه في بقائه ، فقال :

« فلينظر الانسان الى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً » :

أي لينظر بقلبه نظر تفكر واعتبار : « أنا صببنا الماء صباً » : أي أنزلنا الغيث من السماء صباً عجيباً ، فإن نزول الغيث آية عظيمة من آيات الله تعالى .

« ثم شققنا الأرض شقاً » :

أي شققناها بالنبات ــ كما قال ابن عباس ــ شقاً بديعاً ، لائقاً ، بما يشقها من النبات صغراً وكبراً وشكلاً وهيئة .

ثم ذكر تعالى بعد هذا الاجمال في التقديم لعظمة انعامه ، ذكر ثمانية أنواع من النبات هي :

١ ــ « فأنبتنا فيها حباً » :

وهو كل ما يحصد من نحو الحنطة والشعير وغيرها . وقدم القرآن ذكــره لكونه الأصل في الأغذية .

---

(١) ج ١٩ ص ٢١٩ .

٢ ـــ « وعنبا » : وذكره بعد الحب لأنه غذاء من كل وجه والفاكهة غـذاء من وجه ٠

٣ ـــ « وقضباً » : وهو النبات الذي يقطع فينبت أصله ، وعبر عنه بهـذا التعبير ، لاستحضار صورة قطعه مرة بعد مرة ليكون أدل على القدرة التي تمده ٠

٤و٥ ـــ « وزيتوناً ونخلاً » : ومعلوم عظمة شأنهما وتغذيتهما ونفعهما ٠

٦ ـــ « وحدائق غلباً » : الحدائق المثمرة بأشجارها الغليظة ، وهذا عموم في الأشجار التي هذه صفتها ٠

٧ ـــ « وفاكهةً » : يشمل أنواع الفاكهة من مشمش وخوخ وغير ذلك ٠

٨ ـــ « وأباً » : وهو المرعى الذي ترعى فيه الحيوانات المسخرة للانسان ، فتعيش به ، وينتفع الانسان بها حمولةً وفرشاً وطعاماً وغير ذلك ٠

ثم قال بعد هذا التعداد :

« متاعاً لكم ولأنعامكم » :

أي خلقنا هذه الأشياء لتكون منفعةً لكم ولأنعامكم ٠ وعبر بقوله « متاعاً » للاشعار بسرعة زوال هذه النعم وقرب اضمحلالها ٠

البلاغة :

قال تعالى : « ما أكفره » : ما للتعجب ، لكن التعجب من الله محال ، وانما المراد التعجيب من هذا الكافر ٠ كأنه قال : اعجبوا من كفر الانسان وتكبره ٠

وفي الآيات من البلاغة الإجمال ، ثم التفصيل في قوله « من نطفة ٠٠٠ » وذلك يزيد المعنى سوخاً في القلب ٠

وفي قوله : « ثم السبيل يسره » قدم ذكر السبيل فصار مفعولاً به منصوباً بفعل مقدر محذوف يفسره الفعل المذكور : « يسره » أي « ثم يسر السبيل يسره »

وهذا التعبير فيه مبالغة في التيسير وتمكين له في النفس بسبب تكرار فعل يسر على ما أوضحنا .

الاستنباط :

١ ــ التحذير العظيم من الكبر ، وأنه يسبب الكفر ، كما أشارت الآيات .

٢ ــ مداواة الكبر بالتفكر في أصل خلق الانسان على النحو الذي أوردته الآيات .

٣ ــ إقامة الحجة على الخلق بالنعم المذكورة وهي توجب الشكر وتوجب الإيمان بالآخرة .

٤ ــ وجوب التفكر في آيات الله تعالى ، لقوله « فلينظر » ، وهو فعل مضارع مقترن باللام فيفيد الأمر ، والأمر للوجوب .

* * *

التذكير بالآخرة

قال الله تعالى :

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤)
وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)

سورة عبس « ٣٣ ـ ٤٢ »

مناسبة الآيات لما قبلها :

لما ذكر فيما سبق ما يدل على قدرته تعالى في الخلق والرزق ذكر المعاد ، لان ما سبق ذكره يدل عليه .

المفردات :

الصاخة : الصَّيْحَة الشديدة تَصُخّ الاسماع ، أي تُصِمُّها .

مسفرة : مشرقة مضيئة .

غبرة : غبار وكدرة .

قترة : سواد وظلمة .

الاعراب :

فإذا : إذا شرطية غير جازمة ، وجوابها قوله : « وجوهٌ يومئذٍ مسفرة » ، بنفسه أو بما دل عليه .

يوم : الأظهر أنه منصوب بفعل مقدر تقديره أعني. أو هو بدل من إذا جاءت.

المعنى والأسلوب :

بعد أن أوضحت السورة ما يتعلق بمبدأ الانسان ومعاشه - مما يدل على افتقاره لله تعالى - بيّنت ما يتعلق بمعاد العباد إذ جاء كنتيجة لتلك المقدمات ، فقال تعالى :

«فإذا جاءت الصاخة » :

أي القيامة ، وعطف هذا الكلام الجديد على ما قبله بحرف الفاء للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها ، لأنه كالنتيجة لتلك الدلالة السابقة . وسَمّى صيحة القيامة بالصاخة ليصور هولها وشدتها ، وأنها تصخ الآذان لهولها ، أي تصمها .

قال ابن عباس : « الصاخة » اسم من أسماء يوم القيامة .

« يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىءٍ منهم يومئذٍ شأن يغنيه » :

فقد بلغ من هول ذلك اليوم أن يرى الإنسان أحبته الذين كان يلوذ بهم في الدنيا فيفر منهم ، ويبتعد عنهم ، لأن الهول عظيم والخطب جليل ، قال قتادة : « الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب ، من هول ذلك اليوم » .

« لكل امرىءٍ منهم يومئذٍ شأن يغنيه » :

أي إن ذلك الفرار والهرب بسبب ما حل بكل واحد من الأهوال والبلاء .

وعبرت الآية بقوله : « شأنٌ يغنيه » : أي شغل شاغل • وخطبٌ هائل ، يكفيه في الاهتمام به •

وفي الصحيحين والمسند عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة حفاةً عُراةً غُرْلاً • قالت عائشة : يارسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم الى بعض ؟! •• قال : ياعائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » •

« وجوهٌ يومئذٍ مسفرة ضاحكةٌ مستبشرة » :

لما ذكر الله تعالى حال يوم القيامة في الهول بين أن المكلفين فيه على قسمين : منهم السعداء ومنهم الأشقياء •

وقد وصف السعداء في هاتين الآيتين فقال : « وجوهٌ يومئذٍ مسفرة » :

أي مشرقة مضيئة متهللة ، وهذه وجوه المؤمنين •

« ضاحكةٌ مستبشرة » :

أي مسرورة فرحة بما أتاها الله من الكرامة لما قدمت في الدنيا من الصالحات •

« ووجوهٌ يومئذٍ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة » :

هذا وصف الأشقياء بأن وجوههم عليها غبار وكدرة « ترهقها » تعلوها وتغشاها قترة السواد والظلمة ، وهذا غاية الشناعة والقبح •

« أولئك هم الكفرة الفجرة » :

أي الكفرة قلوبهم ، الفجرة الفاسقون في أعمالهم ، فقد جمعوا أصناف الآثام والأجرام القلبية والعملية •

وقد زادت المقابلة بين القسمين قوة الصورة ، والرغبة في الطاعة والانقياد •

الاستنباط :

١ ـ وجوب الحذر من أهوال القيامة ، وأخذ الأهبة له بالعمل الصالح •

٢ ـ لاينفع الانسان يوم القيامة أهل ولا أحباب ولا مال ، الا عمله الصالح•

٣ ـ ان التفكر في الآخرة علاج ناجح للآفات النفسية ، والأزمات النفسية ، لذلك عنيت السورة بها ، وهي تعرض للمتكبرين بدلائل الحشر وأهوال القيامة ، لكي تعالج هذا الداء الذي طالما وقف حاجزاً للانسان عن الانقياد للحق ولدين الله تعالى •

* * *

ترتيبها ٨٥ — سُورَةُ البُرُوجِ — آياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا
قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا
مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ
رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾
ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ
﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ
وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

تفسير سورة البروج

تعريف بالسورة :

سورة البروج مكية بلا خلاف كما لا خلاف في كونها اثنتين وعشرين آية [1] وتهدف السورة الى وعظ صناديد قريش لما يلحقونه من الاضطهاد بالمؤمنين وتثبيت المؤمنين أمام هذه الحملة ، وذلك من خلال هذه القصة التي أشارت اليها السورة : قصة أصحاب الأخدود ، ثم بالتعقيب عليها بالوعد والوعيد ، وبيان عظمة القرآن المجيد •

مناسبة السورة لما قبلها :

١ ــ اشتمال سورة البروج والانشقاق على تصوير القيامة ، وعقاب الكافرين وثواب المؤمنين •

٢ ــ ختمت سورة الانشقاق بقوله : « فبشرهم بعذاب أليم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » • وافتتحت سورة البروج بوعيد الذين فتنوا المؤمنين وكأنها تفصيل لسبب الوعيد السابق في آخر الانشقاق • بكفرهم وفتنتهم المؤمنين •

---

(١) الالوسي •

غضب الله على المضطهدين للمؤمنين

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا
قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟
مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

سورة البروج « ١ ــ ٩ »

المفردات :

البروج : أصل مادة هذه الكلمة « برج » بمعنى الظهور . وقد أطلقت على عدة معانٍ ؛ الأشهر أن البروج : منازل الشمس والقمر الاثنا عشر .

اليوم الموعود : يوم القيامة باتفاق المفسرين .

وشاهد ومشهود : اختلف في المراد بهذه العبارة اختلافاً كثيراً جداً بسبب إطلاقها واحتمالها اللغوي ، فيمكن أن تكون من الشهود بمعنى الحضور ، وأن

تكون من الشاهد الذي تثبت به الدعاوى والحقوق .

والظاهر أنه بمعنى الحضور ؛ لأنه لو كان المراد الشاهد الذي تثبت به الدعاوى لقال وشاهد ومشهود به أو مشهود عليه .

والظاهر أن المراد بالآية عموم كل يوم عظيم من أيام الدنيا ، ويوم القيامة لأنه عبر عنه بصيغة النكرة [1] .

لكنا نقول : قد يكون المراد يوم القيامة ، والتنكير لغاية الهول الذي لايقادر قدره .

الأخدود : الشق في الأرض يحفر مستطيلاً ؛ وجمعه الأخاديد . ومصدره الخد وهو الشق .

وما نقموا : أي ما عابوا ولا أنكروا .

الاعراب :

والسماء : قسم ، وما بعده عطف عليه .

قتل أصحاب الأخدود : جواب القسم بإضمار اللام ، والأصل : لقتل . حذفت اللام للطول ، وقيل : التقدير لقد قتل ، والجملة خبرية .

النار : بدل اشتمال من الأخدود ، فإن الأخدود مشتمل على النار .

إذ : ظرف متعلق بقوله « قتل » . أي لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها .

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ج ٣١ ص ١٣٣ و ١١٥ .

المعنى والاسلوب :

« والسماء ذات البروج • واليوم الموعود » :

يقسم الله تعالى بالسماء وبروجها ، وهي منازل الشمس والقمر وهي اثنا عشر برجاً ، ويقسم باليوم الموعود ، أي الموعود به ، وهو يوم القيامة باتفاق المفسرين ، يوم ميعاد الخلائق أجمعين •

« وشاهد ومشهود » :

أقسم بهما ، أي : ومن يشهد ذلك اليوم ويحضره من الخلائق المبعوثين فيه ، وما يعرض فيه من الأهوال والعجائب •

« قتل أصحاب الاخدود » :

لُعِنَ أصحاب الأخدود الذين قذفوا المؤمنين في النار المؤججة في الشق العظيم في الأرض لكي يقهروهم على العودة عن توحيد الله وعبادته •

« النار ذات الوقود » :

هذا بيان الأخدود فسرته الآية بما اشتمل عليه من النار ، وقد وصفت الآية هذه النار بغاية العظم وارتفاع اللهب •

« إذ هم عليها قعود • وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » :

تبين هذه الآيات السبب الذي حلت به اللعنة على هؤلاء الكفرة ، وهو زيادة إسرافهم في الطغيان وتعذيب المؤمنين بالنار ، حيث بلغ من قسوة قلوبهم أن تحلقوا حول النار قعوداً ينظرون شيّ الأجساد الآدمية حية في النار الحامية ، بل ويشهد [1] بعضهم لبعض عند الملك بأن أحداً لم يقصر في هذا العمل الفظيع •

(١) انظر تفسير هذه الآية في أبي السعود ج ٥ ص ٢٥٢ والآلوسي ج ٣٠ ص ٩٠ ط المنيرية . وغيرهما •

ثم بينت الآيات مزيد فظاعة عمل هؤلاء المجرمين ببيان سبب فعلتهم، الذي فعله المؤمنون، وإذا هو شيء لا يوجب عيباً ولا نكراً:

« وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد »:

أي وما كان للمؤمنين من ذنب يعيبونهم به وينكرونه عليهم الا ايمانهم بالله العزيز .

« الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيءٍ شهيد »:

أي أنه سبحانه وتعالى المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ولا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض ولا يخفى عليه خافية .

وقوله تعالى: « والله على كل شيءٍ شهيد » وعد للمؤمنين، ووعيد شديد لمعذبيهم، فإن علمه تعالى بجميع الأشياء التي من جملتها أعمال الفريقين يستدعي توفير جزاء كل منهما حتماً (١) .

البلاغة:

قوله تعالى « قتل أصحاب الأخدود »: عبرت الآية بالقتل عن أشد اللعن وهو الطرد من رحمة الله، لأن حقيقة الدعاء لا تأتي من الله تعالى فأريد منه لازمه وهو السخط والطرد عن رحمته جل وعلا، على سبيل الكناية .

قوله: « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله »: هذا الاستثناء تأكيد لبراءة المؤمنين مما يعاب عليهم، وهو اسلوب المدح بما يشبه الذم .

---

(١) أبو السعود ج ٥ ص ٢٥٢ . وكذا ذكر الآلوسي ج ٣٠ ص ٩٠ .

قصة الآيات :

اخرج مسلم في صحيحه والترمذي وأحمد [1] عن صهيب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فذكر تفصيل قصة أصحاب الأخدود ، بما يفيد في تفسير الآيات . ويلقي عظات وعبراً ، نلخّصها بما يلي :

« كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فدفع اليه غلاما فكان يعلمه السحر . وكان بين الساحر وبين الملك راهب ، فأتى الغلام على الراهب ، فسمع من كلامه ، فأعجبه نحوه وكلامه ، ....

قال : فبينما هو كذلك اذ أتى ذات يوم على دابة فظيعة عظيمة ، قد حبست الناس ، فلا يستطيعون أن يجوزوا . فقال : اليوم أعلمُ أمرُ الراهبِ أحبُّ الى الله أم أمرُ الساحر ؟ . قال فأخذ حجراً ، فقال : اللهم ان كان أمرُ الراهب أحبَّ اليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ، ورماها فقتلها ومضى الناس ، .....

فكان الغلام يُبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء يشفيهم .... فبعث اليه [الملك] فقال : أي بني ، بلغ من سحرك أن تُبْرىء الأكمَه والأبرص وهذه الأدواء ؟ . فقال : ما أشفي أنا أحداً ، انما يشفي الله عز وجل . قال : أنا ؟ قال : لا . قال : أوَلك ربٌّ غيري ؟! . قال : ربي وربك الله ...

.... وقال للغلام : ارجع عن دينك ، فأبى ، فبعث به مع نفر الى جبَل ... فلما علوا به الجبل قال : اللهم اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل ، فدُهْدِهوا [2] أجمعون ...

---

(١) صحيح مسلم ج ٨ ص ٢٢٩ ـ ٢٣١ والترمذي ج ٥ ص ٤٣٧ ـ ٤٣٩ والمسند ح ٦ ١٦ ـ ١٨ .

(٢) أي تدحرجوا وماتوا .

فبعث به مع نفر في قُرقور (٢) ، .... فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت . فغرقوا أجمعون ....

ثم قال للملك : انك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، فان أنت فعلت ما آمرك به قتلتني ، وإلا فانك لاتستطيع قتلي . قال : وما هو ؟ . قال تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جِذع ، وتأخذ سهما من كِنانتي ، ثم قل : « باسم الله رب الغلام » . فانك اذا فعلتَ ذلك قتلتني .

ففعل ، ومات [الغلام] . فقال الناس آمنا برب الغلام .

فأمر بأفواه السِّكَكِ فَخُدَّت فيها الأخاديد ، وأُضرِمَت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه ، وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادَوْن فيها ويتدافعون . فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكأنها تقاعست أن تقع في النـــار . فقال الصبي : اصبري يا أماه فانك على الحق » .

هذا اختصار الرواية التي عند هؤلاء الأئمة المحدثين . وفي رواية ابن اسحاق، تفصيل لإجْمالِ خاتمة روايتهم ، وفيها أيضاً تسمية الغلام : عبد الله بن الثامر .

قال ابن اسحاق في خاتمة القصة في روايته : « فوحّد الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثم ضربه بعصا في يده فشَجّه شَجّةً غير كبيرة فقتله .

وهلك الملك مكانه ، واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم عليه السلام من الانجيل وحكمه . ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران » .

فسار اليهم ذو نواس بجنده ، فدعاهم الى اليهودية ، وخَيَّرهم بين ذلك أو القتل ، فَخَدَّ الأخدود ... الى آخره بنحو سياق مسلم .

---

(١) بقافين مضمومتين :: سفينة صغيرة .

ثم قال ابن اسحاق في روايته : ففي ذي نواس وجنده أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ :

« قُتِلَ أصحاب الأخدود ... » الى قوله : « والله على كل شيء شهيد ». انتهى.

ونحب أن ننبه الى أن هذه القصة انما هي موضوع الآيات ، وليست سبب نزولها ، لأن سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات تتحدث عنه أيام وقوعه ، كما سيأتي في قسم علوم القرآن ، إن شاء الله تعالى.

الاستنباط :

في الآيات قسم من الله تعالى بالسماء ذات البروج ، وفي القرآن كثير ، من القسم بمخلوقات الله تعالى . وهذا خاص" بمقامه عز وجل أن يقسم بما شاء من خلقه ، أما المكلفون فلا يحل لهم القسم بغير الله تعالى .

* * *

ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين

قال الله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ
فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ
رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾
ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

سورة البروج « ١٠ ــ ١٦ »

المفردات :

فتنوا : الفتنة المحنة ، وقال الخليل : الفتن ، الإحراق .

بطش : البطش السطوة والأخذ بالعنف .

الودود : المحب .

الاعراب :

وهو الغفور الودود : هو مبتدأ ، والغفور وما بعده أخبار لهذا المبتدأ .

فعالٌ لما يريد : أعرب الزمخشري « فعالٌ لما يريد» خبراً لمبتدأ محذوف ، أي هو فعالٌ لما يريد .

المعنى والاسلوب :

يعقب القرآن على قصة أصحاب الأخدود بالوعيد الشديد لمن يرتكب جريمة الاضطهاد للمؤمنين فيقول :

إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات بإنزال البلاء والعذاب بهم ليرجعوا عن توحيد الله تعالى ودينه الحق لهم عذاب جهنم ، والظاهر من الآية هو العموم لكل من يعمل هذا العمل ؛ لأن الآية استعملت صيغة العموم « الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات » ، ويدخل في هذا العموم أصحاب القصة دخولاً أولياً .

« فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » :

وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، فجعل من جزائهم خصوص الحريق ، وهو نارٌ أخرى زائدة الإحراق ، لعدم توبتهم وعدم مبالاتهم بما صدر منهم .

ثم أتبعت السورة هذا الوعيد الشديد بالوعد العظيم للمؤمنين :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار » :

وقد فخمت الآية ثواب المؤمنين تفخيماً عظيماً ، وخصوصاً في هذا التذييل « ذلك الفوز الكبير » .

« إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدىء ويعيد » :

أي إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد ، عظيم قوي ، فإنه تعالى ذو القوة المتين ، الذي ما شاء كان كما يشاء ، في مثل لمح البصر أو هو أقرب .

« إنه هو يبدئ ويعيد » :

أي من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ، ثم يعيده كما بدأه ، بلا ممانع ولا مدافع ، ولا دخل لأحد في شيء منهما ، ففيه مزيد تقرير لشدة بطشه عز وجل ، وان ذلك الإمهال لهذا السبب ، وهو الإعادة للجزاء يوم القيامة : لا لأجل الإهمال .

« وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعّال لما يريد » :

فذكر تعالى من صفات كرمه وعظمته خمسة وهي :

الغفور :

أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أي شيء كان .

الودود :

أي المُحِب ، وهذا قول أكثر المفسرين ، والمعنى أنه سبحانه وتعالى المحب كثيراً لمن أطاع .

ذو العرش :

أي صاحب العرش المعظم العالي على جميع الخلائق ، والمراد مالكه أو خالقه . والعرش أعظم المخلوقات ، وهو عالم عظيم جداً .

المجيد :

وذلك على قراءة الرفع صفة لله تعالى ، أي أنه العظيم بذاته عز وجل وصفاته سبحانه .

فعالٌ لما يريد :

قال القفال : « فعال لما يريد » على ما يراه لايتعرض عليه معترض ولا يغالبه غالب .

الاستنباط :

١ ـ فظاعة جناية المضطهدين لأهل الإيمان غاية الفظاعة .

٢ ـ أن باب التوبة مفتوح لكل جانٍ مهما عظمت جنايته ، ولو كانت تعذيب المؤمنين إذا صحت توبته .

٣ ـ حض المؤمنين على الصبر أمام المحن ، والثبات على دينهم ، وألا يتلفظوا بما يرضي الكفرة ، وإن كان قد رخص في حال الشدة القصوى بذلك .

* * *

إحاطة قدرة اللـه

قال تعالى :

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ
﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن
وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

سورة البروج : الآيات « ١٧ ـ ٢٢ »

مناسبة الآيات لما قبلها :

بعد أن ذكر شدة بطشه تعالى بالظلمة والكفرة : قرر بخبر من واقع ذلك ، فقال : « هل أتاك حديث الجنود •• » •

المعنى :

« هل أتاك » المراد من الاستفهام بأنه أتاه خبرهم ، وإهلاكهم الذي لم يرده عنهم أحد • « بل الذين كفروا في تكذيب » :

أي هم في شك وكفر وعناد ، فهم مثل فرعون وثمود في استحقاق العذاب والهلاك ، وهذا الموصول « الذين » جعله كثير من المفسرين لأهل مكة ، لكن ظاهرة

العسوم ، كما اختاره الرازي ، أي إن حال الكفار مستمرة على هذا النهج دائماً ، كما توافينا أخبارهم .

« والله من ورائهم محيط » :

أي باقتداره عليهم ، وأنهم في قبضته ، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ .

« بَلْ هو قرآنٌ مجيد في لوحٍ محفوظ » :

أي أن هذا القرآن عظيم محترم . مصون « في لوح محفوظ » عن التحريف ، والتبديل ، ووصول الشياطين إليه .

البلاغة :

١ ـ استعمال الاستفهام « هل أتاك » بمعنى التقرير ، ليقوى وقع الكلام .

٢ ـ الطباق في « يبدىء ويعيد » .

٣ ـ الكناية في « من ورائهم محيط » . لأن المراد اقتداره عليهم .

الاستنباط :

١ ـ ان عدم تعجيل العقوبة للعصاة الطغاة لايعني إهمالهم ، بل سوف يأخذهم الله ببطشه وانتقامه .

٢ ـ تسلية النبي ﷺ ، وكل من يبلغ عنه ، لتحمل الأذى .

٣ ـ وجوب الرضى بما يتحمل الانسان لأجل الله تعالى ، لأن القرآن مجيد ، لاتبديل فيه ، ولاتبديل ، وقد حكم فيه بسعادة قوم وشقاوة قوم ، وتأذي قوم من قوم فوجب الرضى بذلك ، والاستعداد لدفعه .

٤ ــ إثبات اللوح المحفوظ : وهو عالم علوي عظيم من مظاهر علم الله ، فيه تسجيل ما هو كائن الى يوم القيامة .

٥ ــ اثبات نزول القرآن الى اللوح المحفوظ ، خلافا لمن غفل عن ذلك من الكاتبين في علوم القرآن .

٦ ــ بيان غاية عظمة القرآن وشرفه ، لتسطيره الأول في الملأ الأعلى في اللوح المحفوظ . والله سبحانه أعلم .

تم تفسير سورة البروج

وبه يتم القسم الأول

ولله الحمد

★ ★ ★

القسم الثاني

علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو القسم الثاني ، وهو « علوم القرآن » ندرس فيه الموضوعات التالية :

١ ـ التعريف العام بعلوم القرآن .

٢ ـ القرآن والوحي وتنزلاته .

٣ ـ نزول القرآن منجماً وأسراره .

٤ ـ أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل .

٥ ـ جمع القرآن الكريم حفظاً في الصدور .

٦ ـ جمع القرآن الكريم تدويناً في السطور .

٧ ـ رسم القرآن الكريم .

٨ ـ ترتيب آيات القرآن وسوره .

٩ ـ أسباب النزول .

١٠ـ المكي والمدني .

١١ـ الأحرف السبعة .

١٢ـ القراءات والقراء .

١٣ـ المحكم والمتشابه .

١٤ـ الناسخ والمنسوخ .

١٥ـ التفسير وأصوله ٠

١٦ـ اعجاز القرآن الكريم ٠

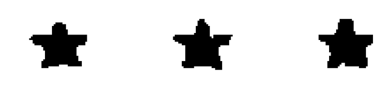
١٧ـ التصوير في القرآن ٠

١٨ـ القصة في القرآن ٠

١٩ـ الكون في القرآن ٠

٢٠ـ حكم ترجمة القرآن ٠

ـ الخاتمة ٠



الفصل الأول

في

التعريف العام بعلوم القرآن

تعريف علوم القرآن :

عبارة « علوم القرآن » بمعناها اللغوي تدل بظاهرها على أنـواع المعـارف المتصلة بالقرآن الكريم أياً كانت صلتها به ، فتشمل : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الرسم العثماني وعلم اعجاز القرآن الكريم وعلم اعراب القرآن وسائر علوم الدين واللغة والبلاغة وغير ذلك من زاوية دراسة القرآن الكريم .

ثم جعل العلماء هذه العبارة : « علوم القرآن » اسماً وعلماً يطلق على فن خاص يختلف عن المدلول السابق ، لأنه يختص بأنه يجمع ضوابط تلك العلوم المتصلـة بالقرآن ، من ناحية كلية اجمالية لا تفصيلية جزئية .

وبناء على ذلك يمكن أن نعرّف علوم القرآن فنقول :

« علوم القرآن في الاصطلاح : هو المباحث الكلية التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله ، وترتيبه وجمعه ، وكتابته وقراءته وتفسيره ، واعجازه ، وناسخه ومنسوخه ، نحو ذلك »[1] .

---

(١) قارن بمناهل العرفان للزرقاني : ج ١ ص ١٦ و ٢٠ .

من أهم المصادر الأساسية في هذا النوع وأشهرها هذان الكتابان :

١ ــ البرهان في علوم القرآن ، للامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ ٠

٢ ــ « الاتقان في علوم القرآن » ، للامام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ ، وهو مستفيد كثيراً من كتاب البرهان ٠

ومن أهم المؤلفات المعاصرة :

١ ــ « مناهل العرفان في علوم القرآن » للعلامة الكبير محمد عبد العظيم الزرقاني ، وهو كتاب حافل واسع المحتوى ، عذب الاسلوب ، يقع في جزئين ٠

٢ ــ « المدخل الى دراسة القرآن الكريم » لفضيلة أستاذنا الدكتور العلامة الشيخ محمد محمد أبو شهبة ٠

ونود أن نؤكد أن دراسة هذا العلم ضرورة لا محيد عنها لكل من أراد تفسير القرآن العزيز ، لأن التفسير الصحيح يتوقف على معرفة ذلك ، بل ان كل مسلم يحتاج للتزود بدراسة من هذا العلم ، لأن بحوث علوم القرآن القيمة تقرر في القلوب حلاوة اليقين بهذا الكتاب ، وتزيد الايمان بكتاب الله تعالى وتعمقه ، وتحصن الدارس بسلاح قوي وحصن منيع يقاوم به شبه الاعداء ، بقوة تغلب كل خصم ، وتقهر كل باغ على حقيقة هذا الكتاب العزيز تصديقاً لقوله عز من قائل : « وإنّه لكِتابٌ عَزيزٌ لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يديهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حَميدٍ » ٠

* * *

الفصل الثاني

القرآن والوحي وتنزلاته

أولاً : القرآن

هذا الاسم « قرآن » في اللغة : على أصح الآراء مصـدر على وزن غفران ، بمعنى القراءة ، ومنه قوله تعالى : « إنّ علينا جَمْعَه وقُرْآنه ، فإذا قرأناه فاتَّبِعْ قُرآنه » .

واصطلاحاً :

« القرآن هو كلام الله المنزل على النبي ﷺ المكتوب في المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ، المعجز ولو بسورة منه » .

وقد اشتمل هذا التعريف على الصفات التالية للقرآن ، وتعتبر في اصطلاح أهل التعاريف قيوداً تشمل المعرّف وتميزه عما عداه وهي :

آ ـ كلام الله المنزل على النبي ﷺ :

وتتضمن هذه الجملة أموراً نذكر منها :

١ ـ ابعاد كل كلام لغير الله تعالى ـ مهما كان عظيماً ـ عن أن يسمى قرآناً .

٢ ـ قوله : « على محمد » احتراز عما أنزل على الأنبياء السابقين .

ب ـ المكتوب في المصاحف :

وهذه مزية للقرآن أنه دُوِّنَ و حُفظ بالكتابة منذ عهد النبي ﷺ وباشرافه واعتنائه الزائد •

ثم لما قام الصحابة بجمع القرآن في المصحف وكتبت المصاحف في عهد عثمان ، أجمع الصحابة على تجريد المصحف من كل ما ليس قرآناً ، وقالوا : جرّدوا المصاحف •

جـ ـ المنقول بالتواتر :

أي أن القرآن قد نقله جمع عظيم غفير لايمكن تواطؤهم على الكذب ولا وقوع الخطأ منهم صدفة ، هذا الجمع الضخم ينقل القرآن عن جمع مثله وهكذا الى النبي ﷺ : وذلك يفيد العلم اليقيني القاطع بأن هذا القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على نبيه ﷺ •

وهذه خصوصية ليست لغير القرآن من كتب السماء ، وهي نقله متواتراً بتواترين : التواتر كتابة . والتواتر حفظاً في الصدور أيضاً •

أما القرآن فقد جعل الله فيه قابلية عجيبة للحفظ ، كما قال تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » • حتى إن أمم العجم تحفظه وهي لاتعرف العربية •

د ـ المتعبد بتلاوته :

أي أن مجرد تلاوة القرآن عبادة يثاب عليها المؤمن ، ولو لم يكن استحضر نية تحصيل الثواب بالتلاوة ، كما أن الصلاة لاتصح الا بتلاوة شيء منه ، وهذا القيد يخرج من اعتبار القرآنية القراءات الشاذة ، لأنا غير متعبدين بها ، وكذا الاحاديث القدسية •

هـ ـ المعجز ولو بسورة منه :

الاعجاز أعظم خصائص القرآن ، حتى لو عرّف القرآن بهذه الصفة « الكلام المعجز » لكفى ذلك لتمييزه والتعريف به .

والقرآن معجز بجملته ، كما أنه معجز بأي سورة منه ، ولو كانت هي أقصر سورة من سوره .

قال تعالى : « قل لئنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأْتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِه ، ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظَهيراً » [1] .

وهذا الاعجاز برهان قاطع على أن القرآن كلام الله تعالى ، وأنه الحق الذي يجب الايمان به واتباعه ، والحذر من مخالفته وعصيانه .

أسماء القرآن :

عرفنا أن لفظة « القرآن » هي أشهر أسماء القرآن الكريم ، بل هي الاسم العلم الدال على هذا الكتاب العزيز ، وللقرآن الكريم أسماء أخرى كثيرة يشير كل منها الى جانب من خصائصه أو فضائله ، أو أهدافه ، وقد عُنِيَ العلماء باحصائها واستقصائها وشرحها ، وأفرد بعضهم ذلك بالتآليف لاحصائها وشرحها .

ومن أشهر أسماء القرآن الكريم :

« الكتاب » : وهذه المادة مأخوذة فيْ أصلها من الكَتْبِ ، أي الجمع ، ومنه الكتيبة للجيش لاجتماعها ، ثم اطلقت على الكتابة ، لجمعها الحروف [1] ، وسمّي القرآن بذلك لأنه يجمع أنواعاً من القصص والآيات والأحكام والأخبار على أوجه

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ٨٨ .

(٢) كما اتفقت عليه المعاجم ، فلا معنى للالتفات لما كتبه بعض المستشرقين من ارجاع هذه الكلمة أو غيرها الى أصل غير عربي من الآرامية أو غيرها ، فذلك زعم لا أرومة له .

مخصوصة ، كما ذكروا [٢] .

إلا أنا نرى حقاً ما قرره المحقق الدكتور دراز [٣] أن في تسمية القرآن بهذين الاسمين :

القرآن والكتاب : « إشارة الى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لافي موضع واحد ، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل ، على هيئته التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالاسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز ، إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث قال : « إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكرَ وإنَّا لهُ لحافِظون » [١] ، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند .

* * *

---

(١) انظر فصل أسماء القرآن في البرهان للزركشي ج ١ ص ٢٧٣ والاتقان ج ١ ص ٥٠ .

(٢) في النبأ العظيم ص ٧ ـ ٩ .

(٣) سورة الحجر . الآية ٩ .

ثانياً : الوحـي

معنى الوحي لغـة :

قال الامام ابن فارس [1] : « الواو والحاء والحرف المعتل : أصل يـدل على إلقاء علم في إخفاء الى غيرك .

ويختص معنى الوحي لغة بتضمنه معنى السرعة ، فالإشـارة السريعة هي التي يقال لها : وحي .

وورد الوحي في القرآن بمعنى الإلهام ، كما في قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا الى أُمِّ موسى أنْ أرْضِعِيه » [2] .

كما ورد بمعنى الوسوسـة : « وإنَّ الشـياطينَ لَيُوحونَ إلى أَوْلِيائِهم لِيُجادِلوكُم » [3] .

أما في الاصطلاح الشرعي :

فالوحي هو اعلام الله تعالى لمن اصطفاه من عباده بطريق خفية سريعة .

مراتب الوحي :

واذا ابتغينا التفصيل لهذا الإجمال عن الوحي ، وتساءلنا عن كيفياته وأحواله

---

(١) معجم مقاييس اللغة ، مادة (وحى) ج ٦ ص ٩٣ وانظر التفصيل في لسان العـرب والقاموس وشرحه وغيرهما .

(٢) سورة القصص ، الآية ٧ .

(٣) سورة الانعام ، الآية ١٢١ .

وآثاره فإن خير مرجع يحقق لنا تلك الأمنية هو صاحب الوحي نفسه ، في نصوص القرآن الصريحة والأحاديث الصحيحة .

كما جاء في الحديث الصحيح : « أولُ ما بُدِىءَ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح .. » .

« حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ... (1) » .

وليست مراتب الوحي مقتصرة على هذين الحالين اللذين عرفناهما من الحديث بل ان له مراتب وكيفيات عدة ذكر القرآن الكريم أصولها في قوله تعالى : « وما كان لِبَشَرٍ أن يكلّمَهُ اللهُ إلا وحياً أو من وراءِ حجابٍ أو يرسلُ رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاءُ إنّه عليٌّ حَكيم » (2) .

وقد بحث العلماء مراتب الوحي واستقصوا أحوالها فيما ورد من وصف الوحي من الكتاب والسنة ، وأوصلوها الى سبع مراتب ينقسم اليها الوحي ويقع بها ، ومنهم من جعلها ثماني مراتب (3) .

---

(1) من حديث طويل أخرجه البخاري في أول جامعه الصحيح . ومسلم في الايمان (باب بدء الوحي ...) ج 1 ص 97 .

(2) سورة الشورى الآية 51 .

(3) انظر في ذلك الروض الانف للسهيلي . وزاد المعاد لابن القيم . والاتقان للسيوطي والمواهب اللدنية للقسطلاني . وشرحه للزرقاني . وغيرها .

المرتبة الاولى : الرؤيا الصادقة ، وذلك كما ورد في حديث عائشة : «أول ما بدىء رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم » ، والوحي في هذه المرتبة إما أن يكون بإلقاء الله تعالى أو بواسطة الملك فهو داخل في الآية لايخرج عنها .

المرتبة الثانية : أن يأتيه الملك فيلقي في رُوعه وقلبه من غير أن يراه ، كما أخرج عن ابن مسعود أنه ﷺ قال : « ان روح القُدُس نَفَثَ في رُوعي : لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ... » .

المرتبة الثالثة : أن يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه فيعي عنه ما يقول : كما في الحديث المشهور من سؤال جبريل النبي ﷺ عن الاسلام والايمان والاحسان والساعة وهو متفق عليه مشهور جداً .

المرتبة الرابعة : أن يأتيه الملك على حاله الملكية ويوحي اليه وفي هذه المرتبة يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس ، وكان ذلك أشد الوحي عليه ﷺ .

المرتبة الخامسة : أن يأتيه الملك جبريل ويظهر له في صورته الملكية العظيمة التي خلق عليها . فيوحي إليه ماشاء الله أن يوحيه . وهذا وقع له ﷺ مرتين : إحداهما في الأرض ، والثانية في السماء ليلة المعراج عند سِدْرَةِ المنتهى ، كما قال تعالى في سورة النجم (١) : « ولقد رآه نزله أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنّة المأوى إذ يغشى السدرة مايغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربّه الكبرى » .

المرتبة السادسة : كلام الله تعالى للنبي من وراء حجاب ، كما وقع للنبي ﷺ ليلة المعراج بعد أن استقرت فريضة الصلوات على الخمس فنودي : «أحكمت فريضتي وخففت على عبادي » ، وكما وقع لموسى عليه السلام : « وكلّم الله موسى تكليما » .

---

(١) الآيات : ١٣ ــ ١٨ .

المرتبة السابعة : كلام الله تعالى للنبي وحياً بلا واسطة ملك ولا حجاب : كما أوحاه الى النبي ﷺ ليلة المعراج وهو فوق السموات من فرض الصلوات ومضاعفة الحسنات الحسنة بعشر أمثالها ، وغير ذلك ، وهي مرتبة داخلة في قوله : « ان يكلمه الله إلا وحياً » أي إعلاماً خفياً .

لكن بعضهم استشكل ما وردت به الأحاديث في هذه المرتبة وقال به أكثر العلماء أنه ﷺ رأى ربه عز وجل ليلة المعراج كيف يتفق مع قوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب » وليس ههنا حجاب ؟ .

إلا أن هذا الاشكال في الحقيقة غير وارد هنا إذا ما علمنا أن الوحي الالهي في هذه المرتبة لايشبه خطاب الخلق بل هو داخل في قوله إلا وحياً ، لأن الوحي إعلام في خفاء ، وقد أبان الامام المفسر البيضاوي عن ذلك في تفسيره لهذه الآية حيث قال يفسر إلا وحياً : « كلاماً خفياً يدرك بسرعة ، لأنه تمثيل ، ليس في ذاته مركباً من حروف مقطعة يتوقف على تموجات متعاقبة » ، فأزاح بذلك شبهة خروج هذه المرتبة عن حد الآية الكريمة .

مظاهر الوحي :

والوحي في أي مرتبة من مراتبه أمر عظيم يقتضي من الانسان أن يتجاوز حدود المادة وعالم الشهادة ليتصل بالملائكة وعالم الغيب ، وذلك يقتضي من صاحبه استعداداً يهيئه الله تعالى في أولئك الأخيار الذين اصطفاهم من خلقه لهذه المنزلة ، وكثيراً ماكان يحدث للنبي ﷺ مشقة شديدة في التلقي من الملك لأن الوحي تلق من عالم الغيب ، قالت عائشة رضي الله عنها : ان الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ ، فيفصمُ عني وقد وعيتُ عنه ما قال ، وأحياناً يَتَمَثَّلُ لي المَلَكُ رَجُلا فَيُكَلِّمُني فأعي مايقول ».قالت عائشة رضي

الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوَحْيُ في اليومِ الشديد البرد فيَفْصِمُ عنه وإنَّ جبينَه ليتفصد عرقاً » (١) .

ومن آثار الوحي ومظاهره على النبي ﷺ ما وردت به هذه الأحاديث :

١ ـ ما ذكر في حديث السيدة عائشة الذي رويناه سابقاً ، وأخرج البخاري وغيره عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « لاتحرك به لسانك لتعجل به » ، قال كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان ممّا يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما . وقال سعيد أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله عزّ وجلّ : لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، قال جمعه لك صدرك وتقرأه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، قال فاستمع له وأنصت ثم إنَّ علينا بيانه ، ثم إن علينا أن تقرأه . فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع . فاذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما كان قرأ » (١) .

٢ ـ انه ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي سمع عند وجهه دويٌّ كدويِّ النحل .

٣ ـ أنه ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي ثقل جسمه حتى يكاد يرضّ فخذه فخذ الجالس الى جنبه .

٤ ـ انه ﷺ اذا نزل عليه الوحي بركت به راحلته .

★ ★ ★

---

(١) البخاري في أول صحيحه .

(٢) أول صحيح البخاري ، باب بدء الوحي .

الرد على منكري الوحي

وقد أثار أعداء الانبياء والكافرون ببعثة الرسل الشبهات حول ثبوت الوحي من الله تعالى لهؤلاء الخيرة المصطفين من عباده ، وتعللوا في انكارهم بتعللات مختلفة . بدأها أوائلهم في العصور السالفة الغابرة وجددها أواخرهم في العصور الخالفة الحاضرة .

ويتلخص أهم ما قالوه في دعويين سبق اليهما الكفرة المشركون من قبل ، فزعموا أن النبي ﷺ مجنون ، أو أنه مصاب بمرض عصبي ، وزعموا أنه يأتيه رئيّ من الجن يلقي اليه هذا القرآن ، ولما كان منكروا النبوة في هذا العصر ينكرون الجن فقد صاغوا شبهتهم باسم « الوحي النفسي » .

ولا شك أن دعوى المرض العصبي كذب واضح يدل على الجهل الفاضح بشخص محمد ﷺ وبالقرآن الكريم ، بل يدين قائله بأنه بلغ به العناد والتجني على الحقيقة مبلغاً فقد به توازنه العقلي ، فالتاريخ يشهد بأدلته القاطعة للنبي ﷺ أنه كان أعظم الناس خلقاً ، وأوسعهم أفقاً ، وأشجعهم قلباً ، وأسخاهم يداً ، لاتصمد أمامه معضلة ، ولا يتعقد أمامه موقف إلا واجهه بأحسن الحلول وأعلاها وأفضلها ، وأنه كان أفصح الناس لساناً وأعذبهم بياناً ، مما يشهد بأنه ﷺ ، أكمل العالم عقلاً وتفكيرا ، فقد كان على الضد مما يصمونه به من هذا الافك الذي يشل تفكير صاحبه ، ولا شك أن إفكهم لايتفق بحال مع ماهو معروف عن النبي ﷺ من أنه كان أمة وحده في علوّ أخلاقه وثباته وحلمه ، وعقله ورباطة جأشه وسلامة جسمه وقوة بنائه ، ولهذا ردّ القرآن على هؤلاء بأنهم هم الذين فقدوا رشدهم :

« فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون » .

وأما دعوى (الوحي النفسي) فقد وجدت لدى المنكرين ومثيري الشبهات مرتعاً خصيباً ولا سيما اليهود من المستشرقين (١) لما فيها من التلبيس الخبيث والمكر في الدس والافتراء الذي يضفي على هذه الفرية مسحة كاذبة من دعوى البحث العلمي العصري .

وإن الثابت المقرر من مظاهر الوحي وآثاره ليثبت بطلان هذه الدعوى وكذبها ، من وجوه كثيرة جداً ، نذكر منها :

١ ـ اعجاز القرآن ، وهو دليل ظاهر ، غني عن الشرح والبيان .

٢ ـ إن حادث الوحي يثبت بما لايدع مجالاً للشك أنه آتٍ من ذات مستقلة خارجة عن ذات النبي ﷺ ، وذلك واضح في حديث بدء الوحي في غار حراء ، حيث ان الملك جاء الى النبي ﷺ فجأة كما في الحديث الصحيح المتفق عليه : « فجاءه الملك فقال اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ....» الحديث .

٣ ـ ان الوحي كان ينزل على النبي ﷺ غير مرتبط بإرادته أو رغبته ، ولا بتفكيره أو بحثه لدى وقوع المهمات ، فربما كان في بيته يأخذ شيئاً من الراحة فينهض والبشر على محياه وقد نزلت سورة ، كما ثبت الخبر في نزول سورة الكوثر كما أخرج ذلك مسلم في صحيحه ، ومن القرآن ما تنزل في هزيع أخير من الليل، كآية التوبة على الثلاثة الذين خلفوا ، وآية « والله يعصمك من الناس » وكان النبي ﷺ في خيمته والحرس حوله ، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من الخيمة فقال : « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله تعالى » (١) ولهذا كثرت أقسام القرآن بحسب أوقات نزوله ، فمنه السفري والحضري ، ومنه الليلي والنهاري ، ومنه ما نزل مشيعاً ، ومنه ... ، ومنه ، مما فصله علماؤنا في مصادر علوم القرآن .

---

(١) مثل جولد زيهر .

(٢) البرهان ج ١ ص ١٩٨ .

٤ ــ ان جميع معارف الانسان في عصر نزول القرآن ــ لامعارف النبي ﷺ ومعارف بيئته ــ ومعارف عصور لاحقة لاتمثل شيئاً من شمول المعارف القرآنية وتنوعها وعمقها ، فضلاً عما في معارف القرآن من تصحيح تلك المعارف وتقويم عوجها من جذورها ، حتى ما كان منها متعلقاً بما هو سابق لعصر نزول القرآن ، فليت شعري إن لم يكن هذا وحياً ممن يعلم السر في السموات والأض فأي شيء يكون »[1] .

* * *

(١) باختصار وتصرف عن كتاب « الظاهرة القرآنية » تأليف مالك بن نبي رحمه الله ، وليرجع الى هذا الكتاب ففيه فوائد هامة . وانظر ما ياتي في الاعجاز العلمي وفي بحث « الكون في القرآن » .

الفصل الثالث

في

نزول القرآن منجماً

لقد حدثنا القرآن عن نزوله في مناسبات كثيرة يدور قطب البحث هنا على هذه الجمل منها : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان » .

« إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين » .

« إنا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القد ليلة القدر خير من ألف شهر » . . « بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ » .

وظاهر الآية الأولى يستدعي البحث ، لما هو معلوم عند الجميع أن القرآن لم ينزل جملة واحدة ، إنما نزل مفرقاً ، وقد تساءل عن ذلك الدارسون منذ العصر الأول كما رُوي :

عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال : وقع في قلبي الشك من قوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » وقوله : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وقد أنزل في شوّال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وشهر ربيع ، فقال ابن عباس : إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر ، وفي ليلة مباركة جملة واحدة ، ثمّ على مواقع النجوم ترتيلا في الشهور والأيام » ، رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه (١) .

---

(١) وهذا لفظ ابن مردويه ، انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣١٠ والاتقان ج ١ ص ٤٠ وفيه تصحيف .

وقد تضافرت الأسانيد الصحيحة الى ابن عباس تثبت قوله بنزول القرآن جملة واحدة الى بيت العزة في السماء الدنيا ليلة القدر في رمضان ، وبهذا قال أكثر العلماء .

وبذلك يكون للقرآن ثلاث تنزلات :

١ ـ التنزّل الأول : نزوله الى اللوح المحفوظ ، كما نصت الآية : : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » واللوح المحفوظ عالم علوي عظيم جعله الله تعالى من أعظم المظاهر الدالة على عظمة علمه تعالى وحكمته وقدرته النافذة في الأكوان ، ويختص اللوح المحفوظ بكونه مشتملا على تسجيل ما قضى الله تعالى وقدّر ماكان وما سيكون [1] .

٢ ـ التنزيل الثاني : النزول الى بيت العزّة في السماء الدنا جملة واحدة ،

٣ ـ التنزيل الثالث : النزول على قلب النبي الكريم ﷺ منجماً في ثلاث وعشرين سنة كما سبق عن ابن عباس : « على مواقع النجوم ترتيلا في الشهور والأيام » .

ويرى كثير من العلماء تفسير آيات نزول القرآن في ليلة القدر وشهر رمضان على غير ما ذكرناه ، وأن المراد ابتدأنا انزاله في شهر رمضان ، وفي ليلة القدر ، كما هو مستعمل كثيراً في اللغة اطلاق « فعل » على ابتداء الفعل ، وكأن هذا الفريق يرى حديث ابن عباس تفسيراً من اجتهاده ورأيه ، لأنه لم يأت مرفوعاً الى النبي ﷺ في شيء من طرقه ولا ورد عن أحد من الصحابة غير ابن عباس ، ولكن هذا التأويل غير ظاهر .

وقد يتساءل القارىء عن الحكمة من انزال القرآن جملة واحدة ثم انزاله منجماً بعد ذلك .

---

(١) قارن بـ « مباحث في علوم القرآن » ص ٥١ حيث جعل هذا النزول ثابتاً بالأسانيد الصحيحة . وإنما هو ثابت بالقرآن .

والحق أنه لم يرد لنا نص صريح يجلو لنا سر ذلك . لكن الباحث يتلمس باجتهاده حكمه لذلك وسراً ، ومن ذلك ما يلي :

١ ـ تفخيم أمر القرآن وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم » [١] .

٢ ـ سرّ يرجع لاعجاز القرآن ، في ترتيب القرآن في النزول ، ثم ترتيبه في المصحف ، حيث ينظره جبريل في سماء الدنيا وهو على ترتيب المصحف ، ثم يتنزل بآياته تباعاً على حسب الحوادث فتوضع كل آية في مكانها في المصحف وفق الترتيب في اللوح المحفوظ [٢] .

* * *

(١) البرهان ج ١ ص ٢٣٠ والاتقان : ١ : ٤٠ ـ ٤١ وصرح بعزو هذا الى المرشد الوجيز لأبي شامة .

(٢) باختصار وتصرف عل كتاب الوحدة الموضوعية : ٧٤ .

نزول القرآن منجماً على النبي

صلى الله عليه وسلم

لقد صرحت الآيات القاطعة بأن القرآن الكريم كلام الله المنزل من عند الله تعالى بلفظه ومعناه على قلب النبي ﷺ ، لاتصرف لأحد في شيء منه ولا في حرف من حروفه •

قال تعالى : « وإنك لتلقّى القرآن من لدن حكيم عليم » •

وقال : « كتابٌ أحْكِمَتْ آياته ثم فُصِّلَتْ من لدُنْ حَكيم خبير » •

نزول القرآن منجماً :

لكن تنزيل القرآن على النبي ﷺ لم يكن دفعة واحدة ، كما نزلت الكتب السابقة على الانبياء دفعة واحدة ، بل اختص الله تعالى هذا القرآن بأن أنزله منجماً مفرقاً ، بحسب المناسبات ، واقتضاء الحال •

وقد استمر نزول القرآن ثلاثاً وعشرين سنة ، منذ بدء الوحي الى النبي ﷺ وهو في سن الاربعين ، الى أن لحق بالرفيق الأعلى في الثالثة والستين من عمره الشريف ﷺ كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة •

الحِكَم من نزول القرآن منجماً :

هكذا اختص القرآن الكريم من بين الكتب السماوية بأنه نزل مفرقاً على نجوم كثيرة كما ذكرنا ، وقد أثار ذلك أعداء القرآن من المشركين واليهود وغيرهم ، فتساءلوا لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ، كما نزلت الكتب التي قبله ؟ •

وهذا سؤال تولّى الله تعالى الاجابة عنه في موضعين من قرآنه :

قال تعالى : « وقالَ الذينَ كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً كذلك لِنُثَبِّتَ به فؤادَكَ ورتّلْناه ترْتيلا • ولا يأْتونَك بِمَثَلٍ إلا جِئْناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيرا » (١) •

وقال أيضاً : « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلا »(٢)•

فبيّن القرآن حِكَماً وأَسْراراً غَفَلَ عنها المتطفلون باقتراحهم ، اقتضت نزول القرآن مفرقاً ، وبالنظر الى عبارات الآيات القرآنية نستطيع عرضها من خلال أربعة جوانب ، يستدل عليها من الآيات السابقة :

أولا ـ تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتقوية قلبه :

كما قال تعالى : « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ به فؤادَكَ » •

فقد بُعِثَ الرسول ﷺ في قوم جفاة شديدة عداوتهم ، كما قال تعالى : « وتنذر بـه قوماً لُدّا » • وكانوا لايكادون ينتهون من حَمْلة أو مكيدة حتى يشرعوا في تدبير أخرى مثلها أو أشد أو أمرّ ، فكانت تنزلات القرآن بين الفينة والاخرى تواسيه وتسليه ، وتشدّ أزره وعزيمته على تحمل الشدائد والمكاره ، لما فيها أولاً من تجديد الاتصال بالملأ الأعلى كلما ادلهمّ الأمر أو نزل الخطب ، بما يثلج القلب ويشرح الصدر • ثم ما هنالك من التذكير بالأسوة بالأنبياء السابقين وأحوالهم كما قال تعالى : « وكُلّاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ••• » •

ويستطيع القارىء تبين هذه الحكمة بسهولة ويسر لدى مراجعته قصص القرآن ، كأن يقوم باستعراض سريع لسورة هود مثلاً ، وما فيها من بيان مواقف

(١) سورة الفرقان الآيتان ٣٢ و٣٣ •

(٢) سورة الاسراء ، الآية ١٠٦ •

الأمم من انبيائهم وتحمل الأنبياء والمؤمنين معهم وصبرهم حتى ينزل الله تعالى نقمته على أعدائهم ، ويكرم المؤمنين بالفوز والنجاة . مما له أثره البالغ في تثبيت المؤمنين وزلزلة قلوب الكافرين لتكرار ذلك في كل موقف .

ثانياً : مواجهة ما يطرأ من امور أو حوادث تمس الدعوة :

كما قال تعالى : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » . وهذه حكمة جليلة لها أثرها البالغ في نجاح الدعوة . لمواجهة الوحي نفسه للطوارىء والملمات . ومن أهم ذلك ما يثيره المبطلون من الاعتراضات أو الشبهات .

هذا أبيّ بن خلف من رؤساء الشرك جاء الى النبي ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفتته ويذريه في الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : نعم : يميتك الله تعالى . ثم يبعثك . ثم يحشرك الى النار : ونزلت هذه الآيات من آخر سورة يس (١) :

« أولم يرَ الانسانُ أنّا خلقناه من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مُبين . وضرب لنا مَثَلاً ونَسيَ خَلْقَهُ قال مَنْ يُحْيِي العظامَ وهي رَميم . قُلْ يُحييها الذي أنشأها أولَ مَرّةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليم . الذي جَعَلَ لكُمْ مِنَ الشَجَرِ الأخْضَرِ ناراً فإذا أنتم منه توقدون ... » .

كذلك كانوا يلقون عليه أسئلة اختبار للتثبت من نبوته . كما روي في سبب نزول سورة الكهف ان قريشاً سألت اليهود في المدينة عن النبي ﷺ ، فقالت لهم أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث : فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ... فنزلت في الاجابة عن الأسئلة الثلاثة سورة الكهف بشأن الفتية أصحاب الكهف وبقصة ذي

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٩ وفي رواية أن العاص بن وائل فعل ذلك وصححه الحاكم كما في لباب النقول ص ٦٠٧ ولا مانع من أن تكون الواقعة تعددت .

القرنين ، ونزلت آية الاسراء « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً » (١) .

وكان المسلمون كذلك يسالون عما يهمهم من أمر دينهم ، كالأسئلة عن النفقه « يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » وعن الأهلة « ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » ، والحيض « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ... » .

ولا شك أن الاسئلة لم تكن في وقت واحد بل كانت في أوقات متفرقة مختلفة فكان لابد من نزول القرآن منجماً .

ويدخل في هذا الجانب متابعة الوقائع والأحداث في وقتها ، فينزل الوحي بشأنها يبين التوجيه الالهي كما في غزوة بدر ومسألة الانفال ، ومصيبة المسلمين يوم أحد ، نزول القرآن بالدروس والعبر التي نجعت فيهم مدى حياتهم مع تسلية أحزانهم ومواساتهم .

أو ينزل القرآن ببيان الحكم الالهي كما في آيات الزنا والظهار ، والعدة والأيمان ... فكان لا بد من أجل ذلك أن ينزل القرآن منجماً :

ثالثاً ـ تعهد هذه الأمة :

وذلك لصياغتها على النهج الاسلامي القرآني علماً وعملاً ، فكرا واعتقاداً وسلوكاً ، تخلقاً وعرفاً . كما قال تعالى : « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » .

١ ـ ومن مظاهر هذا الجانب أنهم كانوا قوماً أميين لايحسنون القراءة والكتابة فكانت الذاكرة عمدتهم الرئيسية ، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ولباب النقول ص ٤٩١ الى ٤٩٣ .

عن حفظه : فأنزل الله قرآنه مفرقاً ليقرأه الرسول ﷺ عليهم على تمهل فيسهل عليهم حفظه ويتيسر فهمه ودرسه كذلك •

٢ ـ ان الأمة العربية التي خوطبت بالقرآن أولاً قبل سائر الأمم كانت لها عقائد راسخة وعادات موروثة واخلاق مأثورة عن أسلافهم يتباهون بها ويتفاخرون ، ويتبارون في التمسك بها ويتسابقون ، على عنْجَهِيّه لم تعرفها أمة غيرهم اذ ذاك •

لهذا سلك القرآن الكريم معهم مسلك التربية الحكيمة ، وهو مسلك التدرج في التشريع من حكم الى حكم • والتأني في نقلهم من حال الى حال : ومن خلق الى خلق ، وهكذا بلغ الغاية في تخليهم عن عقائدهم الباطلة ، وعاداتهم المسترذلة ، وسما بهم الى عقائد القرآن واخلاقه وعباراته وأحكامه ، ونظامه الشامل •

وهكذا كانت تنزل الفرائض : تنزل الفريضة حتى اذا تمكنت في النفوس نزلت الاخرى وكذلك المحرمات ، بل ان التدرج في أحيان كثيرة كان يقع في الحكم الواحد ، مثل فرائض النفقات والجهاد ، وحقوق المرأة والميراث وتحريم الخمر حتى أثمرت تلك التربية الربانية « خير أمة أخرجت للناس » •

* * *

الفصل الرابع

في

أول مانزل وآخر ما نزل من القرآن

أولاً : أول ما نزل من القرآن الكريم

إن أول ما نزل من القرآن الكريم هو صدر سورة العلق : « اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم » •

وذلك كما ثبت فيحديث السيدة عائشة السابق الذيأخرجه البخاري ومسلم•

وليس بخافٍ ما في هذا الافتتاح لبدء الوحي بـ « اقرأ باسم ربّك ••• » من الحكمة الجليلة حتى ان الخطباء والكتاب والأدباء لايَمَلّون من القول فيها ، ومن أن يرددوه في كل مناسبة تقال عن العلم وعن الحضارة ، وعن الثقافة وعن القرآن وعن الاسلام ، وعن أثر القرآن في تحويل العالم ، ولا سيما اذا قارنّا ذلك بما افتتح به كتاب آخر لدى الأمم الأخرى (١) •

---

(١) نلفت النظر هنا للعبارة البليغة التي عبّر بها الاستاذ مالك بن نبي رحمه الله في كتابه إنتاج المستشرقين ص ٣٢ فليرجع اليه •

ثانياً : آخر ما نزل من القرآن الكريم

أقوى الآراء وأرجحها في آخر ما نزل من القرآن مطلقاً أنه قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون » .

ثبت ذلك من طرق عن عبد الله بن عباس ، وروي عن أبي سعيد أيضاً .

وقد ورد أنه ﷺ مكث بعدها تسع ليال .

ولا يخفى عظم موقع الآية من الآيات التي سبقتها وعظم الحكمة في اختتام وحي القرآن بها ، فإن تأثير المال على الانسان عظيم حتى قالوا : المال شقيق الروح ، والآخرة أعظم دواء لداء الدنيا وأموالها ، وخير مقوّم لعوج النفس فيها ، فكان اختتام الوحي بهذه الآية في غاية المناسبة الجليلة لما قصده تعالى من وعظ عباده وتذكيرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من المال والمتاع وغيرهما ، واتيان الآخرة والرجوع الى الله تعالى ليحاسب خلقه (١) .

* * *

(١) انظر كتابنا « التفسير احكام القرآن » ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤ .

الفصل الخامس

في

جمع القرآن الكريم

هذا موضوع جليل قد عني العلماء بدرسه في كتب علوم القرآن ، بل أفردوه بالدراسة في مؤلفات خاصة متعددة .

ونلخص بحثه فيما يلي :

أولاً جمع القرآن في الصدور

حفظ الرسول ﷺ القرآن :

كان النبي الكريم يتلو هذا القرآن عن ظهر قلب لايفتر لاسيما في الليل ، حتى إنه ليقرأ في الركعة الواحدة العدد من السور الطوال .

ولزيادة التثبيت كان جبريل يعارضه بالقرآن كذلك .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون في شهر رمضان ، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ ، يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن ، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة » أخرجه البخاري [1] .

---

(١) البخاري في فضائل القرآن ٦ ــ ١٨٦ .

حفظ الصحابة للقرآن الكريم :

توفرت للصحابة العوامل التي تجعلهم يحرصون على حفظ القرآن الى أقصى حد . وتجعل حفظ القرآن يتوفر فيهم الى أبعد مدى ، ومن تلك العوامل :

١ ــ قوة ذاكرتهم الفذة التي عرفوا بها واشتهروا . حتى كان الواحد منهم يحفظ القصيدة الطويلة من الشعر بالسمعة الواحدة .

٢ ــ نزول القرآن منجماً كما عرفنا من قبل .

٣ ــ لزوم قراءة شيء من القرآن في الصلاة . وما هنالك من الفضل والثواب في تطويل المنفرد صلاته لنفسه .

٤ ــ وجوب العمل بالقرآن ، فقد كان هو ينبوع عقيدتهم وعبادتهم ، ووعظهم وتذكيرهم ، وقد ترجموه الى سلوك وخلق وحضارة .

٥ ــ حض النبي ﷺ على قراءة القرآن ، والترغيب بما أعد للقارىء من الثواب والأجر العظيم ، والقوم أميون لاسبيل لهم الا الحفظ عن ظهر قلب ، وقد حددت السنة أقصى مدة للمسلم يختم بها القرآن شهرا . أو أربعين يوماً .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول « الم » حرف ولكف « ألف » حرف و « لام » حرف و « ميم » حرف » أخرجه الترمذي .

٦ ــ تعاهد النبي ﷺ الصحابة بتعليم القرآن :

فكان الصحابة تلامذة للنبي ﷺ يتعلمون منه القرآن ، وكان النبي ﷺ شيخهم ، يتعاهدهم بتعليم القرآن ، فإذا أسلم أهل افق أو قبيلة أرسل اليهم من القراء من يعلمهم القرآن،وان كان المسلم في المدينة ضمه الى حلق التعليم في جامعة القرآن النبوية.

وقد وافتنا الوثائق الثابتة الصحيحة بنماذج عن كثرة الحفاظ بين الصحابة ، فهذه حرب المرتدين في اليمامة يقتل فيها سبعون من القراء ، بل ثبت بأوثق الاثباتات أنه ﷺ أرسل في وفادة واحدة لتعليم بعض القبائل سبعين من القراء . وهم الذين غدر بهم المشركون في طريقهم وقتلوهم ، كما في الصحيحين .

وقد أرشد النبي ﷺ أصحابه الى كبار المقرئين ليأخذوا عنهم القرآن ، كما أرشد وذكر مناقب اختص بها واحد منهم أو اثنين بالذكر .

عن مسروق أنه قال : « ذكر عبدُ الله بنُ عمروٍ عبدَ الله بن مسعود فقال : لا أزالُ أحبّه ، سمعت النبي ﷺ يقول : خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبيّ بن كعب » أخرجه البخاري (١) .

وقد تنوعت المواصفات التي سردت فيها قوائم القراء من الصحابة ، فهناك الأئمة الذين اشتهروا أكثر وكانوا مصادر تلقى عنهم المسلمون وهم سبعة : « عثمان ، وعلي ، وأبيّ ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري » (٢) .

وهناك آخرون كثيرون ذكرهم العلماء .

وقد ذكر الامام أبو عبيد القاسم بن سلاّم ــ في كتاب القراءات الذي صنّفه (٣) ــ القراء من أصحاب النبي ﷺ ، فعدّ من المهاجرين : الخلفاء الراشدين الأربعة ، وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وسالماً مولى أبي حذيفة ، وأبا هريرة ، وعبد الله بن السائب ، والعبادلة

---

(١) في فضائل القرآن ج ٦ ص ١٨٦ .

(٢) الاتقان ج ١ ص ٧٢ .

(٣) كما نقل عنه السيوطي في الاتقان ج ١ ص ٧٢ وقال انه صرح بأن بعضهم كمله بعد النبي ﷺ وهذا لايخل بما ذكرناه .

(وهم : عبدالله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ـ وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير) ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سَلَمَة .

وحفظ القرآن من الانصار في حياة النبي ﷺ : عُبادة بن الصامت ، ومعاد أبو حليمة ، ومُجَمِّع بن جارية ، وفَضالة بن عُبَيد ، ومَسْلَمَة بن مُخَلَّد .

لكن هذا التعداد ليس للحصر قطعاً ، فهناك أُبَيُّ بن كعب ـ ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأنس بن مالك .

وقد أضاف الامام الذهبي (١) جملة من القراء الى ما ذكره أبو عبيد وهناك غيرهم كثير يستخرجهم القارىء من دراسة الكتب المؤلفة في الصحابة ، ومما تتوارد به الروايات في المراجع (٢) .

وهكذا ثبت حفظ الصحابة للقرآن في صدورهم بما يبلغ رتبة التواتر بل يزيد عليها اضعافاً ، تجعلنا نتيقن ما قاله الامام أبو الخير بن الجزري : « ان الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة » .

وذلك مصداق البشارة التي وردت عن الانبياء السابقين في وصف هذه الأمة : « آناجيلهم في صدورهم » ، وهو تحقيق للحديث القدسي : « إني مُبْتَليك ومُبْتَلٍ بك ، ومُنَزِّلٌ عليك كتاباً لايغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان ... » (٣) ، كما أن هذا من تحقيق الاعلان القرآني الذي كرره القرآن وأكده : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن للذِّكْرِ فهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

---

(١) في كتابه طبقات القراء كما نقل عنه الزركشي في البرهان ج ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٢) ومن ذلك . أبو زيد الذي ورد اسمه في الصحيح . وكمثل هذه الصحابية التي وجدها السيوطي ولم يعدها أحد وهي أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث وكان رسول الله ﷺ يزورها ويسميها الشهيدة . وكانت قد جمعت القرآن ، انظر الاتقان ج ١ ص ٧٢ . وكذلك أبو أمامة ، وكان يقرىء في مسجد دمشق مع أبي الدرداء .

(٣) أخرجه مسلم .

الفصل السادس

جمع القرآن الكريم تدويناً في السطور

وهو لون من الحفظ يدوم مع الزمان ، لايذهب بذهاب الانسان ، فلا غرو أن يتحقق أكمل تحقق لهذا الكتاب الذي تكفل الله تعالى بحفظه : « إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون » .

وقد رافق الجمع بالكتابة كل نجم من نجوم هذا القرآن منذ أن تنزّل هذا النجم بالوحي ، الى أن تكامل العمل بجمعه في المصحف جمعاً محوطاً بأشد أنواع العناية والحفاظ ، حتى انتشر بين أمة الاسلام وهو في كل ذلك باجماعها واطّلاعها .

وتقضي الدراسة الدقيقة تقسيم البحث في جمع القرآن الى ثلاثة مراحل ، كما قسمها المحققون من قبل .

جمع القرآن تدويناً على عهد النبي ﷺ :

لقد عني النبي ﷺ بكتابة القرآن عناية بالغة جداً ، فكان كلما نزل عليه نجم دعا الكتاب فأملاه عليهم ، فكتبوه على مايجدونه من أدوات الكتابة حينئذ مثل الرقاع ، واللخاف ، والأكتاف والعسب [1] . وقد اشتهر أن عدد كتّاب الوحي خمس وعشرون كاتباً ، لكنه فيما يبدو أكثر من ذلك بكثير . فقد بلغ عدد الكتّاب فوق الأربعين ، حسبما أفاده الاحصاء المستقصي لبعض المحققين [2]، وقد حضر النبي الكريم جهد هؤلاء الكتّاب في كتابة القرآن فمنع من كتابة غيره إلا في ظروف

(١) الرقعة : القطعة من الاديم أي الجلد ونحوه ، واللخاف الحجارة الرقيقة ، والعسب : سعف النخل يكشط طرفه العريض ويكتب عليه .

(٢) ابن حديدة الانصاري في كتابه « المصباح المضيء في كتّاب النبي العربي » .

خاصة أو لبعض أناس مخصوصين ، كما في الحديث الصحيح : « لاتكتبوا عني شيئاً إلا القرآن ، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه » أخرجه مسلم (١) .

فتحقق بذلك توفر طاقة كبيرة لكتابة القرآن وترتيبه ، كما أخرج الحاكم بسند على شرط الشيخين عن أنس رضي الله عنه قال : « كنّا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع .. » ومقصود هذا الحديث فيما نرى هو أن « المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها باشارة النبي ﷺ » .

ومن هنا كان لابد أن تتوفر نسخ كثيرة من القرآن مدونة عند عدد من الصحابة مثل : « أُبيّ بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، فبغير شك جمعوا القرآن ، والدلائل عليه متظاهرة » .

وكذلك السيدة عائشة رضي الله عنها .

وثمة نصوص تثبت كثرة كتابة القرآن وانتشاره مكتوباً ، تؤكد ماذهبنا اليه نذكر منها ، ان النبي ﷺ نهى أن يُسافَر بالقرآن الى أرض العدو » ، متفق عليه(٢) .

وكذلك كتابه ﷺ المشهور الى عمرو بن حزم : « أن لا يمسّ القرآن إلا طاهر » أخرجه مالك والنسائي وابن حبان (٣) .

وغير ذلك من الأخبار في هذا الباب يثبت وجود القرآن عندهم مكتوباً في نسخ عديدة لديهم في عهد النبي ﷺ .

---

(١) مسلم في الزهد ج ٨ ص ٢٢٩ وأحمد ج ٣ ص ٢١ بلفظه ، وانظر في المسألة كتابنا منهج النقد ص ٣٩ وما بعد .

(٢) البخاري في الجهاد (كراهية السفر بالمصاحف الى أرض العدو) ٤/٥٦ . ومسلم في الامارة (النهي أن يسافر بالمصحف) رقم ١٨٦٩ .

(٣) الموطأ ج ١ ص ١٥٧ والنسائي ج ٨ ص ٥٧ ـ ٦١ ليس فيه موضع الشاهد . وموارد الظمآن ٢٠٣ ، وحققنا صحته في كتابنا دراسات تطبيقية في الحديث النبوي ـ العبادات ص ٧٨ ـ ٨٠ .

جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق :

ثم لاحت في الافق اشارات تحذّر من الاستمرار على هذا الوضع وذلك نتيجة القتل الكثير الذي وقع في صفوف الصحابة في حروب الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

أخرج البخاري [1] عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :

« أرسل الي أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : ان عمر أتاني ، فقال : ان القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى ان يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ، واني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : انك رجل شاب عاقل لانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبّع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقلَ جبلٍ من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلتُ : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسولُ الله ﷺ ، قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعُني حتى شرحَ الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فتتبعتُ القرآن أجمعه من العُسُبِ واللِّخافِ وصدور الرجال حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خُزَيْمة الانصاري ، لم أجدها مع أحد غيره : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم ، حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفّاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم » .

---

(١) في فضائل القرآن (باب جمع القرآن) ج ١ ص ١٨٣ .

وهذا النص يفيد تخوّف الصحابة وحسابهم للمستقبل الذي يوجب الحذر والاستعداد لما يطرأ للقراء في مجتمع فرض عليه الجهاد وأحدقت به الأعداء .

طريقة جمع القرآن :

ويذكر الحديث ما اقتضاه العمل من الجهد في قول زيد : « فتتبعت القرآن أجْمَعُه من العُسُبِ واللِّخافِ وصدور الرجال » .

ان هذا يعني في ضوء المعلومات الثابتة التي قدمناها معنى جليلا هو أنه « طلب القرآن متفرقاً ليعارض (١) بالمجتمع عند من بقي ممن جمع القرآن ، ليشترك الجميع في علم ما جمع ، فلا يغيبُ عن جمع القرآن أحد عنده منه شيء ، ولا يرتاب أحدٌ فيما يودع المصحف : ولا يشكّوا في أنه جُمِعَ عن ملأ منهم » (٢) .

وفي ضوء هذا نفهم قوله : « وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره » .

فقد ورد من أكثر من طريق (٣) أن زيداً وعمر بن الخطاب قاما بعمل جمع القرآن هذا « وكان لايقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان » .

وقد فسر هذا القول بتفاسير متعددة كلها تشير الى غاية التثبت ، ولعل أولاها عندنا هو الاستشهاد على أن ذلك كتب بن يدي رسول الله ﷺ ، كما فسره أبو شامة المقدسي . وعلم الدين السخاوي . « ولذلك قال في آخر سورة التوبة : لم أجدها مع غيره ؛ أي لم أجدها مكتوبة على الشرط المذكور مع غيره » .

والا فإن خاتمة براءه محفوظة عنده وعند غيره من الصحابة ، مشهورة قد وردت أحاديث في فضلها .

---

(١) أي يقابل وتدقق نسخته .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

(٣) كما أخرجها ابن أبي داود في المصاحف وانظر الاتقان ص ٥٨ .

وبهذا جمعت نسخة المصحف بأدق توثق ومحافظة ، وأودعت لدى الخليفة لتكون اماماً تواجه الامة به ما قد يحدث في المستقبل ولم يبق الأمر موكولا الى النسخ التي بين أيدي كتاب الوحي ، أو الى حفظ الحفاظ وحدهم .

وقد اعتمد الصحابة كلهم وبالاجماع القطعي هذا العمل وهذا المصحف الذي جمعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وتتابع عليه الخلفاء الراشدون كلهم والمسلمون كلهم من بعده ، وسجلوها لأبي بكر الصديق منقبة فاضلة عظيمة من مناقبه وفضائله الجمة رضي الله عنه ، أثنوا عليها وأشادوا بها ، لكونه أول من جمع القرآن ، أي هذا الجمع العظيم الموثق ، وحسبنا في ذلك ما ثبت عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » (١) .

جمع القرآن بنسخ المصاحف على عهد عثمان رضي الله عنه :

ان ما يميز السياسة الراشدية نظرها الثاقب الذي يتدبر الامور بل الذي يسبق الحوادث قبل وقوعها ، كما سجله المؤرخون قديما وحديثاً وهكذا كان عمل أبي بكر والصحابة في جمع المصحف عدة ماضية آتت أعظم النتائج في مواجهة ما تطويه الأيام من تغيرات ومفاجآت (٢) .

فقد استجد في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ما يوجب نشر هذا المصحف وتعميمه على الآفاق ليحقق الغاية التي جمع لأجلها واستغرق تلك الجهود والأوقات ، ولم يقم الصحابة في نسخ هذا المصحف ونشره بمجرد النقل ، بل اتبعو كذلك غاية ما يمكن من التحقق والتثبت ، كما تنبئنا به الأخبار الصحيحة اليقينية .

(١) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف .

(٢) نذكر هنا بمواقف الصحابة من رواية الحديث لما برز قرن الفتنة وظهر الكذب وكيف واجهوا الموقف بأحكم الوسائل العلمية في المحافظة على الحديث النبوي ، كما فصلناه في كتابنا منهج النقد في علوم الحديث ص ٥٥ ــ ٥٧ محققاً بالأدلة الثابتة .

أخرج البخاري [1] عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلي الينا بالصحف ننسخها ثم نردها اليك ، فأرسلت بها حفصة الى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ، حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة ، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرّق » .

فقد أفادت هذه الرواية فوائد لها أهميتها في فهم العمل الذي قام به عثمان بن عفان رضي الله عنه ، عني العلماء ببحثها ودراستها .

ومن ذلك السبب الدافع للعمل الذي قام به عثمان وهو اختلاف الناس في وجوه قراءة القرآن حتى قرؤوه بلغاتهم ـ كما قال ابن التين [2] ـ على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم الى تخطئة بعض فَخَشِيَ من تفاقم الأمر في ذلك فَنَسَخَ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبا لسوره واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش ... » .

الفرق بين عمل أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما :

وهذا يوضح لنا فرقا جوهريا بين عمل أبي بكر وعمل عثمان ، وهو أن عمل أبي بكر كان جمع القرآن كله في نسخة معتمدة يشترك فيها الجميع لخشية أن

---

(1) ج ٦ ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(2) الاتقان ج ١ ص ٦٠ ، وقارن بفتح الباري ج ٩ ص ١٩ .

يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعاً في نسخة واحدة موثقة ذلك التوثيق ، بل كان ما وجد من نسخ المصحف عند كتاب الوحي على مسؤليتهم الخاصة . أما عمل عثمان فكان نسخ مصاحف عن هذا المصحف بغاية الدقة لازالة الخلاف بين المسلمين .

كيفية نسخ المصاحف العثمانية :

وأما كيفية العمل في نسخ المصاحف من مصحف أبي بكر فقد أفادنا الحديث الذي رويناه أنه كان بواسطة لجنة رباعية ، منها ثلاثة من قريش ، وواحد من الأنصار هو زيد بن ثابت .

وهؤلاء القرشيون معروفون بالورع والتقى واتقان حفظ القرآن واتقان الكتابة ، ووجود زيد بن ثابت معهم أمر بدهي ، وهو الذي كان في الجمع الأول وقد رضيه الصحابة جميعهم أيضاً ، الا ما كان من عبد الله بن مسعود في بادىء الأمر من الاعتراض على استبعاده عن اللجنة ، حتى رُوِيَ أنه عرّض بزيد بن ثابت كيف يشترك في كتابة المصاحف ولا يشترك هو فيها ، مع تقدمه في الاسلام ، حيث كان زيد في صلب أبيه الكافر لم يولد حين دخل ابن مسعود الاسلام ، وهو قول ناشيء عن تأثر عارض ، أنكره عليه الصحابة ، ولم يلبث ابن مسعود نفسه أن رجع عنه ، وأوضح الحافظ ابن حجر أنه من العسير إشراكه في هذا العمل وقد كان هو في الكوفة (١) .

وقد كان زيد بن ثابت قد تقررت له الفضائل ، وشُهِدَ له بالتقدم ، وقد روى أن النبي ﷺ قال : « من سرّه أن يقرأ القرآن غضّا فليقرأه بقراءة زيد » ، وقد بلغ في الذكاء مبلغاً عظيما تميّز به على أهل عصره ، وقد سئل الامام التابعي الجليل سليمان بن يسار عن القراءة التي يقرأ بها أهل المدينة فقال : اجتمع عليها ابن عمر ، وعثمان ، وأبيّ ، وزيد ، وكان زيد أقرأهم عندنا » .

---

(١) انظر فتح الباري ج ٩ ص ١٧ .

وغير ذلك كثير من الأخبار في فضله وعلوّ قدمه في القرآن الكريم متوافرة المعنى كما بين أهل التحقيق [1] .

على أنا نجد ما يدل على أن العمل في نسخ المصاحف ساهم فيه غير هؤلاء الأربعة المذكورين هنا . وقد ورد عند ابن أبي داود من طريق محمد بن سيرين قال : « جمع عثمان اثني عشر رجلاً من قريش والانصار ، منهم أُبيّ بن كعب .. »[2].

وتوافينا روايات تفصيلية بأسماء صحابة آخرين سوى أعضاء اللجنة الرباعية ساهموا في نسخ المصاحف . حتى اجتمع من التتبع احصاء أسماء تسعة نفر منهم ، مما يقوي رواية الأثني عشر ، ويشير الى أن اللجنة الرباعية كانت هي الرئيسية ، ورفدها في العمل خبراء ، عملوا معها لكتابة المصاحف التي تكفي لحاجة المسلمين » [3] .

شروط الكتابة في المصاحف العثمانية :

وأما القواعد التي اتبعوها في كتابة المصاحف ، فكانت أصولاً هامة سارت عليها الأمة من بعد . وقد صرّح الحديث بقاعدة هامة منها ، وحدثتنا الروايات عن غيرها ، فمن ذلك :

١ ــ اختيار حرف قريش : لما جاء في الحديث : « وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فانما نزل بلسانهم ، ففعلوا » .

وهذا لايدل على ابطال بقية الأحرف السبعة ، لما هو معلوم من قواعد رسم المصحف أنه غير مشكول ولا منقوط ، وأنه لم تثبت فيه ألفات المد حسب قواعد

---

(١) انظر التوسع في هذه المسألة نكت الانتصار ص ٣٦٧ وما بعد .

(٢) انظر فتح الباري ج ٩ ص ١٦ .

(٣) قارن رأينا هذا بفتح الباري ج ٩ ص ١٦ ــ ١٧ . وفيه التتبع للزيادة على الأربعة .

في رسم الألف وعدمها ، فمثلاً « مالك » تكتب « ملك » و « الكتاب » تكتب « الكتب » .

ومن هنا كان لقراءة رسم المصحف طريقان : الموافقة للرسم المكتوب تحقيقا ، والموافقة احتمالاً وتقديرا .

فقراءة « ملك يوم الدين » موافقة للرسم تحقيقاً ، وقراءة « مالك يوم الدين » موافقة له تقديرا .

لكن لاتجوز أي قراءة يحتملها الرسم الا اذا ورد بها النقل المتواتر عن النبي ﷺ ، كما سيأتي في ضابط القراءة الصحيحة . غاية الأمر هنا أن يكون الرسم موافقا للسان قريش تحقيقا ، ولغيرهم تقديرا [1] .

٢ ــ اذا لم يمكن استيعاب كل الأوجه كُتِبَ بعض المصاحف ببعض الأوجه ، وكتب بعض آخر بأوجه أخرى مثل « ووصّى » ، « وأوصى » .

٣ ــ تجريد المصحف عن كل ما ليس قرآنا ، حتى سرت هذه العبارة المأثورة التي تناقلها التابعون : « جرّدوا المصاحف » .

٤ ــ التثبت البالغ في الرسم ، كما قال كثير بن أفلح أحد الكاتبين مع اللجنة الرباعية : « فكانوا اذا اختلفوا في الشيء أخروه » ، قال ابن سيرين : « أظنه ليكتبوه على العرضة الأخيرة » [2] .

---

(١) وأما رواية أنهم اختلفوا في التابوت فقال القرشيون : التابوت ، وقال زيد : التابوه فرفع الى عثمان فقال اكتبوه « التابوت » فانه نزل بلسان قريش ، فهذه الرواية في اسنادها كلام . رواها الزهري مرسلة . وتفرد بوصلها من هو ضعيف وانظر فتح الباري ج ٩ ص ١٦ .

(٢) فتح الباري ج ٩ ص ١٦ .

وقد ورد نحو ذلك بأكثر من وجه .

وبهذا كان عمل عثمان بن عفان متكاملاً في غاية الضبط والاتقان وقد حقق الهدف الذي قصد إليه من وراء هذا العمل من وجهين هما بيت القصيد :

آ ـ المحافظة على نص القرآن أن يدخل فيه ما ليس منه ، أو أن يتعرض لأي تحريف ، بسبب العوامل التي سبق ذكرها .

ب ـ اعتماد القراءات المتعددة المتواترة التي يمكن أن يقرأ بها القرآن ، كما ذكرنا في قاعدة الرسم ، وبذلك قضى عثمان رضى الله عنه على الخصام بسبب القراءات بين المسلمين ، لأن الجميع علموا شرعية ما يقرأ به القرآن ، لاعتماده على الأصل المجمع عليه من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، فلا يختلفون فيه.

يشير الى هذا الهدف قول عثمان يرد على الخارجين عليه اعتراضهم لحرقه المصاحف : « إنما منعتكم من الاختلاف ... » .

نشر عثمان المصاحف في الأمصار :

تم العمل الضخم الذي قام به عثمان وهو نسخ المصاحف بما لايتجاوز كثيراً (سنة ٢٥ هـ) التي هي سنة غزو المسلمين إرمينية كما يثبته التاريخ [١] ، فأعاد عثمان الصحف الى حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها ، ووزع المصاحف على وجه يحقق المقصود ، ويزيل الاشكال فأرسل الى كل مصر من الامصار الاسلامية بمصحف من المصاحف التي نسخت ، واحتفظ عنده بمصحف سمي « المصحف الامام » ، وقد وقع الاختلاف في عدد هذه المصاحف ، والمشهور أنها خمس على ماقرره السيوطي،ولكن إذا أضفنا اليها المصحف الامام كان المجموع ستة مصاحف.

---

(١) خلافاً لما توهمه بعض السابقين ممن لم يحقق فزعم أنه كان سنة ٣٠،ومن ثم جاء بعض الأجانب ليبني على هذا القول الساقط خيالات باطلة . وانظر تحقيق الترجيح في فتح الباري للحافظ ابن حجر .

ولاحظ عثمان في هذا التوزيع إرداف الكتابة بالقراءة ، وهي العمدة بالنسبة لقراءة القرآن التي تحتاج الى التلقي من الافواه ، فأرسل الى كل بلد قارئاً يرافق المصحف ويقرأ بالقراءة الموافقة لرسم المصحف ، على التوزيع التالي : زيد بن ثابت مقرىء المصحف المدني ، وعبد الله بن السائب مقرىء المصحف المكي ، والمغيرة بن شهاب مقرىء المصحف الشامي ، وأبو عبد الرحمن السّلمي مقرىء المصحف الكوفي ، وعامر بن عبد القيس مقرىء المصحف البصري (١) .

وفي مقابل ذلك أمر عثمان بما سوى ذلك من المصاحف أن يحرّق ، فاستجاب الصحابة كلهم لذلك ، وحمدوا صنيعه ، حتى عبد الله بن مسعود نفسه ، فانه بعد أن امتنع قليلاً وافق طواعية ، كما ثبت ذلك بالأدلة القاطعة الثابتة عنه (٢) .

وانما صنع عثمان ذلك بهذه المصاحف الفردية لازالة جذور الخلاف ومنابته ، وإن تقولْ في ذلك بعض الغلاة ما أملاه التظنن الباطل .

ومما يدل على أنه تقوّل بحت دلائل قاطعة حاسمة كثيرة جدا نشير لبعضها فيما يلي موجزا :

١ ـ ان احراق النسخ المكتوبة لايمكن ان يكون وسيلة لاخفاء شيء من كتاب العمدةُ فيه الحفظُ في الصدور وفي مجتمع حافل بالقرّاء الحفاظ عن ظهر قلب ، فلو حدث خلل بكلمة واحدة ، لما لبث أمرها يسيرا حتى ينكشف وتستعلن الصيحات لاثباتها .

٢ ـ ان أي شيء يُزْعَمُ إسقاطه من المصحف ، لايحتاج لشيء سوى اليسير من النظر ليتبين كذب ذلك الزعم ، فان أي ناظر يملك القدرة على التمييز

---

(١) بتصرف يسير عن مناهل العرفان ج ١ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ .

(٢) انظر الآثار عنه في المصاحف لابن ابي داود تحت عنوان « رضاء عبد الله بن مسعود لجمع عثمان ... » ص ٢٥ .

لايلبث أن يلاحظ الفرق الشاسع بين العبارات والجمل المسروقة من القرآن نفسه التي ركمت على بعضها التي يزعم أنها أسقطت من القــرآن ، وبين ســمو أســلوب القرآن وإعجازه .

٣ ــ ان جميع الفرق الاسلامية من سنة وخوارج وشيعة وخصوصاً الامامية منهم أجمعوا على الاعتقاد في جملة القرآن الذي أوحى الله به الى نبيــه محمد ﷺ هو كل ما تحتويه دفتا المصحف المتداول بين المسلمين ، غاية ما هنالك مخالفة بعض علماء من بعض الفرق في عدد السور بمعنى اعتبار السورتين سورة واحدة مثــل « والضحى وألم نشرح » ، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الخلاف لم يتجاوز الجدل النظري ، وهذه المصاحف في مختلف البلاد الاسلامية ولدى مختلف الفرق المسلمة لاتختلف في شيء عن مصاحف أهل السنة ، حتى في طريقة تقسيم السور وترقيمها ، الأمر الذي أثبت بالدلالة القاطعة لكل العقلاء المنصفين على اختلاف أديانهم « أن المصحف الذي نسخه عثمان قد تواتر الينا بدون أي تحريف على الاطلاق في النسخ التي لاحصر لها المتداولة في البلاد الاسلامية الواسعة ، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الاسلامية المتنازعة ، وهذا الاستعمال الاجماعي مــن الجميع للنص المقبول نفسه حتى اليوم يعدّ أكبر حجة ودليل على صحــة النص المنزل الموجــود معنا » (١) .

وقد حمد المسلمون سلفاً فخلفا لعثمان رضي عنه صنيعه ، حتى لقبوه جامع القرآن ، لما « وفّق له من هذا الأمر العظيم ، ورفع الاختلاف ، وجمــع الكلمــة ، وأراح الأمة » (١) .

وقد ثبت عن عليّ رضي الله عنه أنه قــال : « يامعشر الناس ، اتقــوا الله ،

---

(١) باختصار عن المستشرق (و٠ موير) ٠

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ ٠

واياكم والغلو في عثمان وقولكم حراق المصاحف ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا » (١) .

وقال علي رضي الله عنه أيضاً : « لو وليت ما ولي عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل » (٢) .

وقد عنيت الامة الاسلامية بهذه المصاحف العثمانية أكبر عناية فاتخذت هذه المصاحف أصولاً يؤخذ منها ، وأئمة يقتدى في كتابة المصاحف بها ، حتى حدثنا الرحالون المسلمون العلماء ، والأئمة الكبار عن نسخ من هذه المصاحف أو قطع منها شاهدوها في بلاد الاسلام ، ولا تزال أجزاء هامة من بعض هذه المصاحف حتى عصرنا هذا تحتفظ بها بعض دور الآثار الضخمة وتزهو بها على العالم .

ويحدثنا الامام ابن كثير الدمشقي المتوفى سنة (٧٧٤ هـ) عن المصحف الشامي فيقول (٣) : « أما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن ، شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ، وقد كان قديما بمدينة طبرية ، ثم نقل منها الى دمشق في حدود سنة ٥١٨ ، وقد رأيته كتاباً عزيزا جليلا عظيما ، ضخما بخط حسن مبين ، قوي ، بحبر محكم في رَق أظنه من جلود الإبل » .

---

(١) فتح الباري ج ٩ ص ١٥ والنص آخرجه ابن أبي داود في المصاحف وابن الانباري والسياق لابن أبي داود لكن الجملة الاولى من سياق ابن الأنباري ، وانظر الاتقان ج ١ ص ٥٩ ومقدمتان في علوم القرآن ص ٤٦ ومناهل العرفان للزرقاني ج ١ ص ١٥٥ .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٤٠ .

(٣) في كتابه فضائل القرآن المطبوع في آخر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٥ .

وقد ظل هذا المصحف مفخرة تزهو بها دمشق ويحتضنها جامعها الأموي الكبير ، حتى كان الحريق الكبير الذي أصاب المسجد الأموي سنة ١٣١٠ هـ واحترق فيه هذا المصحف الجليل (١) .

وهكذا سجلت الامة الاسلامية بصنيع عثمان بن عفان والصحابة في نسخ المصاحف مزية ليست لأمة غيرها ، هي اعتماد المسلمين على نسخ من كتاب ربهم ، منقولة على غاية الدقة والتحري عن الأصل المكتوب عن نبيهم ﷺ ، مع مقابلة ذلك كله بحفظه في صدور المسلمين كلهم ، ثم نقله كذلك عَبْرَ أجيالهم ، ليعترف لهم التاريخ على لسان الموالي لهم والمخالف لدينهم بأنه أدق وأكمل مما يتوقعه أو يمكن أن يفعله أي انسان ، تحقيقا لقول الله تعالى : « وانه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقال عز من قائل : « انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

* * *

(١) قال الاستاذ العلامة الدكتور صبحي الصالح في كتابه مباحث في علوم القرآن ص ٨٩ « وقد ذكر لي الزميل الاستاذ الدكتور يوسف العش أن القاضي عبد المحسن الاسطواني أخبره بانه قد رأى المصحف الشامي قبل احترافه ، وكان محفوظاً في المقصورة . وله بيت خشب » انتهى بحروفه . وهذا اسناد متصل صحيح .

الفصل السابع

رسم القرآن الكريم

المراد برسم القرآن هنا كيفية كتابة الحروف والكلمات في المصحف على الطريقة التي كتبت عليها في المصاحف التي أمر عثمان اللجنة الرباعية فكتبتها ، ووزعها على الامصار . ويطلق عليه : رسم المصحف . ومرسوم الخط .

وقد عني العلماء بضبط ذلك عناية شاملة ، فضبطوا ما ينضبط بقواعد عامة ، كما بينوا ما جاء فيها مستثنى في بعض المواضع ، حتى لاترى كلمة في كتاب الله تعالى الا وقد علم كيف كتابتها بواسطة هذا العلم ، الذي حاز على اهتمام كبير من العلماء ، حتى أنه كما قال السيوطي [1] : « أفرده بالتصنيف خلائق من المتقدمين والمتأخرين ، منهم : أبو عمرو الداني ، وألف في توجيه ما خالف قواعد الخط منه أبو عباس المراكشي كتابا سماه : « عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل » .

ويرجع هذا الرسم في الأصل الى كتابة القرآن باملاء النبي ﷺ على كتاب الوحي ، واشرافه واطلاعه عليه [2] .

---

(١) الاتقان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٢) وليس منشأ الرسم هو تأثر المسلمين العاطفي بإجلال الخليفة الشهيد عثمان بن عفان كما تصوره بعض الكاتبين متأثراً بآراء استشراقية .

ومن هنا فإن جمهور العلماء ذهبوا الى منع كتابة المصحف بما استحدث الناس من قواعد الاملاء ، للمحافظة على نقل المصحف بالكتابة على الرسم نفسه الذي كتبه الصحابة ، وقد صرح الامام أحمد فيه بالتحريم فقال : « تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في ياء أو واو أو ألف أو غير ذلك » (١) .

وسئل الامام مالك : هل نكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، الا على الكتبة الأولى .

وكان ذلك للمبالغة في المحافظة والاحتياط على نص القرآن حتى في مسألة شكلية هي كيفية رسمه .

ولكن العلماء استثنوا من ذلك نقط المصاحف وتشكيلها ، لتمييز الحروف ، والحركات فأجازوا ذلك بعد اختلاف في الصدر الأول عليه ، وذلك لما اضطروا الى ذلك لتلافي الأخطاء التي شاعت بسبب اختلاط العرب بالعجم .

وقد اختلفوا في أول من نقط المصاحف ، فقال المبرد : « أول من نقط المصاحف أبو الأسود الدؤلي صاحب علي بن أبي طالب ، وذكروا أن ابن سيرين التابعي كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر ، وذكر الجاحظ في كتاب الأمصار أن نصر بن عاصم أول من نقط المصاحف وكان يقال له : نصر الحروف (٢) .

وهكذا حافظت الامة على صورة الحروف والكتابة وفق الرسم العثماني ، انما أضافت له النقط والشكل ، لما أن ذلك دلالة على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها .

واذا ما نظرنا لمتطلبات العصر وللحاجة الى تسهيل قراءة القرآن وتعلمه على الناس فبوسعنا أن نجد طريقين لتسهيل تعليم تلاوة القرآن على أهل عصرنا :

---

(١) المقنع لابي عمرو الداني ص ٣٠ وانظر البرهان ج ١ ص ٣٧٩ .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ .

الطريقة الأولى : أن ينبه في ذيل كل صفحة من صفحات المصحف على ما قد يكون فيها من الكلمات المخالفة في كتابتها لقواعدنا في الخط والاملاء ، وقد ظهرت في هذا تجربة ناجحة لمصحف محاط بتفسير موجز ، صدر بعنوان : المصحف الميَسَّر .

الطريقة الثانية : كتابة القرآن بالرسم المعتاد لنا في مجالس التعليم ، لتسهيل التعلم ، ولكي يتم نقل المتعلم الى الرسم الأصلي بسهولة ، نتيجة تدربه على أسلوب القرآن الكريم ، على ما يستفاد من رأي الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله ، الذي توسع في هذه المسألة ولم يلزم العامي بالرسم العثماني قائلاً : « لئلا يوقع في تغيير الجهال ، ولكن لاينبغي إجراء هذا على اطلاقه ، لئلا يؤدي الى دروس العلم ، وشيء أحكمته القدماء لايترك مراعاته لجهل الجاهلين ، ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة » (١) .

أحكام تتعلق بالمصحف :

لما كان المصحف يضم بين دفتيه كلام الله تبارك وتعالى ، فقد اختص بأحكام شرعية ليست لغيره من الكتب مهما جلَّتْ أو عظمت أهميتها ، وقد عني العلماء بتفصيل تلك الأحكام ، وتفريعها ، نذكر مهمات منها فيما يلي :

١ ــ كره كثير من العلماء بيع المصاحف وشراءها ، لما أخرج ابن أبي دواد عن عبد الله بن شقيق قال : « كان أصحاب رسول الله ﷺ يشددون في بيع المصاحف .

والمختار عند بعض الأئمة ومنهم الشافعية كراهية البيع دون الشراء ، والثمن يتوجه الى الورق أو أجرة الكتابة ، أو هو لهما معاً .

---

(١) البرهان ج ١ ص ٣٧٩ .

ولعل هذا بالنسبة لمن عنده مصحف في بيته فلا يبيعه ، أما أصحاب المكتبات فلا يمكن تطبيق ذلك عليهم ، لما فيه من تعطيل مصالح المسلمين ، غير أنه لايسمى بيعاً بل هبة ، ولا يقال اشترى بل استوهب ، تأدباً واحتراما •

٢ ــ يستحب تقبيل المصحف وتطييبه ، وجعله على كرسي،ويحرم تَوَسُّدُه، لأن فيه امتهانا ، وكذا مد الرجلين اليه على ما قاله الزركشي ، ويستحب الاستياك لقراءة القرآن •

٣ ــ اذا احتيج الى تعطيل أوراق فيها قرآن لبلاء أو نحوه فلذلك طرق :

غسلها بالماء إن أمكن ، أو إحراقها بالنار ، واختار الحنفية أن يحفر له في الأرض ويدفن ، في موضع بعيد عن أن تطأه الأقدام •

٤ ــ اتفق جماهير العلماء ومنهم الأئمة الأربعة على تحريم مسّ المصحف للمحدث حدثاً أصغر أو أكبر ، لقوله تعالى : « لايَمَسُّه إلا المُطَهَّرُون » ، ولما ثبت في الحديث : « أن لايمسَّ القرآن إلا طاهر » (١) •

* * *

(١) انظر هذه الاحكام وغيرها في البرهان ج ١ ص ٤٥٩ و ٤٧٧ ــ ٤٨٠ والاتقان ج ٢ ص ١٧٢ ــ ١٧٣ . وانظر تفصيل مسألة مس المصحف في كتابنا دراسات تطبيقية في الحديث النبوي ص ٧٨ ــ ٨٢ ٠

الفصل الثامن

ترتيب آيات القرآن وسوره

تعريف الآية :

الآية في اللغة : أصلها بمعنى العلامة ،ومنه قوله تعالى : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التابوت » (١) .

وأما في اصطلاح علم القرآن الكريم : فهي قرآن مركب من جمل ولو تقديرا ، ذو مبدأ ومقطع مندرج في ضمن سورة .

سميت آية لمناسبات عدة ، أولاها في اختيارنا : أنها علامة على صدق من أتى بها ، وعلى عجز المتحدى بها (٢) .

تعريف السورة :

للسورة في اللغة اطلاقات متعددة ، لعلّ أقربها هنا أنها مأخوذة من سور المدينة ، أو من السورة بمعنى المرتبة والمنزلة الرفيعة ، على حد قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أي أعطاك منزلة عالية على غيرك من الملوك .

---

(١) سورة البقرة . الآية ٢٤٨ .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٦٦ و ٢٦٧ .

أما في الاصطلاح فالسورة : قرآن يشتمل على آيٍ ذواتِ فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات .

ومناسبة التسمية واضحة ، لأنها كالسور تحيط بآياتها وتجمعها كاجتماع البيوت بالسور ، أو لعلو قدرها وشرفها (١) .

وفي تقسيم القرآن الى سور وآيات فوائد كثيرة ، وحكم جليلة تعرض العلماء لها ونذكر اجمالات من كلامهم عنها فيما يلي :

قال الزمخشري :

« الفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سورا كثيرة ... » .

منها : أن الجنس اذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون بابا واحدا .

ومنها : أن القارىء اذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له ، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر اذا اقتطع ميلا أو فرسخا وانتهى الى رأس برية نفّس ذلك منه ونشطه للمسير ، ومن ثمة جُزِّىءَ القرآن أجزاء وأخماساً .

ومنها : أن الحافظ اذا حَذَقَ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة فيعظم عنده ما حفظه ، ومنه حديث أنس : « كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ فينا » ، ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة أفضل .

مصدر ترتيب القرآن الكريم :

أجمع العلماء سلفا وخلفا على أن ترتيب الآيات في السور توقيفي أي اتبع فيه

---

(١) البرهان ج ١ ص ٢٦٣ و ٢٦٤ .

الصحابة أمر النبي ﷺ ، وتلقاه النبي الكريم عن جبريل عليه السلام ، لايشتبه في ذلك أحد (١) .

والأحاديث في اثبات التوقيف في ترتيب الآيات في السور كثيرة جداً تفوق حد التواتر ، وتجعل من العسير استيعابها وحصرها لكنا نذكر هنا أمثلة منها تلقي الضوء على صنيع النبي ﷺ :

أخرج مسلم عن عمر قال : ماسألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة، حتى طعن بأصبعه في صدري وقال : « تكفيك آية الصيف التي في آخر النساء » .

وأخرج أحمد بالاسناد الثابت عن عثمان بن أبي العاص قال كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذْ شخص ببصره ثم صوّبه ، ثم قال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع : إن اللهَ يأمرُ بالعدلِ والاحسانِ وايتاء ذي القرْبَى » الى آخرها (٢) .

ومنها الأحاديث التي تخبر عن آيات بموضعها ، وذلك يشعر بكون هـذا الترتيب معلوما شائعاً مفروغا منه ، وهي أحاديث كثيرة تعسر على الحصر :

مثل الأحاديث في فضل خواتيم البقرة في البخاري ومسلم (١) ، وحديث « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجّال » أخرجه مسلم ، وفي رواية العشر الأواخر من سورة الكهف (٢) .

ومن ذلك الأحاديث الكثيرة المتضافرة في قراءة النبي ﷺ سور القرآن ، وغير ذلك مما يصعب عده واحصاؤه .

---

(١) البرهان ج ١ ص ٢٥٦ والاتقان ج ١ ص ٦٠ .

(٢) انظر الاتقان ج ١ ص ٦٠ .

(٣) البخاري ج ٦ ص ١٨٨ ومسلم ج ٢ ص ١٩٨ .

(٤) مسلم ج ٢ ص ١٩٩ .

وأما ترتيب سور القرآن :

فقد وقع فيه خلاف بسبب وجود روايات فهم منها بعض العلماء أن ترتيب بعض السور كان باجتهاد من الصحابة •

لكن جماهير العلماء على أن ترتيب سور القرآن توقيفي ، وليس باجتهاد من الصحابة ، وان كانوا اختلفوا هل كل ذلك الترتيب بتوقيف قولي صريح من النبي ﷺ ينص على كل سورة أنها بعد سورة كذا ، أو أن بعض هذا الترتيب قد استند فيه الصحابة الى مستند فعلي من قراءة النبي ﷺ مثلا •

وذهب ابن عطية وبعض العلماء الى أن كثيرا من السور كان قد علم ترتيبها في حياته ﷺ ، كالسبع الطوال والحواميم والمفصّل ، وأن بعض السور يمكن أن يكون فوض الأمر فيه الى الأمة بعده •

ولعل أقوى ما يستدل به لهذا الرأي حديث ابن عباس ، قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموهما في السبع الطوال ؟ •

فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الانفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها في السبع الطوال » أخرجه أحمد والثلاثة وابن حبان والحاكم •

وهو استدلال غير سديد سنداً ومتناً ، فان اسناد هذا الحديث لايرقى للاحتجاج ، فضلاً عن أن يكون مرجعاً في قضية هامة كهذه والصحابة يقرأون القرآن ويتلقونه ، ثم لا يوجد عند أحد منهم علم بسورتين من القرآن الكريم •

يؤيد ما ذكرناه أيضاً ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس قال : سألت علي بن أبي طالب : لِمَ لِمْ تكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأنها أمان ، وبراءة نزلت بالسيف » .

وقال الامام القشيري : والصحيح أن البسملة لم تكن فيها لأن جبريل عليه السلام لم ينزل بها فيها .

والأدلة على أن ترتيب السور كلها توقيفي كثيرة جداً من السنة نجد فيها ترتيب السور على وفق مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، نذكر منها :

عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال : « أُعْطِيتُ مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأعطيت مكان الانجيل المثاني ، وفُضِّلْتُ بالمُفَصَّلِ » أخرجه أبو داود الطيالسي وأبو عبيد (١) .

قال أبو جعفر النحاس : « وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ : وأنه مؤلف من ذلك الوقت ، وانما جمع في المصحف على شيء واحد ، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله ﷺ على تأليف القرآن ، وفيه أيضاً دليل على أن سورة الأنفال سورة على حدة ، وليست من براءة » انتهى (٢) .

وعن سعيد بن خالد أنه قال : « قرأ ﷺ بالسبع الطوال في ركعة » أخرجه ابن أبي شيبة (٣) .

وغير ذلك يضيق المجال عن حصره يدل بوضوح على أن ترتيب سور القرآن توقيفي .

---

(١) من رواية سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي المليح الهذلي عن واثلة ، وفي حديث سعيد لين ، لكنه ورد من طريق آخر هو عمران القطان عن قتادة عند الطيالسي كما في البرهان ج ١ ص ٢٤٤ و ٢٥٨ فتقوى من هذه الناحية .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٥٨ ونقله الاتقان بتصرف ج ١ ص ٦٢ .

(٣) الاتقان ، الموضع السابق .

الفصل التاسع

في

أسباب النزول

يعرف سبب النزول بانه : ما نزلت الآية أو الآيات تتحدث عنه أيام وقوعه :

وهذا القيد « أيام وقوعه » يعتبر شرطاً جوهريا لبيان سبب النزول وتمييزه عن الآيات التي نزلت للإخبار بالوقائع الماضية .

وجدير بالتنبيه عليه هنا أنه ليس كل القرآن قد نزل على أسباب، بل من القرآن الكريم ما نزل ابتداء غير مبني على سبب ، ومن ذلك أكثر قصص الأنبياء مع أممهم ، وكذا وصف بعض الوقائع الماضية ، أو أنباء الغيب القادمة ، وبيان أهوال القيامة ، والجنة والنار ، فقد نزل أكثر ذلك ابتداء ، من غير توقف على سبب (١) .

اهمية علم أسباب النزول :

ولا ريب عند من له تأمل وخُبْر بدراسة النصوص والوثائق أن لمعرفة أسباب النزول والوقائع التي بُني عليها ورود النص أو ترتب عليها وقوع الحدث من أحداث التاريخ له أثر بالغ الخطر في دراسة تلك النصوص أو الأحداث ، وذلك من أوجه كثيرة ، نذكر منها في هذا المقام :

---

(١) أما قول ابن مسعود « والله ما نزلت آية الا وأنا أعلم فيمن نزلت ... » ونحوه عن علي رضي الله عنهما . فليس يعني أن لكل آية سبباً بل المراد ان كان لها سبب فهو يعلمه . وقد حاد عن الجادة من حمله على المبالغة أو ظن بالرواة تزيدا . فليتنبه .

١ ــ الاستعانة على فهم المعنى المراد ، لما هو معلوم من الارتباط بين السبب والمسبب •

وقال ابن دقيق العيد : « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن » •

٢ ــ معرفة وجه الحكمة التي ينطوي عليها تشريع الحكم ، مما يكون أدعى لتفهمه وتقبله ، فمن قرأ أسباب نزول آيات تحريم الخمر متدرجة واحدة بعد الأخرى ، أدرك ضرورة تحريم الخمر •

٣ ــ إزالة الاشكال عن ظاهر النص لمن لم يتعرف سبب النزول : وذلك كثير يصادفه المفسر ، ومنه هذا المثال المشهور وهو أنه قد أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى : « لاتحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يُحْمَدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » [١] ، وقال : لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لتعذبنّ أجمعون ؟ حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه اياه ، وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك اليه » أخرجه الشيخان [٢] •

كيف نعرف أسباب النزول :

لما كان النزول أمراً واقعاً نزلت الآية بشأنه كان من البَدَهي ألا يدخل العلم بهذه الأسباب في دائرة الرأي والاجتهاد •

---

(١) الاتقان ج ١ ص ٢٨ وقارن نصه بالبرهان ج ١ ص ٢٢ •

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٨ •

(٣) البخاري ج ٦ ص ٤٠ ــ ٤١ ومسلم ٨٤ ص ١٢٢ •

ولما أن أسباب النزول غير خاضعة للاجتهاد أدخلها علماء الحديث من الصحابي الذي عاين التنزيل وعاصره فيما له حكم المرفوع ، وان كانت العبارة فيها لفظ الصحابي •

وقد اتفق علماء الحديث على اعتبار قول الصحابي في سبب النزول له حكم المرفوع وأخرج المحدثون أسباب النزول في كتبهم كالبخاري ومسلم وغيرهما •

أما ما يرويه التابعون من أسباب النزول فهو مرفوع أيضاً ، لكنه مرسل [1] ، لعدم ذكر الصحابي فيه •

لكن ينبغي الحذر والتيقظ ، فلا نخلط بأسباب النزول ما ليس منها ، فقد يقع على لسانهم قولهم : « نزلت هذه الآية في كذا » ويكون المراد بيان موضوع الآية ، أو مادلت عليه من الحكم •

اختلاف روايات أسباب النزول :

لما كان سبيل الوصول الى أسباب النزول هو الرواية والنقل ، كان لابد أن يعرض لها ما يعرض للرواية مما هو معلوم ومدروس في علوم الحديث ، من صحة وضعف ، واتصال وانقطاع ، وغير ذلك مما لانطيل به ، غير أنا ننتبه هنا على ظاهرة هامة يحتاج الدارس اليها وهي اختلاف روايات أسباب النزول وتعددها ، وذلك لأسباب يمكن تلخيص مهماتها فيما يلي [1] :

١ ـ ضعف الرواة :

وضعف الراوي يسبب له الغلط في الرواية ، وأن تكون مردودة ، فإذا خالفت روايته رواية المقبولين ، كانت أولى بالرد •

---

(١) الاتقان ج ١ ص ٣١ •

(٢) قارن سياقنا في التقسيم بسياق السيوطي في الاتقان ج ١ ص ٣١ ـ ٣٤ ولا سيما في الصورة الثالثة •

٢ ــ تعدد الأسباب والمنزل واحد :

وذلك بأن تقع عدة وقائع في أزمنة متقاربة فتنزل الآية لأجلها كلها ، والعمدة في ذلك على صحة الروايات ، فاذا صحت الروايات بعدة أسباب ولم يكن ثمة مايدل على تباعدها كان ذلك دليلا على أن الكل سبب لنزول الآية أو الآيات .

٣ ــ أن يتعدد نزول النص لتعدد الاسباب :

قال الامام الزركشي [١] : « وقد ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه ، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه ... » .

مثاله : ما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح » [٢] أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة ، ومعلوم أن هذه الآية في سورة « سبحان » ، وهي مكيّة بالاتفاق .

عموم اللفظ وخصوص السبب :

هذه قضية أصولية من قواعد أصول الفقه ، كما أنها من أصول التفسير الهامة ، تضبط كيفية تفسير السبب للنص ضبطاً يزيل التوهم الفاسد .

فالسبب الخاص قد ينزل فيه نص خاص بموضوع السبب ، وقد ينزل نص عام الصيغة :

١ ــ أما ان كان النص النازل خاصا بالسبب ولا عموم للفظه فان الآية حينئذ تقتصر عليه [٣] .

---

(١) البرهان ج ١ ص ٢٩ .

(٢) الآية : ٨٥ من سورة الاسراء وانظر البخاري ج ٦ ص ١٠٨ ــ ١٠٩ وصحيح مسلم ج ٨ ص ١٢٨ .

(٣) الاتقان ج ١ ص ٣٠ .

مثال ذلك قوله تعالى في سورة الليل : « وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى » .

هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق بالاجماع ، ومن هنا استدل بها الامام فخر الدين الرازي مع قوله تعالى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » على أن أبا بكر أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ .

أما من ظنّ أنها عامة في كل من عمل عمله فهذا غلط منه ، لأن هذه الآية ليس فيها صيغة عموم حتى نطبق عليها قاعدة : « العبرة لعموم اللفظ » .

٢ ــ واما أن يكون السبب خاصاً ولفظ الآية عاماً : فالمعتمد الذي عليه جمهور الفقهاء والأصوليين والمفسرين وغيرهم « أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب » .

ومن الأدلة على ذلك احتجاج الصحابة والتابعين فمن بعدهم في وقائع كثيرة بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة ، وكان ذلك الاستدلال شائعاً بينهم ، لاينكره أحد .

ويدل لذلك أيضاً أنه كما قال الامام الزركشي :

« قد جاءت آيات في مواضع اتفقوا على تعديتها الى غير أسبابها ، كنزول آية الظّهار في سلَمَة بن صخْر ، وآية اللعان في شأن هِلال بن أمية ، ونزول حدّ القذف في رماة عائشة رضي الله عنها ، ثم تعدّى الى غيرهم »[1] .

وهذه القاعدة من البدهيات ، لايمكن للعالم أن يخصص ألفاظ القرآن العامة «بأولئك الأعيان دون غيرهم ، فان هذا لايقوله مسلم ولا عاقل على الاطلاق » .

(١) البرهان ج ١ ص ٢٤ .

وعلى ذلك درجت القوانين في الدنيا كلها ، فان القانون يصدر لأسباب خاصة في أحيان كثيرة ثم يكون حكمه عاماً على الجميع .

أشهر المؤلفات في أسباب النزول :

وأول من عرفناه ألف في أسباب نزول القرآن الكريم شيخ البخاري الامام علي بن عبد الله المديني (المتوفى سنة ٢٣٤ هـ) ، ثم تتابعت المصنفات في ذلك ، لكنها لم تعن بالتنقيح ولم تلتزم ببيان السقيم من الروايات من الصحيح ، مما يلزم الدارس بالتثبت والتحقق .

وأهم الكتب المصنفة في ذلك هذان الكتابان المطبوعان :

١ ــ « أسباب النزول » للامام المفسر النحوي المحدث أبي الحسين علي بن أحمد النيسابوري الشهير بالواحدي ، المتوفى سنة ٤٢٧ هـ .

٢ ــ « لباب النقول في أسباب النزول » للامام المحدث الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) جرّده من الأسانيد وعزى كل حديث لمن أخرجه .

* * *

الفصل العاشر

في

المكي والمـدني

هذا الموضوع يدرس جوانب الظروف العامة التي أحاطت بنزول القـرآن . وليس قاصراً على ما يدل عليه ظاهر العبارة من تقسيم القرآن الى مكي نزل بمكة أو مدني نزل بالمدينة ، ومن هنا فان هذا الموضوع يحتل أهمية كبيرة في دراسة بلاغة القرآن ، لما يكشفه من توفر عميق لأصل البلاغة ومراعاة مقتضى الحال ، الى جانب توفر عنصر آخر من سمات اعجاز القرآن هو انعتاقه من قيـود الزمـان والمكان. وانطلاقة من إسار البيئة الضيقة ليحلق في علياء الموضوعية التي يخاطب بها الانسان في كل زمان ، وفي أي مكان .

ضابط المكي والمدني :

تعددت طرائق علماء هذا الفن في كيفية التمييز بين القرآن المكي والقـرآن المدني ، على ثلاثة نماذج نوضحها فيما يلي :

المذهب الأول : أن القرآن المكي هو ما نزل قبل الهجرة ، والقرآن المـدني هو ما نزل بعد الهجرة .

وهذا هو أشهر الاصطلاحات في المكي والمدني [1] ، ويمتاز بشمول تقسيمه

(١) كما ذكر السيوطي في الاتقان ج ١ ص ٩ .

جميع القرآن لايخرج عنه شيء ، حتى كان عموم قولهم في المدني : « ما نزل بعد الهجرة » يشمل ما نزل بعد الهجرة في مكة نفسها في عام الفتح أو عام حجة الوداع ، مثل آية « اليوم أكملت لكم دينكم ••• » •

كما يشمل ما نزل بعد الهجرة خارج المدينة في سفر من الأسفار أو غزوة من الغزوات •

روي عن يحيى بن سلام قال : « ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي ، وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدني » •

وهذا أثر هام ومفيد ، يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحاً[1] •

المذهب الثاني : أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة •

وهذا المذهب مكاني ، قد تقيد بالتسمية المكانية ، والتزم ظاهر التسمية ، وان كان شراحه أدخلوا في مكة ضواحيها ، فاعتبروا من القرآن المكي ما نزل بمنى وعرفات والحديبية ، ومن القرآن المدني ما نزل بأحد وسلع[2] •

لذلك كان في هذا الضابط ثلمة هي وجود قسم ثالث هو واسطة بين القسمين ، وهو ما نزل من القرآن في الأسفار ، فانه لايعد مكياً ولا مدنياً •••

المذهب الثالث : أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة •

(١) كما قال السيوطي في الاتقان ج ١ ص ٩ •

(٢) المرجع السابق وزاد في ضواحي المدينة ذكر « بدر » ، وهو مستبعد لبعدها الشاسع عن المدينة •

وفسّر بهذا قول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود : « كل شيء نزل فيه » « يا أيها الناس » فهو بمكة ، وكل شيء نزل فيه « يا أيهــا الذين آمنوا » فهــو بالمدينة (١) .

غير أنا نرى أن هذا الأثر ليس صالحاً للاستدلال لهذا المذهب لأن ابن مسعود لم يقصد وضع ضابط وتعريف للمكي والمدني ، إنما أراد بيان علامة من علامات القرآن المكي والمدني ، أو تفسير المراد بهذا الخطاب ، وهو أمر أغلبي ليس مضطردا دائما كما سيتضح .

وهذا المذهب في تفسير المكي والمدني أضيق من المذهب السابق ، لأنه قد تقيد بالأشخاص المعينين في أمكنة معينة ، وتقيد بموضوع معين هو ما كان فيه خطاب من آيات القرآن ، فبقي القسم الأكبر من القرآن خارج هذا المنهج في تعريف المكي والمدني .

ولهذا الذي ذكرناه في نقد المذهبين الثاني والثالث ، كان المذهب الأول أكثر قبولاً لدى العلماء ، حتى كان هو الأشهر كما ذكرنا .

ويندرج في ضمن المكي والمدني بنــاء على هذا المذهــب أنواع كثــيرة من الدراسات المتصلة بالظروف المحيطة بنزول القرآن كالسفري والحضري ، والليلي والنهاري ، وما حـُمِل من مكة الى المدينة ، وما حـُمِل من المدينة الى مكة ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي ، وما نزل بمكة وحكمه مدني ، وغير ذلك من دراسات تدل على الاعتناء العجيب الذي أحيط به هذا القــرآن ، وتوفــير وسائل دراسته من جميع الجهات .

وبناء على هذا الضابط المختار كان عدد السور المدنية تسعا وعشرين سورة .

---

(١) أخرجه الحاكم عن ابن مسعود ، ويشهد له ماورد بمثله عن كثير من المفسرين وعن ابن عباس . انظر البرهان ج ١ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

وسائر السور بعد ذلك مكية ، وقد يوجد في السورة المدنية ما هو مكي ، كما قد يوجد في السورة المكية ما هو مدني ، والنظر في ذلك لمطلع السورة إن نزل بمكة عُدَّتْ مكية ، وان نزل بالمدينة عدّت مدنية .

طريق معرفة المكي والمدني :

ذكروا لمعرفة المكي والمدني طريقتين لا ثالث لهما ، وهما : السماع والقياس (1) .

أما السماع : فالمراد به النقل عن النبي ﷺ ، أو عن الصحابة الذين عاينوا التنزيل .

وقد كانت عناية الصحابة والتابعين بهذه الأمور عناية بالغة حتى نجد العالم يعتز بعلمه بهذا الموضوع .

أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « والذي لا إله غيره ما من كتاب الله سورة الا أنا أعلم حيث نزلت وما من آية إلا أنا أعلم فيما أنزلت ... » (2) .

وأما القياس : فهو ضوابط عرفت بالاستقراء ، واستدل بها العلماء على المكي والمدني ، وكان ذلك موضع عناية المتقدمين .

١ ـ وأول هذه الضوابط ما سبق عن عبد الله بن مسعود : « كل شيء فيه « يا أيها الناس » فهو بمكة ، وكل شيء نزل فيه « يا أيها الذين آمنوا » فهو بالمدينة » . وهو ضابط أغلبي فثم بضع آيات فيها « يا أيها الناس » وهي مدنية .

٢ ـ كل سورة فيها الاستفتاح بالحروف المقطعة فهي مكية سوى الزهراوين : البقرة وآل عمران .

(1) البرهان نقلاً عن الجعبري أنه حددهما ج ١ ص ١٨٩ .

(2) البخاري ج ٦ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ومسلم ج ٧ ص ١٤٨ .

٣ ـ كل سورة فيها « كلا » فهي مكية •

٤ ـ كل سورة فيها ذكر آدم وابليس فهي مكية سوى السورة الطولى ـ أي البقرة ـ •

٥ ـ كل سورة فيها فريضة أو حدٌ فهي مدنية •

٦ ـ كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت •

والحكمة في ذلك ترجع الى المقاصد الموضوعية التي نزل بها القرآن ، فالخطاب في مكة كان لأمور اعتقادية تشمل كـل الناس ، وهي منـاط انسانيتهم ، فناسب خطابهم بـ « يا أيها الناس » كما أن محاورة أهل العناد تناسب حرف الردع « كلا » وكذلك التنويه باعجاز القرآن لافحام المنكرين ، والاستفتاح بحروف الهجـاء في أوائل السور ، وقد وجد من ذلك قليل في القرآن المدني تبعا لاقتضاء الموضوعات المدينة التي كانت فترة بناء وكانت فترة مكة فترة تأسيس •

ومن هنا كانت للقرآن المكي سِمات وللقرآن المدني سِمات :

فأما القرآن المكي فيعني بالعقائد والدلائل الكونية لتثبيت العقيدة وتقويتها ، ويكثر فيه أسلوب الشدة والوعظ بقصص الأنبياء مع أممهـم ، وبقصر الآيـات والجمل •

وأما القـرآن المدني فيتحدث عن الأحكام والمعاملات والمواريث ، والعلاقات بين المسلمين وغيرهم ، ويمتاز أسلوبه بالهدوء واللين غالباً ، ويكثر فيه طول الجمل والآيات ، لتناسب اغراضها الموضوعية •

وكل ما ذكر من السِّمات ليس حتماً قاطعاً ، بل قد يوجد في القـرآن المكي ما يحمل سمات القرآن المدني ، وبالعكس ، لأن القضية تابعة لملاءمة الموضـوع والمضمون الذي وردت به الآيات •

تعقيب على المكي والمدني :

ومن ذلك تتبين فساد ما توهمه بعض المستشرقين ، ومن تبعهم من ببغاوات تتلمذت عليهم من أبنائنا من توهم أو تصور ما زعم من تأثر القرآن بالبيئة ، وأن القرآن لما كان في مكة بين الأميين جاءت سور المكي وآياته القصيرة ، ولما وجد في المدينة بين مثقفين مستنيرين جاءت سور المدني وآياته طويلة ، وجاء القرآن المكي لذلك خلواً من التشريع والاحكام ، بينما القسم المدني مشحون بتفاصيل التشريع والأحكام بل بلغ الأمر بهذا الزاعم أن قال : « ان القسم المكي يمتاز بالحروب من المناقشة ، وبالخلو من المنطق والبراهين ، فيقول : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين » .

بخلاف القسم المدني فهو يناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين فيقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .

هكذا يستدل هذا الزاعم بهذه الاستدلالات على ما توهمه من تأثر القرآن بالبيئة ... (١) .

وهذا في الواقع تجنٍّ واختلاق ، صادر عن سفيه جهول ، أو آفك مغرض متحامل حقود ، ونورد إلماحات وجيزة لرد هذا الزعم فيما يلي :

١ ــ ان سمات المكي والمدني الاسلوبية وكذا الموضوعية خاضعة لقضية البلاغة الجوهرية والمسلمة لدى كل ذي المام بالبلاغة والبيان عربياً أو غير عربي وهي مراعاة مقتضى الحال ، كما ذكرنا منذ قليل ، لذلك نجد في المكي سورا طو الايل من

---

(١) انظر تفاصيل عبارات هذه الفقرة ومناقشتها في كتاب : مناهل العرفان ج ١ ص ١٩٨ ــ ٢٣٢ والمدخل الى دراسة القرآن الكريم لفضيلة أستاذنا الشيخ محمد أبو شهبة وقد عني بذكر عبارات هذا الزاعم بنصها ص ٢٣٢ ــ ٢٥١ .

أطول الطوال ونجد في المدني سورا قصارا وفيها الآيات والفقرات القصيرة ، بل من أقصر القصار ، كما في سورة « الفتح » وسورة « الكوثر » وهي أقصر سورة في القرآن وهي مدنية كما ثبت بذلك الحديث الصحيح الذي لايقاوم .

كذلك نجد في المدني شدة أحيانا ، كما في هذه الآيات من مطلع سورة « الصف » المدنية بالاتفاق :

« سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ، يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

بل نجد في المدني ما بلغ الغاية في الشدة والتخويف ، كما في قوله تعالى في سورة آل عمران [1] :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التي أعدّت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » .

كان الامام أبو حنيفة يقول [2] في هذه الآية : « واتقوا النار التي أعدت للكافرين » هي أخوف آية في القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه في اجتناب محارمه .

كما قد نجد كذلك في المكي اللين والعفو البالغ أقصاه ، كقوله تعالى في سورة « فصّلت » [3] :

« ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين

---

(١) الآيات ١٣٠ ـ ١٣٢ .

(٢) كما في تفسير الكشاف للزمخشري ج ١ ص.٣١٨ .

(٣) الآيات : ٢٣ ـ ٢٥ .

ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن : فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ».

٢ ــ ان ادعاء خلو القرآن المكي من الحجج والأدلة قلب للقضايا وعكس للأوضاع ومناقضة للحقائق ، فالقرآن المكي من سماته الموضوعية كما ذكرنا اعتناؤه بالدلائل العلمية الكونية على عظمة الله تعالى ووحدانيته : وعلى ابداع حكمته وجليل علمه وقدرته ، حتى كانت فيه دلائل الاعجاز العلمي الذي ألفت ولا تزال تؤلف الكتب في كشف عجائب هذا الاعجاز ، وأسرار دلالته على موافقة ما يكشفه العلم بعد هذه القرون والحقب الطوال .

وكذلك نجد في القرآن المكي الدلائل العقلية القاطعة على حقيقة التوحيد ، والقيامة ، وبعث الرسل وغير ذلك ، وقد سبقت لنا آيات من سورة « يس » في دلائل القيامة ، وانظر قوله تعالى في اثبات التوحيد في سورة «المؤمنون» المكية [1]:

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » .

٣ ــ ان هذا الزاعم قد حكم على نفسه بالجهل المطبق أو التجاهل والتجني المهلك فان الآية التي أوردها على أنها من المدني : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ، انما هي من القرآن المكي ، وهي الآية (٢٢) من سورة الأنبياء ، وهي مكية كلها ، وهذه الآية مكية بالاجماع .

وهكذا كان دأب الباطل ان يتخذ الافك وتحريف الحقائق ذريعة يسند اليها باطله وجحوده سواء كان صاحبه جاهليا قديما ، أو عصريا حديثا ، ويريد الله أن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الجاحدون .

(١) الآيتان : ٩١ ــ ٩٢ .

الفصل الحادي عشر

الأحرف السبعة

يجد الدارس لهذا الموضوع في دراسته هنا تطبيقا لأصل عظيم من الأصول التي جاءت بها الشريعة ، وهو مراعاة اليسر على الناس ورفع العسر والمشقة عنهم ، وموضع اليسر هنا هو ان يسهل على العرب أخذ كتاب الله تعالى ، والاهتداء بهداه .

تعريف الأحرف السبعة :

تعريف الحرف لغة : الحرف في أصل كلام العرب معناه الطرف والجانب وحرف السفينة والجبل جانبهما ، ومنه قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » (١) .

أي أن من الناس من لايدخل في الدين دخول متمكن ، فان أصابه خير أي خصب وكثر ماله أو ما شيته اطمأن به ، ورضي بدينه ، وإن أصابته فتنة اختبار بجدب وقلة مال انقلب على وجهه أي رجع عن دينه الى الكفر وعبادة الأوثان (١) .

تعريف الأحرف السبعة اصطلاحا : الأحرف السبعة سبعة أوجه فصيحة من اللغات والقراءات أنزل عليها القرآن الكريم .

---

(١) الآية ١١ من سورة الحج .

(٢) من تفسير الزجاج وقال بنحوه ابن قتيبة في كتابه « تاويل مشكل القرآن » ص ٧٢ ــ ٢٨ .

بيان الأحرف السبعة في الحديث النبوي :

ولما أن سبيل درس هذا الموضوع هو النقل الثابت الصحيح من الذي لاينطق عن الهوى ، ولا مجال للرأي والاجتهاد فيه الا لحسن الفهم ، والترجيح بين الآراء ، وبتعرف الصواب من الخطأ ، فانا نقدم نخبة من الأحاديث الثابتة تلقي لنا الضوء على هذا الموضوع فيما يلي :

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

« سمعت هشـام بن حكيم يقرأ سورة الفُرقان في حياة رسـول اللـه ﷺ ، فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقْرِئْنيها رسولُ الله ﷺ ، فكدت أساوره في الصـلاة فتصبَّرتُ حتى سلّم ، فلَبَّبْتُه بردائـه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ، قال : أقرأَنيها رسول الله ﷺ .

فقلت له كذبت ، أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقتُ به أقوده الى رسول الله ﷺ ، فقلت إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حـروف لـم تُقرئنيها ، فقال أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التي سمعته فقال رسـول الله ﷺ : كـذلك أُنزلت ، ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأ يا عمر ، فقرأتُ التي أقرأَني ، فقال : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه » .

متفق عليه (١)

عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال :

« كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله ﷺ . فقلت : ان هذا قرأ قرءة أنكرتها عليه . ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبـه . فأمرهما رسول الله ﷺ فقرأ ، فحَسَّنَ النبيُّ ﷺ شأنهما . فسقط في نفسي من

(١) البخاري ج ١ ص ١٨٤ ومسلم ج ٢ ص ٢٠٢ مختصراً .

التكذيب ولا إذْ كنتُ في الجاهلية . فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري فَفِضْتُ عَرَقاً ؛ وكأني انظر الى الله عز وجل فَرَقاً . فقال لي : يا أُبيّ أُرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف ؛ فرددتُ إليه أو هوّنْ على أمتي . فرد اليّ الثانية اقرأه على حرفين . فرددت إليه أن هوّن على أمتي ، فرد إليّ الثالثة : اقرأه على سبعة أحرف ، فلك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها ، فقلت : اللهم اغفر لأمتي ؛ اللهم اغفر لأمتي ، وأخرتُ الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم حتى ابراهيم ﷺ » . أخرجه مسلم (١)

وعن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه أيضاً :

« أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار ، قال : فأتاه جبريل عليه السلام فقال: ان الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وان أمتي لاتطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : ان الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وان أمتي لاتطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : ان الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وان أمتي لاتطيق ذلك ؛ ثم جاءه الرابعة فقال : ان الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا » .

أخرجه مسلم (١)

---

(١) صحيح مسلم في صلاة المسافرين (باب بيان أن القرآن انزل على سبعة أحرف) ج ٢ ص ٢٠٣ وانظر سنن أبي داوود في الصلاة ج ٢ ص ٧٦ والنسائي في مفاتيح الصلاة (باب جامع ما جاء في القرآن) ج ٢ ص ١٥٣ وتفسير الطبري رقم ٣٣ ، ٣٨ ، ٨٩ .

(٢) صحيح مسلم في صلاة المسافرين ج ٢ ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤ ، وأبو داود في الصلاة ج ٢ ص ٧٦ . والنسائي في مفاتيح الصلاة ج ٢ ص ١٥٢ ــ ١٥٣ وتفسير الطبري الاحاديث ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ و ٣٧ و ٤٦ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« أقرأني جبريل على حرف ، فلم أزل أستزيده ، ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف » • متفق عليه[1]

ولمسلم عن ابن شهاب قال :

«بلغني أن تلك السبعة الأحرف انما هي في الأمر الذي يكون واحداً ، لايختلف في حلال ولا حرام » •

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قصة اختلافه مع بعض الصحابة في القراءة وأنه راجع النبي ﷺ وعنده عليّ بن أبي طالب فقال علي رضي الله عنه : « ان رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرءوا كما عُلّمتم » • أخرجه الحاكم في المستدرك وأحمد والطبري وابن حبّان[1] •

دلالة هذه الأحاديث على أصول الموضوع :

دلت هذه الأحاديث على جملة قواعد هامة نوضحها فيما يلي :

١ ـ ثبوت التوسعة في انزال القرآن على سبعة أحرف ثبوتاً قاطعاً ، نظراً لصحة أسانيد الأحاديث الواردة في القضية صحة حازمة ، بل ان الحديث بلغ درجة التواتر الذي يفيد اليقين ، لكثرة أسانيده ورواته من الصحابة فمن بعدهم •

---

(١) البخاري في فضائل القرآن ج ٦ ص ١٨٤ و في بدء الخلق (باب ذكر الملائكة) ج ٤ ص ١١٣ ومسلم في صلاة المسافرين ج ٢ ص ٢٠٢ والمسند ج ١ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ٢٩٩ و ٣١٣ و تفسير الطبري حديث رقم ١٩ •

(٢) المستدرك في كتاب التفسير ج ٢ ص ٢٢٤ والمسند ج ١ ص ١٥٠ وتفسير الطبري حديث رقم (١٣) •

٢ ـ ان القراءة بأي حرف من هذه الأحرف يلزم فيها اتباع التلقي عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأول ما يدل على ذلك هذا التعبير « أنزل » الذي تواترت به الأحاديث فانه يدل على أنه نزل به الوحي .

ويدل على ذلك أيضاً دلائل كثيرة في نصوص الأحاديث ، مما يدل على أن المعيار في قبول الحرف أو رده ليس هو عدم إلفته من السامع ، ولا كونه لهجة غير مألوفة له ، إنما الأساس في الموضوع كله هو السماع والتلقي عن رسول الله ﷺ أو عدم التلقي عنه .

ومما يدل على بطلان تفويض القراءة للقارىء بما يختاره من تلقاء نفسه أن ذلك يؤدي الى ذهاب اعجاز القرآن وتعريضه لأن يبدّل ، وذلك خلاف قوله تعالى : « انا نحن نزّلنا الذكر وانا له لحافظون » .

ثم ان التغيير والتبديل بمرادف أو بغير مرادف مرفوض بقوله تعالى في سورة يونس : « وقال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي ان أتّبع الا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيتُ ربي عذابَ يومٍ عظيم » . فاذا كان هذا ليس من حق النبي نفسه ﷺ ، فكيف يسوّغ ذلك في حق أحد من الناس ؟ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث السابق « هكذا أنزلت » .

٣ ـ تثبت عبارات الأحاديث المفصلة الواردة في الأحرف السبعة أصلا هاما يجب أن لايغيب عن بال الباحث في تفسير الأحرف السبعة ، وهو أنها وجوه في أداء الألفاظ فقط ، أي كيفيات في القراءة ، وجه الدلالة على ذلك أن الخلاف بين الصحابة في القراءة انما وقع حول قراءة الألفاظ ، ولم يكن اختلافا في تفسير المعاني ، انظر الى قول عمر بن الخطاب : « فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله

ﷺ » ، وهكذا سائر العبارات تشير الى أن القضية كانت تدور حول كيفية قراءة الألفاظ ، لاتفسير المعاني .

الأحرف السبعة والقراءات السبع :

دلتنا النصوص التي درسناها ومحصنا دلالاتها على أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات نزل بها القرآن ، ونود أن ننبه بأن الأحرف السبعة ليست هي القراءات السبع المشهورة ، التي يظن كثير من عامة الناس انها الأحرف السبعة . وهو خطأ عظيم ناشيء عن الخلط وعدم التمييز بين الأحرف السبعة والقراءات .

وهذه القراءات السبع انما عرفت واشتهرت في القرن الرابع ، على يد الامام المقرىء ابن مجاهد الذي اجتهد في تأليف كتاب في القراءات ، فاتفق له أن جاءت هذه السبعة موافقة لعدد الأحرف ، فلو كانت الأحرف السبعة هي القراءات السبع لكان معنى ذلك أن يكون فهم أحاديث الأحرف السبعة بل العمل بها أيضاً متوقفا حتى يأتي ابن مجاهد ويخرجها للناس ...

وقد كثر تنبيه العلماء في مختلف العصور على التفريق بين القراءات السبع والأحرف السبعة ، والتحذير من الخلط بينها (١) .

ما هي حقيقة الأحرف السبعة :

اذا بحثنا بعد هذا عن حقيقة الأحرف السبعة بدقة نجد أمامنا مذاهب تجتهد في تفسير المراد بهذه الأحرف ، وتحاول تبيين الاختلاف في كيفية أداء ألفاظ القرآن على الأوجه السبعة التي نزل بها القرآن ، ولعل هذا الخلاف ان يكون مستغربا مع اتفاق أصحاب هذا المنهج على أن المراد بالاحرف السبعة سبعة أوجه في قراءة القرآن ، وقد هدانا البحث الى معرفة سبب هذا الاختلاف ، وهو اختلاف الطريقة التي توصل الى تحديد هذه الأحرف :

(١) انظر كلماتهم في النشر ج ١ ص ٣٦ و ٣٩ و ٤٠ و ٤٦ وفتح الباري ج ٩ ص ٢٥ .

ذهب بعض العلماء الى استخراج الأحرف السبعة باستقراء أوجه الخلاف الواردة في قراءات القرآن كلها صحيحها وسقيمها ، ثم تصنيف هذه الأوجه سبعة أصناف، بينما عمد آخرون الى التماس الأحرف السبعة في لغات العرب . فتكوّن بذلك مذهبان رئيسيان . نذكر نموذجا عن كل منهما فيما يلي :

المذهب الاول :

مذهب استقراء أوجه الخلاف في لغات العرب ، وفي القراءات كلها ثم تصنيفها وقد تعرض هذا المذهب لتنقيح على يد أنصاره الذين تتابعوا عليه ، ونكتفي هنا بأهم تنقيح وتصنيف لها فيما نرى ، وهو تصنيف الامام الرازي نسوقه فيما يلي :

قال أبو الفضل عبد الرحمن الرازي :

« فمن التأويلات التي يحتملها الخبر ولم يتقدم على نظامه تأويل هو أن كل حرف من الأحرف السبعة المنزلة جنس ذو نوع من الاختلاف » .

ـ أحدها : اختلاف أوزان الأسماء من الواحد والتثنية والجموع والتذكير والمبالغة وغيرها . ومن أمثلته : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وقرىء « لأمانتهم » بالافراد .

ـ والثاني : اختلاف تصريف الافعال وما يسند اليه ، نحو الماضي والمستقبل والأمر . وأن يسند الى المذكر والمؤنث والمتكلم والمخاطب والفاعل والمفعول به .

ومن أمثلته : « قالوا ربنا باعد بين أسفارنا » بصيغة الدعاء ، وقرىء : « ربنا بعّد » فعلا ماضيا .

ـ الثالث وجوه الاعراب : ومن أمثلته : « ولا يضارّ كاتب ولا شهيد » قرىء بفتح الراء وضمّها ، « ذو العرش المجيد » برفع « المجيد » وجره .

ـ الرابع : الزيادة والنقص : مثل : « وما خلق الذكـر والانثى » قـرئ « والذكَر والانثى » •

ـ الخامس : التقديم والتأخير : مثـل : « فيقتلـون ويقتلون » ، قـرئ « فيقتلون ويقتلون » ، ومثل : « وجـاءت سكرة المـوت بالحـق » ، وقرئ : « وجاءت سكرة الحق بالموت » •

ـ السادس : القلب والابدال في كلمة بأخرى ، أو حرف بآخـر : مثـل : « وانظر الى العظام كيف ننشزها » بالزاي ، وقرىء : « ننشرها » بالراء •

ـ السابع : اختلاف اللغات : مثل : « هل أتاك حديث موسى » تقرأ بالفتح والامالة في « أتى » و « موسى » وغير ذلك من ترقيق وتفخيـم ، وادغـام ••• وهكذا •••

ثم قال أبو الفضل الرازي : « ••• فهذا التأويل مما جمع شـواذ القـراءات ومشاهيرها ومناسيخها على موافقة الرسم ومخالفته ، وكذلك سائر الكلام لاينفك اختلافه من هذه الأجناس السبعة المتنوعة ، فان وافق هذا التأويل معنى الخبـر (أي حديث الأحرف السبعة) حذواً بحذو فقد أصاب من اتخذ به ، وإن لم يوافقه فلا شك في دخول معنى الخبر تحت هذه الوجوه ، وان لم يكن مرتباً عليها » (١) •

المذهب الثاني :

إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات قبائل العرب الفصيحة • وذلك لأن المعنى الأصلي للحرف هو اللغة ، فأنزل القرآن على سبع لغات مراعيـاً ما بينها من الفوارق التي لم يألفها بعض العرب ، فأنزل الله القرآن بما يألف ويعرف هؤلاء

(١) « الأحرف السبعة في القرآن » ص ١٠٠ نقلاً عن كتاب أبي الفضل الرازي نفسه وهو مخطط محفوظ في مكتبة الأوقاف بحلب . وانظر فتح الباري ج ٩ ص ٢٣ ـ ٢٤ ومناهل العرفان ج ١ ص ١٤٩ •

وهؤلاء من أصحاب اللغات ، حتى نزل في القرآن من القراءات ما يسهل على جل العرب ان لم يكن كلهم ، وبذلك كان القرآن نازلاً بلسان قريش والعرب كما قاله الامام البخاري في صحيحه .

وقال جماعة من العلماء أن هذه اللغات هي لغات : قريش ، وهذيل ، وتميم ، وأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر [1] .

والحاصل أن هذان المذهبان أقوى ما قيل في تفسير حقيقة الأحرف السبعة . ولا خلاف بينهما في النتيجة ، لأن أحدهما يبين أوجه الاختلاف ، والثاني ما تنطبق عليه هذه الاوجه من لغات العرب . وهما يحققان ما وردت به الأحاديث من نزول القرآن على سبعة أحرف يُقرأ بها .

اين الأحرف الستة :

ذلك ما تبين بالأدلة من حقيقة الأحرف السبعة ، والقول الصحيح فيها الذي يجب أن لايخرج عنه الباحث ، فأين هي الأحرف السبعة ، هل ما يقرأ به المسلمون من القراءات اليوم يشتمل على الأحرف السبعة ويحققها ، أو أنه حرف واحد ، وأين هي الستة الباقية اذن .

يرى المحققون في هذا الموضوع كالامام الباقلاني وغيره أن الأحرف السبعة باقية وأن المصاحف العثمانية التي استنسخها عثمان بن عفان رضي الله عنه قد اشتملت على الأحرف السبعة جميعاً .

وهذه عبارات الامام المحقق أبي بكر الباقلاني تلقي الضوء ساطعاً على القضية ، قال رحمه الله ورضي عنه :

« لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين ، وانما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ ، والغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم

(١) البرهان ج ١ ص ٢١٧ .

بمصحف لاتقديم فيه ولا تأخير ، ولا تأويل أثبت مع تنزيل ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ... » [1] .

« ... لأن القوم عندنا لم يختلفوا في هذه الحروف المشهورة عن الرسول ﷺ التي لم يمت حتى علم من دينه أنه أقرأ بها ، وصوّب المختلفين فيها ، وانما اختلفوا في قراءات ووجوه أخر لم تثبت عن الرسول عليه السلام ، ولم تقم بها حجة ، وكانت تجيء مجيء الآحاد ومالا يعلم ثبوته وصحته وكان منهم من يقرأ التأويل مع التنزيل، نحو قوله : « والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر » [2] . « فان فاءوا فيهن » [3]، و « لاجناح عليكم أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج » [4] ... فمنع عثمان من هذا الذي لم يثبت ولم تقم الحجة به ، وأحرقه وأخذهم بالمتعين المعلوم من قراءات الرسول عليه السلام ... [5] » .

* * *

(١) انظر البرهان ج ١ ص ٢٣٥ وشرح صحيح مسلم للنووي ج ٦ ص ١٠٠ .

(٢) أصل الآية « حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » وورد عن بعض الصحابة زيادة « وهي صلاة العصر » ، وهي قراءة تفسيرية . وقد ثبت عن النبي ﷺ تفسير الصلاة الوسطى أنها صلاة العصر .

(٣) الآية أصلها في المرأة يحلف زوجها لايقربها : « فان فاءوا فان الله غفور رحيم » وقراءة « فيهن » تفسيرية .

(٤) الآية في بيان بعض أحكام الحج ، وجواز تعاطي التجارة ونحوها للمحرم بالحج وقوله « في مواسم الحج » تفسير ليس من الآية .

(٥) الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها ص ١٧٤ ــ ١٧٥ نقلاً عن الانتصار للباقلاني مخطوط ج ١ ورقة ١١٣ .

الفصل الثاني عشر

القراءات والقراء

تعريف القراءة :

القراءة في اللغة : مصدر لقرأ .

وفي الاصطلاح : « القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة » (1) .

وقولهم : كلمات القرآن : أي كلمة كلمة من أول القرآن الى آخره . ببيان ما يندرج تحت قاعدة عامة ، وما هو حالة خاصة . مثل السكوت اللطيف على « عوجاً » من الكهف .

وقولهم : بعزو الناقلة : أي أن هذا العلم ثابت بالنقل الثابت المتواتر عن النبي ﷺ ، لا مصدر له سوى النقل والتلقين الشفاهي .

والمقرىء : العالم بالقراءات ، الذي رواها مشافهة بالتلقي عن أهلها الى أن يبلغ النبي ﷺ ، فلو حفظ كتاب التيسير » في القراءات مثلاً فليس له أن يقرأ بما فيه إن لم يشافهه من شوفه به مسلسلاً ، لأن في القراءات أشياء لاتحكم الا

---

(1) منجد المقرئين لابن الجزري ص ٣ . وانظر تعريفا آخر في مناهل العرفان ج ١ ص ٤٠٥ .

بالسماع والمشافهة »[1] .

ضابط القراءة المقبولة :

ولما كان النقل بعزو الناقلة يختلف قوة وضعفاً بحسب حال الناقلة ، فقد احتاج الأمر الى ضابط تميز به القراءاة المقبولة وغير المقبولة .

وقد ضبط علماء القراءات القراءة المقبولة بقاعدة مشهورة متفق عليها بينهم ، وهي :

« كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت رسم أحد المصاحف ولو احتمالاً ، وصح سندها فهي القراءة الصحيحة »[2] .

ويتبين من هذا الضابط ثلاثة شروط يتوقف قبول القراءة على اجتماعها كلها وهي :

الشرط الأول : موافقة العربية ولو بوجه :

ومعنى هذا الشرط أن تكون القراءة موافقة لوجه من وجوه النحو ، ولو كان مختلفاً فيه اختلافاً لايضر مثله ، فلا يصح مثلاً الاعتراض على قراءة حمزة : « واتقوا الله الذي تَساءَلون به والأرحامِ » ، بجر الأرحام بأنه عطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار ، وهو خلاف مذهب البصريين ، لأنا نقول إن الكوفيين يجيزون مثل هذا العطف ، وهكذا ...

الشرط الثاني : موافقة خط أحد المصاحف ولو احتمالاً :

وذلك أن النطق بالكلمة قد يوافق رسم المصحف تحقيقاً ، إذا كان مطابقاً للمكتوب ، وقد يوافقه احتمالاً أو تقديراً باعتبار ما عرفنا أن رسم المصحف له أصول خاصة به تسمح بقراءته على أكثر من وجه .

---

(١) منجد المقرئين ص ٣ .

(٢) النشر بتصرف يسير ج ١ ص ٩ .

مثال ذلك : « ملك يـوم الدين » رسمت « ملك » بدون ألـف في جميع المصاحف ، فمن قرأ « ملك يوم الدين » بدون ألف موافق للرسم تحقيقاً ، ومن قرأ « ما لك » فهو موافق تقديراً ، لحذف هذه الألف من الخط اختصاراً •

الشرط الثالث : صحة السند : وهو أن يروي القراءة عدل ضابط عن مثله الى رسول الله ﷺ من غير شذوذ ولا علّة •

ويشترط في هذه القراءة أن تنال ثقة أئمة القراء الضابطـين ، بحيث تكـون مشهورة لديهم متلقاة بالقبول عندهم •

وقد يتساءل من لم يَتَمَعَّنْ حقيقة المسألة ، كيف يكفي لقبول القراءة صحة السند مع أن القرآن لايثبت إلا بالتواتر ؟ •

والجواب عن هذا التساؤل من أوجه كثيرة نكتفي بما سبق أن ذكرنـاه أن القراءة ثابتة بنقل أهل المنطقة كلهم ، لكن بحكم قانون الانتخاب الطبيعي يوجـد أفراد يفوقون أهل عصرهم ، حتى يكونوا مرجعاً لهم ، وكذلك شأن هؤلاء القراء فان السند وان تصل بخبر صحيح ظاهراً لكنه متواتـر في الحقيقة ، لذلك قالـوا يشترط أن تنال ثقة الأئمة وتكون مشهورة بينهم •

أنواع القراءات حسب أسانيدها :

وبالنظر لما ذكرناه فقد قسّموا القراءات بحسب أسانيدها ستة أقسام ، وبينوا حكم كل نوع ودرجته من حيث القبول أو الرد ، وهذه الأقسام هي :

الأول : المتواتر : وهو ما نقله جمع غفير لايمكن تواطؤهم على الكذب عـن مثلهم الى منتهى السند ، وهذا النوع هو غالب القراءات •

الثاني : المشهور : وهو ما صح سنده واستوفى شـروط القـراءة الصحيحة واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ ، وهذا تصح القراءة به ، ولا يجوز رده ، ولا يحل انكاره •

الثالث : الآحاد : وهو ما صحّ سنده وخالف الرسم أو العربية ، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور ، وهذا لاتجوز القراءة به .

الرابع : الشاذ : وهو مالم يصح سنده ولو وافق رسم المصحف والعربية مثل قراءة : « ملك يوم الدين » ، بصيغة الماضي في « ملك » ونصب « يوم » مفعولاً .

الخامس : الموضوع : وهو المختلق المكذوب .

السادس : ما يشبه المدرج من أنواع الحديث ، وهو ما زيد في القـراءة على وجه التفسير كما نقل عن ابن عباس أنه قرأ « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا » . فكلمة صالحة ليست قرآن ، إنما هي تفسير .

وهذه الأنواع الثلاثة الأخيرة لاتحل القراءة بها ، بالأحرى والأولى إذا كانت قراءة الآحاد لاتجوز القراءة بها ، ويعاقب من قرأ بها .

القراءات المتواترة وقراؤها :

من الضروري والطبيعي أن يشتهر في كل عصر جماعة من القراء ، في كل طبقة من طبقات الأمة ، يتفوقون في حفظ القرآن واتقان ضبط أدائه ، والتصدي والتفرغ لتعليمه ، من عصـر الصحابة ، ثم التابعين ، وأتباعهم ، وهكذا ، وكان من القـراء من بلغ الـذروة في الاتقـان والضبط ، كما كان ثمـة قـراء دونهم ، وآخـرون ليسوا من أهل الاتقان ، فقام العلماء بتمحيص هذه القراءات ودراسة أحـوالها ، وبينوا للناس المتواتر منها .

واعتباراً من عصر التابعين انتشرت القراءات كثيراً فشعرت طائفة من أهل العلم بضرورة الاحتياط للقرآن وقراءاته ، فنهض كل امام بضبط القراءة عـن الأئمـة المقـرئين وهكـذا في العصـور التاليـة ، ثم أودعت تلك القـراءات في مؤلفـات خاصة ، كما فعله أبو عبيدة ثم الطبري ومن جاء بعد ...

ثم جاء الامام أحمد بن موسى العباس المشهور بابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤، فأفرد القراءات السبع المعروفة فدونها في كتابه « القراءات السبع » فاحتلت مكانتها في التدوين وأصبح علمها مفرداً يقصدها طلاب القراءات .

وقد بنى اختياره هذا على شروط عالية جداً ، فلم يأخذ إلا عن الامام الذي اشتهر بالضبط والأمانة ، وطول العمر في ملازمة الاقراء ، مع الاتفاق على الأخذ منه ، والتلقي عنه ، فكان له من ذلك قراءات هؤلاء السبعة وهم :

١ ــ عبد الله بن كثير الداري المكي المتوفى سنة ١٢٠ هـ .

٢ ــ عبد الله بن عامر اليحصبي الشامي المتوفى سنة ١١٨ هـ .

٣ ــ عاصم بن أبي النَّجُودِ الأسدي الكوفي المتوفى سنة ١٢٧ هـ .

٤ ــ أبو عمرو زبّان بن العلاء البصري المتوفى سنة ١٥٤ هـ .

٥ ــ حمزة بن حبيب الزيات الكوفي المتوفى سنة ١٥٦ هـ .

٦ ــ نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني المتوفى سنة ١٦٩ هـ .

٧ ــ أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي الكوفي المتوفى سنة١٨٩هـ.

وقد تابع العلماء البحث لتحديد القراءات المتواترة ، حتى استقر الاعتماد العلمي واشتهر على زيادة ثلاث قراءات أخرى ، أضيفت الى السبع فأصبح مجموع المتواتر من القراءات عشر قراءات ، وهذه القراءات الثلاث هي قراءات هؤلاء الأئمة :

٨ ــ أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني المتوفى سنة ١٣٠ هـ .

٩ ــ يعقوب بن اسحاق الحضرمي المتوفى سنة ٢٠٥ هـ .

١٠ ــ خلف بن هشام ، المتوفى سنة ٢٢٩ هـ .

شبهات بعض المستشرقين حول القراءات :

دأب بعض المستشرقين على محاولة التشكيك بالقرآن العظيم وتشويش أذهان الناس . ولما أن القرآن محوط بأعظم أنواع الحفظ والصيانة في نقله وأدائه بالسطور والصدور ، كان سبيل هذه الشبهات هو المغالطة وتجاهل الحقائق الثابتة ، وكذلك فعل المستشرق جولد تسيهر في موضوع القراءات . قال جولدتسيهر [1] : « وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات الى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف النقط الموضوعية فوق هذا الهيكل أو تحته ، وعدد تلك النقاط ، بل كذلك في حال تساوي المقادير الصوتية : يدعو اختلاف الحركات الذي لايوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدده الى اختلاف مواقع الاعراب للكلمة ، وهذا الى اختلاف دلالتها . واذن فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط أو اختلاف الحركات في المحصول الموحد القالب من الحروف الصامتة كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطاً أصلاً ، أولم تتحر الدقة في نقطه أو تحريكه » .

هكذا يحاول هذا المستشرق نسبة القراءات الى تصرف فردي واختيار شخصي مصادماً الوقائع الثابتة والحقائق القطعية ونكتفي منها بما يلي :

١ ــ أن أحداً لم يقبل القرآن إلا موافقاً للمتلقى عن النبي ﷺ ، وقد مرّت بنا الأحاديث واختلافات الصحابة لكون أحدهم سمع قراءة لم يسمعها من النبي ﷺ ، وبالتالي كان من شرط القراءة المقبولة التلقي بواسطة سلسلة الأسانيد .

وقد أحسّ جولد تسيهر بهذا الضعف الخطير ، فراح يستره بما هو أعظم ، فادعى أن اشتراط صحة الرواية لايحد من حرية القراءة ، لأنه ليس عسيراً ــ في زعمه ــ أن يسند المرء قراءته الى ثقات معترف بهم فتحرز قراءته القبول [1] .

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامي ص ٨

وهذا الزعم من تسيهر يكشف عن جهله بحقائق مصطلح الحديث ، أو تجاهله المتعمد لحقائق هذا العلم ، فإنه ليس يصح الحديث بمجرد الادعاء ونسبة القراءة أو الرواية الى ثقة معرف به ، بل هناك شروط الراوي ومنها العدالة والضبط ، وهناك شروط سلسلة السند ، وهناك السلامة من الشذوذ والعلة ، وما في ذلك من تفاصيل تجعل من المتعذر حصول الاعتراف بقراءة أو رواية غير ثابتة على الحقيقة . فضلاً عن أن حقيقة المطلوب في القراءة المقبولة هو التواتر كما حققناه .

٢ ــ لو كان ثمة تسامح في القراءة وفق رسم المصحف من غير توقيف على التلقي لوجب أن يكون عدد القراءات كثيراً كثرة تبلغ أضعافاً هائلة بالنسبة للقراءات الثابتة التي دققها العلماء وحققوا صحة سندها وتواترها ؛ وقد اعترف جولد تسيهر نفسه بقراءات يسمح بها الخط ، لكنها اعتبرت عند العلماء منكرة ، مثل قراءة « تستكثرون » في قوله تعالى (١) : « ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفون كلاً بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » .

ومثل قراءة حماد الراوية « أباه » عوضاً عن « إياه » في قوله تعالى (٢) : « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه » .

ولو كان مجرد موافقة الخط كافياً لاعتمدت هذه القراءات ... ، وحسبنا هذا دليلاً على أن مجرد موافقة الخط لم يكن هو العمدة في صحة القراءة .

٣ ــ إن فذلكة تسيهر للموضوع جرت على قلب القضية من أساسها ، وذلك أنه ليس هناك أي اختلاف في أن تجريد المصاحف العثمانية من الشكل والنقط كان بقصد استيعاب الأحرف المروية الثابتة من قبل عن النبي ﷺ كما سبق بيانه ، لكن هذا الزاعم قلب القضية وجعل هذا الرسم للمصحف سبباً لظهور القراءات فيما بعد بزعمه الباطل .

---

(١) الآية (٤٨) من سورة الأعراف .

(٢) الآية (١١٤) من سورة التوبة .

القراءات الشاذة :

القراءة الشاذة : هي كل قراءة لم يتوفر فيها شرط واحد من شروط القراءة الصحيحة التي سبقت في ضابط القراءة الصحيحة .

وهذا الاطلاق للشذوذ قديم ، وكان الأصل فيه اطلاق الشذوذ على ما خالف رسم المصحف ، واستوفى سائر الشروط ، ويطلق على القراءة التي استوفت الشروط إلا أن سندها ضعيف : « رواية ضعيفة » : كما أطلقوا عليها وصف : « الشذوذ » أيضاً على سبيل التوسع . أما إذا لم يوجد للقراءة سند فإنها تكون رواية مكذوبة مختلقة ، يكفر متعمدها حتى لو وافقت المعنى ورسم المصحف .

أما حكم القراءة الشاذة فيتلخص بما يلي :

١ ـ يحرم القراءة بها ، ولا تجوز الصلاة بها ، لأنها ليست قرآناً ، ويعاقب القارىء بها ويستتاب .

٢ ـ ذهب كثير من الفقهاء ومنهم الشافعية الى عدم الاحتجاج بالقراءة الشاذة ، لأنها زُعِمَتْ قرآناً ولم يثبت ذلك .

وخالف الحنفية فقالوا : يجوز الاحتجاج بها في الأحكام ، لأنها من قبيل التفسير ، والظاهر أنه تفسير نقله الصحابي عن النبي ﷺ .

٣ ـ أما الاحتجاج بالقراءات الشاذة في اللغة فالراجح قبولها ، لأنها لا تقل عن كثير من شواهد النحويين واللغويين .

وبعد :

فان للاحرف السبعة والقراءات أهمية بالغة ، لما جاءت به من فوائد في تنزيل القرآن وحفظ لغات العرب ولهجاتها . ولزيادة الدلالة على إعجاز القرآن ، فانها

تؤيد بعضها بعضاً ، كما أن نظم القـرآن المعجز يجري في كل قراءاته على ما هو عليه من الاعجاز : جزالة أو تتابع سرد ، ونغم موسيقي ، مع كثرة أوجه القراءات ، مما يزيد الدلالة على اعجاز القرآن الكريم [1] .



---

(1) انظر التوسع في حكم نزول القرآن على سبعة أحرف وقراءاته في تفسير الطبري ج ١ ص ٧٠ ــ ٧١ والأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها للدكتور حسـن ضياء الدين عتر ص ١٣٨ ــ ١٤٦ وغيرهما .

الفصل الثالث عشر

في

المحكم والمتشابه

تعريفهما لغة :

الاحكام لغة : الاتقان البالغ ومنه البناء المحكم الذي أتقن فلا يتطرق إليه الخلل أو الفساد وأما المتشابه : فهو في أصل اللغة : من الشبه وهو التماثل بين شيئين أو أشياء . ولما كان التماثل بين الأشياء يؤدي الى الشك والحيرة ، ويوقع في الالتباس توسعوا في اللفظ ، وأطلقوا « متشابه » و « مشتبه » على كل ما غمض ودق .

موضوع البحث :

وليس موضوع هذا البحث تفصيل أوجه الاحكام والتشابه اللذين وردا فيما سبق ، وانما موضوع البحث وصف القرآن حسبما ورد النص عليه صراحة في سورة آل عمران في هذه الآية من مطلعها :

« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ؛ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » .

فقد دلّت الآية على أن من القرآن ما هو محكم ، ومنه ما هو متشابه ، فما هو المراد بهما هاهنا ؟...

لقد تعددت الآراء في تعريف المحكم والمتشابه المذكورين في هذه الآية وكان السبب في ذلك اختلاف الوجهة التي ينظر منها صاحب كل رأي .

ولعلنا إذا نظرنا الى سياق الآية نخلص الى ترجيح رأي الامام الطيبي .

تعريفهما اصطلاحاً :

المحكم : هو الواضح المعنى الذي لايتطرق إليه إشكال .

والمتشابه : هو الذي طرأ عليه خفاء في المعنى المراد منه [1] .

فان سياق الآية يؤيد هذا ، لأنه تعالى جعل المحكم مقابلاً للمتشابه ، فينبغي أن يفسر بما يقابله ، وأشار الى أن المتشابه يحتاج الى تأويل ، الأمّ فيه أي المرجع والأصل الذي يجب التعويل عليه هو المحكم .

ويؤيد هذا الاتجاه أيضاً تقسيمهم للفظ من حيث دلالته على المعنى :

وذلك أن اللفظ الذي يقبل معنى إما أن يحتمل معنى آخر أو لايحتمل ، فالذي لايحتمل معنى آخر يسمى « النص » ، والذي يحتمل معنى آخر ، إن كانت دلالته على أحد المعنيين أرجح فهو « الظاهر » وإن لم تكن أرجح فان كانت دلالته على المعنيين متساوية فهو « المشترك » ، وإن كانت دلالته عليهما غير متساوية لكن المراد به هو المعنى الأبعد عن الظاهر فهو « المؤول » .

وعلى هذا نقول : المحكم هو ما كان من الألفاظ دالاً على المعنى « نصاً » أو « ظاهراً » ، والمتشابه هو ما كان « مشتركاً » أو « مؤولاً » .

---

(1) انظر رأي الطيبي في الاتقان ج ٢ ص ٤

هل يمكن تفسير المتشابه :

وبالنظر لغموض المتشابه وخطورة البحث فيه لكونه بحثاً في كلام الله تعالى اختلفت الآراء فيه ، هل هو مما يمكن الاطلاع على علمه ، أولا يمكن الاطلاع على علمه ، ولا يعلمه الا الله •

وقد أرجعوا السبب في هذا الاختلاف الى الاختلاف في آية آل عمران السابقة وقوله تعالى فيها : « وما يعلمُ تأويلَه إلا اللهُ والراسخُونَ في العِلْمِ يقولونَ آمَنّا به كلٌ مِنْ عندِ رَبِّنا •• » •

فذهب بعض أهل العلم الى أن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه ، وفسروا الآية على أن قوله « والراسخون » معطوف على قوله « إلا الله » وقوله « يقولون » في محل نصب حال ، والمعنى أن الله هو الذي يعلم تأويله وكذا الراسخون في العلم حال كونهم قائلين « آمنا به كل من عند ربنا » ، وتكون الآية دالة على أن الراسخين في العلم أي الثابتين المتمكنين فيه يعلمون تأويله •

وذهب كثير من أئمة العلماء المتقدمين والمتأخرين الى أن المتشابه لايطلع على علمه إلا الله تعالى ، واستدلوا بالآية نفسها كذلك وقالوا : ان قوله تعالى : « إلا الله» نهاية الكلام السابق ، وقوله : « والراسخون » مبتدأ ، وجملة « يقولون » في محل رفع خبر ، والمعنى « وما يعلم تأويله إلا الله » •

ثم استأنف ويقول الراسخون في العلم آمنا به كل من عند ربنا ، أي كل من المحكم والمتشابه من عند ربنا تبارك وتعالى ، لافرق بينهما في الايمان والخضوع ، وكل واحد منهما يصدق الآخر ، وليس شيء من عند الله بمختلف ولا بمتناقض •

ونحن اذا أمعنا النظر في الموضوع من أصله ، وبحثنا منطلقات الفريقين نجد أنهما متقاربان ، وأن الخلاف ليس جوهرياً ، وانما هو خلاف فرعي ناشيء عن اختلافهم في حقيقة المتشابه •

وذلك أن الذين قالوا لا يعلم المتشابه الا الله أدخلوا في المتشابه قضايا من الغيب مثل قيام الساعة ، وخروج الدجال ، وحقائق العوالم الأخرى ، بل إن فهم من قصر المتشابه على هذه القضايا ونحوها من مبهمات القرآن •

وهذه أمور قد استأثر الله بعلمها ، لاخلاف في ذلك بينهم اطلاقاً • وأما الذين قالوا أن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه فلم يدخلوا فيه هذه القضايا ، فبقي الموضوع في اطار ما يمكن بحثه لهذه النخبة من أئمة العلم والدين • وثمة أمر آخر له أثره في اختلاف الآراء ، هو تحديد حقيقة التأويل ، أو بعبارة أخرى المدى الذي يبلغه التأويل ، فإن أريد التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ••• ومنه قوله تعالى : « هل يَنْظُرونَ إلا تأويلـه • يومَ يأتـي تأويلُه يقـولُ الـذين نَسُوه ••• »أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد ، فان اريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة « إلا الله » ، لأن حقائق الأمور وكنهها لايعلمه على الجلية إلا الله عز وجل •••

وأما ان أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء ، كقوله : « نبئنا بتأويله » أي بتفسيره ، فان أريد به هذا المعنى فالوقف على « والراسخون في العلم » •

لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار ، وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه •

كيف نفسر المتشابهات :

لما كانت المتشابهات تقع في القرآن الكريم في موضوعات متعددة فانها تنقسم الى أكثر من قسم نكتفي منها هنا بأهم ما يجب على دارس الشريعة معرفته وهو متشابه الصفات •

متشابه الصفات :

المراد من « متشابه الصفات » الآيات المشكلة الواردة في شأن الله تعالى ، مما قد يوهم من لم يتمعن الكلام تشبيهاً لله تعالى بخلقه ، كقوله تعالى « الرحمن على

العرش استوى » ، وقوله « يد الله فوق أيديهم » ، وغير ذلك وتسمى أيضاً « آيات الصفات » .

وقد حظيت هذه الآيات بالاعتناء الكبير ، حتى أفردت نوعاً خاصاً من علوم القرآن ، وصنفت فيها كتب خاصة أفردت بدراستها ؛ لأهمية موضوعها أو لأنه كثر فيها القول ، وكانت فتنة ارتكس فيها بعض القدامى والمحدثين .

ومن الكتب المصنفة فيها كتاب « رد المتشابهات الى الآيات المحكمات » لابن اللبان ، وقد اختلفت الآراء في هذه المسألة بما يمكن حصر المقبول منه في هذين المذهبين المشهورين :

المذهب الأول : مذهب السلف : وهو تفويض علم حقيقة معاني هذه المتشابهات إلى الله وحده ، مع اعتقاد تنزيهه تعالى عن ظواهرها المستحيلة في حقه تعالى .

واستدلوا لمذهبهم بأدلة من النقل والعقل .

أما أدلة النقل فمنها حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال في الآية السابقة : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذرهم » متفق عليه .

وأما دلالة العقل فلأن تعيين المراد من هذه المتشابهات انما يكون بتأويل تتبع فيه قواعد اللغة وأسلوب العرب ، وهي لاتفيد العلم اليقيني القاطع ، بل قد تحتمل أكثر من وجه ، وصفات الله تعالى من العقائد لابد فيها من اليقين ، لذلك تتوقف ، ونفوض الى الله تعالى .

ومن هنا قالوا : « الرحمن على العرش استوى » المراد معنى يليق بجلاله تعالى لايشبه صفاتنا ، الله أعلم بحقيقته ، وكذلك يقولون في غير ذلك .

المذهب الثاني : مذهب الخلف : وهو تأويل هذه الآيات بما يناسب استعمالات اللغة مما يليق بكمال الله وتقدسه .

فيفسرون : « الرحمن على العرش استوى » بأن المراد : استولى مثلاً و « يد الله فوق أيديهم » بمعنى القدرة ، وهكذا ...

ودليلهم أنه لما استحال أن يكون المعنى الظاهري مراداً ، كان دليلاً على أن المراد هو معنى مجازي ، فنفسره وفق ما يتفسّر به كلام العرب ، لأن القرآن عربي كما صرح القرآن بذلك في مواضع كثيرة فيجب الاعتماد على منهج فهم كلام العرب.

وبالنظر في حقيقة الأمر نجد بين المذهبين اتفاقاً في جوهر المسألة وأساسها ، وهو صرف هذه النصوص عن ظواهر ألفاظها اللغوية المستحيلة ، واعتقاد أن هذه الظواهر غير مرادة قطعاً ، فالفريقان إذن متفقان على التأويل في الحقيقة ، غاية الأمر أن السلف اكتفوا بالتأويل الاجمالي ، وهو اعتقاد التنزيه عن هذه الظواهر : لكن دون تعيين التأويل المراد ، أما الخلف فقد خطوا خطوة ثانية في تفسير تلك النصوص حسبما يتبادر منها وفق استعمالات كلام العرب .

وإن من نظر في سياق تلك الآيات الواردة من متشابه الصفات وتمعن في الغرض الذي سيقت له علم بُعْدَها عن ارادة المعنى الظاهري ، واستحالة تفسيرها به .

تأمل قوله تعالى : « تَبارك الذي بِيدِهِ المُلك وهو على كل شيءٍ قدير » . وقوله : « ما مَنَعَكَ أن تسجد لما خلقتُ بيديّ » . وقوله : « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون » تعلمْ أن هذه الآيات وردت في مقام بيان قدرته تعالى ، ووردت فيها اليد مفردة ومثناة وجمعاً ، مما يدل على استحالة ارادة المعنى الظاهري .

وكذلك قوله : « ولتصنع على عيني » في خطابه لموسى عليه السلام ، وقوله في شأن سفينة نوح « تجري بأعيننا » فان التعبير بالعين قد جاء لاظهار مزيد العناية .

وكذلك قوله : « إن ربكمُ اللهُ الذي خلقَ السمواتِ والأرْضَ وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما من شفيع إلا من بعد إذنه »

وقد اتفقوا على وجوب تأويل هذه الآيات الواردة في متشابه الصفات في بعض الأحوال مثل :

١ ــ أن يكون للمتشابه تأويل واحد يفهم منه فهماً قريباً ، فيجب القول به اجماعاً ، وذلك كقوله سبحانه : « وهو معكم أينما كنتم » ، فهذه الآية ليس لهـا إلا تأويل واحد ، هو الكينونة مع الخلق بالاحاطة بهم علماً وسمعاً وبصراً وقدرة وارادة .

٢ ــ أنه إذا احتاج الدفاع عن الاسلام الى التأويل لهذه المتشابهات وجب تأويلها بما يدفع شبهات المشتبهين ويرد طعن الطاعنين (١) .

ونقول أيضاً : أنه إذا خيف من ترك التأويل سوء فهم الناس ووقوعهـم في الزيغ وجب التأويل والأخذ بمذهب الخلف ، وما أكثر ما يحتاج اليه في هذا الزمن الذي قل فيه العلم وكثر الجهل ، وشاعت في أوساط المتعلمين أسـاليب التفكـير العاميّة وطرق التصور السطحية .

حكم ورود المحكم والمتشابه :

لقد أشار القرآن الكريم الى بعض الحكم والأسرار الكامنة في ورود المحكم والمتشابه في القرآن الكريم في هذه العبارة : « منه آياتٌ محكمات هنَّ أمُّ الكتاب وأُخَر مُتشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغـاء الفتنة وابتغاء تأويله » .

فتضمن هذا النص حكماً علمية وعملية توسع العلماء في بحثها ، نورد نبـذاً منها فيما يلي :

أولاً : ان الله سبحانه احتج على العرب بالقرآن ، إذ كان فخرُهم ورياستهم

(١) انظر هاتين المسالتين في مناهل العرفان ج ٢ ص ١٨٢ .

كالبلاغة وحسن البيان ، الايجاز والاطناب ، والمجاز والكناية ، والاشارة والتلويح ، وهكذا فاشتمل القرآن كذلك على هذه الفنون .

ثانياً — أنزله الله سبحانه اختباراً ليقف المؤمن عنده ، ويرده الى عالمه فيعظم به ثوابه ، ويرتاب به المنافق فيستحق العقوبة ، ولم يضرهم جهلها ولوا فتقروا الى علمه لم يطوه عنهم .

فأما أهل السعادة فيعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، فيستوجبون الرحمة والفضل ، أما أهل الشقاوة فيجحدونها فيستوجبون الملامة والعدل ، ولذلك قال : « والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا » .

ثالثاً — أراد أن يشغل أهل العلم بردّه الى المحكم فيطول بذلك فكرهم ويظهر بالبحث عنه اهتمامهم ، ولو أنزله محكماً كله لاستوى فيه العالم والجاهل ، فشغل العلماء به ليعظم ثوابهم وتَعْلُوَ منزلتهم ، ويكرم عند الله مآبهم ، ويضطر الناس إليهم ، ويلزموا أنفسهم قبول تفسيرهم ، فيظهر بذلك فضل العلماء المحققين ، وتنشط حركة الفكر والذهن ، « وفي ذلك فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ » .

* * *

الفصل الرابع عشر

في

الناسخ والمنسوخ

تعريف النسخ :

النسخ في اللغة يطلق بمعنيين :

المعنى الأول : الابطال والإزالة ، كقولهم نسخت الشمس الظل : أزالته .

المعنى الثاني : النقل ؛ ومنه نسخت الكتاب أي نقلته من كتاب آخر .

والمراد بالنسخ بالاصطلاح الشرعي : رفع الشارع حكماً منه متقدماً بحكم منه متأخر [1] .

وهذا العلم هام لدارس القرآن الكريم ، وقد قال الأئمة ، « لايجوز لأحد أن يفسر كتابَ الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ [2] .

وقد قال علي بن أبي طالب لقاض : « أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، قال : هلكت وأهلكت » [3] .

---

(1) انظر تعريف النسخ والتوسع في شرحه في الاعتبار للحازمي ص ٧ ـ ٩ .

(2) الاتقان ج ٢ ص ٢٠ .

(3) المرجع السابق .

أقسام النسخ :

وقد قسموا النسخ عدة تقسيمات ، أهمها بالنسبة لدراستنا هنا هذه الأقسام :

آ ـ نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ، وهو أكثر الأقسام وقوعاً ، مثل نسخ آية العدة « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعاً الى الحول غير إخراج » ، فكانت العدةُ للمتوفى عنها زوجها حولاً ، ثم نسخت بأربعة أشهر وعشراً : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » .

ب ـ نسخ القرآن بالقرآن كما سبق ذكره .

ج ود ـ نسخ القرآن بالسنة أو العكس . مثل نسخ استقبال بيت المقدس بالتوجه الى القبلة « فولِّ وجهكَ شطر المسجدِ الحرام » ، فهذا نسخ للسنة بالقرآن .

هـ ـ نسخ التلاوة مع بقاء الحكم كما ورد عن عمر رضي الله عنه أنه نزلت آية في رجم الزاني المتزوج ، وقد نسخت التلاوة وبقي الحكم .

و ـ نسخ الحكم والتلاوة معاً مثل حديث السيدة عائشة : كان فيما نزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرّمن ، ثم نسخ بخمس رضعات معلومات يحرّمن ، والجملة الأولى منسوخة التلاوة والحكم ، أما الجملة الثانية فهي من منسوخ التلاوة فقط وحكمها باق عند الشافعية ، ولم يعمل المالكية والحنفية بهذه الرواية من أصلها .

هذا ولأهمية هذا العلم فقد عني به العلماء في تفاسيرهم ، وفي كتب أحكام القرآن ؛ فبينوا ما وقع من النسخ في بعض الآيات ، بل أفرده بالتصنيف في كتب

خاصة خلائق لايحصون كما قال السيوطي (١) : منهم أبو عبيد القاسم بن سلاّم ، وأبو داود السجستاني ، وأبو جعفر النحاس ، وابن الأنباري وابن العربي ، ومكي ابن أبي طالب وآخرون » .

إلا أنا ننبه الى أنه وقع توسع كثير من بعض العلماء في النسخ ، فقالوا : بنسخ آيات كثيرة لا دليل على نسخها ، وكثير من ذلك من باب التخصيص لا النسخ ، مما يوجب التنبه في هذا الأمر الخطير (٢) .

* * *

(١) الاتقان ج ٢ ص ٢٠ .

(٢) راجع ذلك في مظانه المتوسعة ولا سيما أبحاث أصول الفقه . وقد حصر بعض الباحثين المنسوخ من القرآن في نحو عشرين آية فقط ، فتأمل .

الفصل الخامس عشر

في

تفسير القرآن وأصوله

تعريف التفسير :

التفسير لغة : مأخوذ من الفَسْر ، وهو الإبانة والكشف .

أما اصطلاحا فقال الزركشي : هو : « علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه » (٢) .

ويستعمل العلماء أيضاً عبارة (التأويل) .

والتأويل في اللغة : مأخوذ من الأَوْل ، وهو الرجوع . قال في القاموس : « آل إليه الأمر أولاً ومآلاً : رجع ، وعنه ارتد ... » .

وأما التأويل اصطلاحاً : فنختار لتعريف التأويل بالنسبة لدراسة القرآن هذا التعريف وهو : « التأويل : بيان ما يرجع إليه معنى القرآن بمقتضى القواعد والنظر الدقيق » (١) .

---

(١) انظر البحث في الفرق بين التأويل والتفسير في الاتقان ج ١ ص ١٧٣ والتفسير والمفسرون ج ١ ص ١٩ ـ ٢٢ .

على أنه قد يطلق « التأويل » ويراد به ما يشمل التفسير . كما هو استعمال الامام محمد بن جرير الطبري في تفسيره ، فإنه يُصدر الآية قبل الكلام عليها بقوله : « القول في تأويل قوله تعالى ... كذا » ويذكر ما هو من التفسير . وما هو من التأويل .

مراتب التفسير وحكمه :

وقد ورد في ذلك بيان عن أقدم امام في التفسير وهو رئيس المفسرين عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما نورده بلفظه . قال ابن عباس :

« التفسير أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لايعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعلمه العلماء ، وتفسير لايعلمه الا الله » .

وهو تقسيم صحيح ودقيق [1] :

أما التفسير الذي تعرفه العرب بلغاتها : فهو ما يرجع الى اللسان العربي من اللغة والاعراب وعلوم العربية .

وأما التفسير الذي لايعذر أحد بجهالته : فهو ما يظهر للأفهام معرفة معناه من القرآن .

وأما التفسير الذي يعلمه العلماء : فهو ما يرجع الى اجتهادهم ودقة نظرهم في استنباط دقائقه من المعاني الخفية أو أوجه البلاغة المعجزة ، أو الأحكام الفقهية ، أو غير ذلك بحسب اختصاص العالم الباحث .

وأما القسم الرابع : فهو ما يتعلق بحقائق المغيّبات كالروح والملائكة ، فهذه يُفَوَّضُ علمها على حقيقتها الى الله تعالى .

---

(١) كما في البرهان والاتقان ج ٢ ص ١٨٢ .

أقسام التفسير من حيث منهجه العلمي

ينقسم التفسير من حيث نهجه العلمي الى قسمين رئيسيين : التفسير المأثور ، والتفسير بالرأي .

القسم الأول ـ التفسير بالمأثور :

ويشمل ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل وما نقل عن الرسول ﷺ وأصحابه . أما ما ينقل عن التابعين فبعض العلماء يعتبره من المأثور وبعضهم يعتبره من التفسير بالرأي ، ولكن كتب التفسير بالمأثور قد ضمت ما نقل عن التابعين في التفسير . ولذلك نعتبره مدرجاً في التفسير المأثور .

والتفسير المأثور أول أنواع علوم القرآن تدويناً ، وكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول في هذا ، ويقولون ان أول من جمع فيه هو الامام مالك بن أنس . ثم انفصل التفسير عن الحديث فألّفت في القرن الثاني تفاسير جمعت أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة ابن الحجاج وغير ذلك ، وقد جمعها ابن جرير في تفسيره الكبير .

أسباب الضعف في التفسير المأثور :

تسرب الخلل الى التفسير المأثور لاسيما ما كان عن الصحابة والتابعين الى حد كاد يفقد الثقة به لولا جهود العلماء رضي الله عنهم ، حتى قال الشافعي « لم يثبت عن ابن عباس في التفسير الا شبيه بمائة حديث » . ونستطيع أن نجمل أسباب الضعف في أمور ثلاثة :

أولها : دخول الاسرائيليات .

ثانيها : حذف الأسانيد .

ثالثها : كثرة الوضع في التفسير .

الاسرائيليات :

والمراد بها اللون اليهودي واللون النصراني في التفسير وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية . ومبدأ دخولها في التفسير يرجع لعهد الصحابة .

أما التابعون : فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب وكثرت في عهدهم الروايات الاسرائيلية لكثرة من دخل منهم في الاسلام ، فظهرت في هذا العهد جماعة تلقفت الاسرائيليات وحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقضة كمقاتل بن سليمان.

حكم الاسرائيليات في التفسير :

كان للاسرائيليات أثر سيء ، لأن الأمر لم يقف على ما كان في عهد الصحابة ، بل زاد ودخل فيه النوع الخيالي المخترع . فوضعوا الشوك في طريق المفسر إذ إنه أصبح يشك فيها جميعاً لاعتقاده أن الكل من واد واحد .

وتنقسم الاسرائيليات الى ثلاث أقسام :

الأول : ما يعلم صحته بالنقل عن النبي ﷺ وهو صحيح مقبول . وكذا إذا كان له شاهد من الشرع يؤيده .

الثاني : مايعلم كذبه ، فلا يصح قبوله ولا روايته .

الثالث : مسكوت عنه لامن الأول ولا من الثاني ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لحديث : « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم .. » . الذي أخرجه البخاري . وهذا القسم غالبه مما لافائدة فيه تعود الى أمر ديني .

هذا ويجب أن يكون المفسر إزاء الاسرائيليات يقظاً جداً ، ليستخلص ما يوافق العقل ويتقيد بمقدار الضرورة ولا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا وجد في سنة نبينا ﷺ بياناً للقرآن ، ويجوز أن يذكر خلاف المتقدمين بشرط أن لا يطلقه بل ينبه على الصحيح ويزيف غيره ، لئلا يوقع القراء في الاضطراب على أن من الخير كل الخير للمفسر الإعراض عن هذه الاسرائيليات وأن يمسك عما لاطائل تحته مما يُعَدُّ صارفاً عن القرآن وشاغلاً عن التدبر في حكمته وأحكامه .

وأشهر الرواة للاسرائيليات :

١ ــ عبد الله بن سلام .

٢ ــ كعب الأحبار .

٣ ــ وهب بن منبه .

٤ ــ عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج .

السبب الثاني لضعف التفسير المأثور ــ حذف الاسناد :

منذ ظهر الوضع في عصر الصحابة صاروا يسألون عن الإسناد ، فكان مايروونه من التفسير المأثور عن النبي ﷺ أو الصحابة لايروونه إلا بالاسناد ثم جاء بعد عصر التابعين من جمع التفسير فدون التفسير المأثور بالاسناد كتفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ، ثم ألّف بعد هؤلاء أقوام في التفسير فاختصروا الأسانيد وأهملوا عزو الأقوال لقائليها ، ولم يتحروا الصحة فالتبس الصحيح بالعليل ، ثم صار كل من يسنح له قول يورده وينقل ذلك من بعده ظاناً أن له أصلاً ، ولعل هذا أخطر الأسباب جميعاً لأن حذف الأسانيد جعل من ينظر في هذه الكتب يظن صحة كل ما جاء فيها .

السبب الثالث ــ الوضع :

وقد كثر الوضع ، أي الكذب في أحاديث التفسير وأثر هذا الوضع تأثيراً سيئاً بأن ضاع كثير من هذا التراث الذي خلفه لنا السلف لأن ما أحاط به من شكوك أفقدنا الثقة به وجعلنا نرد كل رواية تطرق إليها شيء من الضعف ، كما أن اختلاطها جعل بعض من ليس قادراً على التمييز بين الصحيح والعليل يحكم على الجميع بالصحة .

وأهم المصنفات في التفسير المأثور :

١ ــ جامع البيان في تفسير القرآن . للامام المحدث المفسر المؤرخ الفقيه محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

٢ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير : أبي الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقي المحدث والمفسر أيضاً المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

٣ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن .

٤ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي : أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المغربي ، المالكي الامام الحجة . المتوفى سنة ٨٧٦ هـ .

٥ ـ الدر المنثور في التفسير المأثور للامام المحدث الكبير جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي المتوفى سنة ٩١١ هـ .

القسم الثاني من أقسام التفسير ـ التفسير بالرأي :

معنى التفسير بالرأي : هو تفسير القرآن بالاجتهاد اعتماداً على الأدوات التي يحتاج إليها المفسر .

وقد اختلف العلماء من قديم الزمان في جواز تفسير القرآن بالرأي فقوم تشددوا ولم يبيحوا تفسير شيء من القرآن ما لم يرد فيه أثر من المرفوع أو الموقوف ، وقوم لم يروا بأساً من أن يفسروا القرآن ما لم يرد فيه أثر من المرفوع أو الموقوف ، وقوم لم يروا بأساً من أن يفسروا القرآن باجتهادهم .

والتحقيق في هذه المسألة أن الخلاف فيها ليس حقيقياً وذلك لأن التفسير بالرأي كما قال الامام الشاطبي [1] ضربان :

أحدهما : تفسير بالرأي جارٍ على موافقة كلام العرب وعلى موافقة الكتاب والسنة فهذا لايمكن اهمال مثله للعالم لما سبق من الأدلة على جواز التفسير بالرأي .

---

(١) الموافقات ج ٣ ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ بتصرف . وانظر تفصيل أدلة الفريقين في مقدمة التفسير لابن تيمية ص ٢٩ ـ ٣١ ومقدمة التفسير للراغب الاصفهاني ص ٤٢٢ والموافقات الموضع السابق .

الضرب الثاني : التفسير بالرأي الذي لايجري على موافقة العربية ؛ أو لايوافق الأدلة الشرعية ، فهذا هو التفسير بالرأي المذموم من غير إشكال ، لأنه ، تَقَوّل على الله بغير برهان ، فيرجع الى الكذب على الله تعالى . وفي هذا القسم جاء من التشديد في القول بالرأي في القرآن ما جاء ، كما رُوِيَ عن ابن مسعود : « ستجدون أقواماً يدعونكم الى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم . فعليكم بالعلم وإياكم والتبدع وإياكم والتنطع وعليكم بالعتيق » .

وعن عمر أيضاً : « ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه ايمانه ؛ ولا من فاسق بَيِّنٍ فِسْقُه ؛ ولكن أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله » .

العلوم التي يحتاج إليها المفسر :

١ ــ علم اللغة .

٢ ــ علم النحو والصرف والاشتقاق .

٣ ــ علوم البلاغة .

٤ ــ علم القراءات .

٥ ــ علم أصول الدين .

٦ ــ أصول الفقه .

٧ ــ الأحاديث المبينة للتفسير من أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وما فيه بيان لتفسير المجمل والمبهم .

٨ ــ علم القصص .

٩ ــ علم الموهبة وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم ، كما ورد في الحديث •

أهم كتب التفسير بالرأي :

١ ــ الكشاف ، للزمخشري : محمود بن عمر الملقب جار الله لاقامته بمكة ومجاورته بها • توفي سنة ٥٣٨ هـ وهو الذي أنضج التفسير البلاغي للقرآن ، لكنه تعصب فيه لمذهبه الاعتزالي •

٢ ــ أنوار التنزيل وحقائق التأويل للبيضاوي : ناصر الدين عبد الله بن عمر من بلاد فارس •

٣ ــ مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي : عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي ، المتوفى سنة ٧٠١ هـ •

٤ ــ إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى • عنى فيه بوجوه اللغة والاعراب والبلاغة •

٥ ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للآلوسي • أبو الثناء شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي شيخ العلماء في العراق ، وهو تفسير حافل بفنون التفسير ، وبيان بلاغة القرآن •

من واجبات المفسر :

إن الخلاف الذي سبق في التفسير بالرأي يفيدنا أموراً على غاية من الأهمية تتعلق بالاحتياط في التفسير بالرأي ، قد نبه إليها الامام الشاطبي [1] ، ونعرضها موجزة فيما يلي :

أولاً ــ التحفظ من القول في كتاب الله تعالى الا على بينة ، فإن الناس في العلم بالأدوات المحتاج اليها في التفسير على ثلاث طبقات :

(١) الموافقات ج ٣ ص ٤٢٣ ــ ٤٢٤ •

إحداها : من بلغ في ذلك مبلغ الراسخين ، كالصحابة والتابعين ومن يليهم ، وهؤلاء قالوا في التفسير برأيهم مع التوقي والتحفظ ، والهيبة والخوف من الهجوم ، فنحن أولى منهم إن ظننا بانفسنا أنا في العلم والفهم مثلهم • وهيهات •

والثانية : من علم من نفسه أنه لم يبلغ مبالغهم ولا داناهم ، فهذا طرف لا إشكال في تحريم ذلك عليه •

والثالثة : من شك في بلوغه مبلغ أهل الاجتهاد أو ظن ذلك في بعض علومه دون بعض • فهذا أيضاً داخل تحت حكم المنع من القول فيه ، لان الأصل عدم العلم •

ثانياً : ينبغي على الناظر في القرآن أن يعتمد في ذلك على من تقدمه ، وله في ذلك سعة إلا فيما لابد له منه وعلى حكم الضرورة ، وما زال السلف الصالح يتحرجون من القول في القرآن ، فإن المحظور فيه شديد جداً ، وهو خوف التقوّل على الله تعالى •

ثالثا ــ أن يكون على بال من الناظر والمفسر والمتكلم على القرآن أن ما يقوله من التفسير هو قول بلسان بيانه : هذا مراد الله من هذا الكلام . فليتثبت أن يسأله الله تعالى : من أين قلت عني هذا ؟ فلا يصح له ذلك إلا ببيان الشواهد وإلا كان باطلاً ، ودخل صاحبه تحت الوعيد الشديد الوارد في أهل الرأي المذموم •

ورد عن سعيد بن المسيب وهو سيد التابعين وأحد الفقهاء الأئمة السبعة أنه كان إذا سئل عن شيء من القرآن قال : « أنا لا أقول في القرآن شيئاً » •

وسأل رجل ابن عباس عن قوله تعالى : « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » فقال له ابن عباس : فما يومٌ كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال الرجل : إنما سألتك لتحدثني ! فقال ابن عباس : « هما يومان ذكرهما الله في كتابه ، الله أعلم بهما نكره أن تقول في كتاب الله مالا نعلم » (١) •

---

(١) الأثر عن سعيد بن المسيب وابن عباس في الموافقات ج ٣ ص ٤٢٢ •

رابعاً — من واجبات المفسر أيضاً إضافة لما ذكرنا واجب هام يجب أن يلاحظه في كيفية كلامه في التفسير ، وقد أوضح السيوطي ذلك فقال [٢] :

قال العلماء : يجب على المفسر أن يتحرى في التفسير مطابقة المفسَّر ، وأن يتحرز في ذلك من نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى ، أو زيادة لاتليق بالغرض ، ومن كون المفسَّر فيه زيغ عن المعنى وعدول عن طريقه ، وعليه بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي ، ومراعاة التأليف ، والغرض الذي سيق له الكلام ، وأن يؤاخي بين المفردات .

ويجب عليه البداءة بالعلوم اللفظية ، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الالفاظ المفردة ، فيتكلم عليها من جهة اللغة ثم التصريف ، ثم الاشتقاق ، ثم يتكلم عليها بحسب التركيب ، فيبدأ بالاعراب ثم ما يتعلق بعلم المعاني ثم البيان ثم البديع ثم يبين المعنى المراد ، ثم الاستنباط ، ثم الاشارة » .

★ ★ ★

---

(٢) الاتقان ج ٢ ص ١٨٥ .

الفصل السادس عشر

في إعجاز القرآن الكريم

المبحث الأول

حقيقة الاعجاز

المعجزة في اصطلاح علماء التوحيد هي : « أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة » .

ويطلق على المعجزات دلائل النبوة وأعلام النبوة ، ونحو ذلك ، وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب ولا في السنة ، وإنما فيه لفظ الآية ، والبينة، والبرهان » [1] .

الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر :

قد يكرم الله تعالى بعض أوليائه من المتقين الأبرار بأمر خارق يجريه له ، ويسمى ذلك « الكرامة » .

---

(١) لوائح الأنوار البهية للسفاريني ج ٢ ص ٢٧٨ نقلاً عن الجواب الصحيح لابن تيمية، لكن يجب التنبه الى التمييز بين المعجزة والآية أو البرهان والبينة في اصطلاح علماء التوحيد.

وثمة فرق شاسع بين المعجزة والكرامة ، لأن الكرامة لا يدعي صاحبها النبوة ، بل لايتحدى بها الناس ، وانما تظهر على يده لصدقه في اتباع النبي ، فكانت الكرامة لهم معجزة للنبي ﷺ ، ومن ثم تقررت هذه القاعدة : « كل كرامة لولي معجزة لنبيه » .

وهذا يبين لنا أن شرط الكرامة للولي صدق الاتباع للنبي ﷺ لكن ليس من شرطه العصمة ، فإن الولي قد يقع في المعصية ، أما الأنبياء فقد عصمهم الله تعالى .

وأما السحر فهو أبعد شيء عن المعجزة أو الكرامة ، وإن كان قد يقع فيه غرابة وعجائب ، لكنه يفترق عن المعجزة والكرامة من أوجه كثيرة تظهر في شخص الساحر وفي عمل السحر :

أما الاختلاف في شخص الساحر : فمما يفترق به الساحر عن الولي ركوب متن الفسق والعصيان ، والطاعة للشيطان ، والتقرب الى الشياطين بالكفر والجناية والمعاصي ، حتى ترى الساحر أكذب الناس وأشدهم شراً .

وأما الاختلاف عن المعجزة والكرامة في عمل السحر فقد يكون مستغرباً طريفاً ، لكنه لايخرج عن طاقة الانس والجن ، أو الحيوان كالطيران في الهواء مثلاً ، بل هو أمر مقدور عليه لأنه يترتب على أسباب إذا عرفها أحد وتعاطاها صنع مثلها أو أقوى منها ، لذلك ما إنْ يُواجَه السحر بالحقيقة حتى يذهب سدى ، « وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » .

تنوع المعجزة وحكمته :

وتنقسم المعجزات الى قسمين :

القسم الأول : المعجزات الحسية :

مثل معجزة الاسراء والمعراج وانشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ حتى روى المئين ، وتكثير الطعام القليل ، وقلب العصا حية ، وإحياء الموتى ...

القسم الثاني : المعجزات العقلية :

مثل الاخبار عن المغيبات ، والقرآن الكريم .

وقد جرت سنة الله تعالى كما قضت حكمته أن يجعل معجزة كل نبي مُشاكِلَةً لما يُتقن قومه ويتفوقون فيه ، ولما كان العرب قوم بيان ولَسَن ، يقادون بِسِقْو َلِهِم كانت معجزة النبي ﷺ الكبرى هي القرآن الكريم .

مصدر علمنا باعجاز القرآن :

وقد أُعلن إعجاز القرآن على العالم من أعظم مصدر ثابت وهو القرآن نفسه ، حيث نادى على رؤوس الأشهاد وفي كل جيل وقبيل يتحدى الناس بل العالم أن يأتوا بمثله ؛ قال تعالى : « أم يقولون تَقَوَّلَه بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين [1] » .

فقد كبلهم بالعجز عن هذا التحدي فلم يفعلوا ما تحداهم ، فجاءهم بتخفيف التحدي فتحداهم بعشر سور فحسب في هذه الآية :

« أمْ يقولون افتراهُ قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مُفتريات ٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنْزِل بِعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » [2] .

ثم أرخى لهم حبل التحدي ، ووسَّع لهم غاية التوسعة فتحداهم بسورة واحدة أيِّ سورة ، ولو من قصار السور ، قال تعالى « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورةٍ مِثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » [3] .

---

(١) سورة الطور ، الآيتان ٣٣ و ٣٤ .

(٢) سورة هود . الآيتان ١٣ و ١٤ .

(٣) سورة يونس . الآية ٣٨ .

وقد مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً والمسلمون قليل مستضعفون . وكان الوحي يتتابع وهو يتحداهم ، ويفضح عجزهم الذي استبان وظهر لكل من له عين تبصر ، وأذن تسمع وعقل يعي ، وقد قطع الله عليهم بل على الثقلين كلهم منافذ اللدود بهذا الاعلان الحاسم « قل لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً » .

وقد أمعن القرآن في هذا التحدي وأكده في سورة البقرة المدنية ، فتحداهم ثانية بسورة منه ، وأكد عجزهم عن ذلك بالاعلان على العالم أنهم لن يستطيعوا ذلك ، ولن يفعلوه أبداً :

« وإن كنتم في ريبٍ مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودُها الناسُ والحجارةُ أُعدت للكافرين » (1) .

القدر المعجز من القرآن :

وهكذا نجد القرآن تحدى العرب أن يأتوا بمثل سورة واحدة من القرآن ، ولو من قصار سوره ، وإذا كانت أقصر سورة فيه هي سورة الكوثر تتألف من ثلاث آيات قصار علمنا أن كل آية طويلة معجزة ، وكل عدة آيات قصار تبلغ سورة الكوثر أو أكثر من ذلك فهي معجزة كذلك .

وإذا علمت أن عدد آيات القرآن يزيد على ستة آلاف آية علمت كم عدد المعجزات في القرآن الكريم ، فضلاً عن النظر فيما يحمله من أوجه الاعجاز المتعددة ، فتكون معجزاته بذلك كثيرة متنوعة يضيق عنها الحصر والتعداد .

خصائص المعجزة القرآنية :

إن من المقرر المعلوم أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى بين سائر المعجزات ، لما اختص به في إعجازه من خصائص ليست لمعجزة سواه .

---

(1) الآيتان ٢٣ و ٢٤ من سورة البقرة .

أولاً ــ اختص بأنه مع كونه معجزاً أنه معجز لجميع المكلفين ، فوجب في الحكمة أن يكون أمراً يبقى ببقاء التكليف ، ولذلك تكفل الله تعالى بحفظه وحراسته ، وخصه بأن أودعه من علم الأولين والآخرين ومن دلالة الحرام والحلال ما يدعو الى تحفظه والتوفر على تأمله (١) .

ثانياً ــ اختص القرآن بكونه معجزة بذاته بخصوصية ثانية انفرد بها عن جميع البراهين والبينات ، قال ابن خلدون (٢) :

« فان الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده في عينه ، ولا يفتقر الى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله ﷺ : (ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحي إليّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) يشير الى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي ، كان المصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثر المصدق والمؤمن وهو التابع والأمة » .

ثالثاً ــ إن الاعجاز في الخوارق الحسية أمر مخالف للمعتاد من سنن الكون ، وقواعد الطبيعة .

أما اعجاز القرآن فإنه لم يكن بواسطة مخالفة السنن الكونية ، وصرف الانسان عنها ، بل إن معجزة هذا القرآن يدركها الانسان بمقدار إعمال عقله وفهمه ، بل إنه كلما ازداد معرفة بسنن الكون والطبيعة ازداد يقيناً باعجاز هذا القرآن .

---

(١) المغني للقاضي عبد الجبار قسم إعجاز القرآن : ١٦ ص ٣٤٤ .

(٢) في مقدمة تاريخه ص ١٠٦ ــ ١٠٧ (ط مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٩) .

شـهادة العالم باعجاز القـرآن

شهادة العرب بدلالة أحوالهم وأفعالهم :

بعث الله محمداً ﷺ والعرب أكثر ما كانت شـاعراً وخطيباً ، ـ كما ذكـر الجاحظ ـ وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت في البيان عـدة ، لهـم القصيد العجيب ، والرَّجَزُ الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، ولهـم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ، إذا تأملت بالـذوق الصحيح والملكيـة الفنية المذاق تبنيت من خلال أدبهم ما بلغوه في هذا المضمار .

فلما أمر الله نبيه أن يبلغ دعوته للناس راح يتتبع أفراد عشيرته وقومه ، يقرأ عليهم مانزل عليه من القرآن ، ولم يكن برهانه ولا ماأمر به أن يلزمهم حجة وبرهاناً ، أنه انما هو إله واحد وأن محمداً نبي الله إلا دليلاً واحداً هو هذا الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرؤه .

قال الامام الباقلاني [1] : « فلو كان هذا القرآن من ذلك القبيل ـ الشعر أو من الجنس الذي ألفوه لم تَزُلْ أطماعهم عنه ، ولم يدهشوا عند وروده عليهم ، فكيف وقد أمهلهم ، وفسح لهم الوقت ، وكان يدعوهم إليه سنين كثيرة ، وقال عزَّ من قائل : « أولم نعمركم مايتذكر فيـه من تذكر وجاءكم النذير » . وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع والتحدي بان أنه خارج عن عاداتهم وأنهم لايقدرون عليه » .

بل إن العرب قد تحملوا في مواجهة التحدي بالقـرآن وركوبهـم متن العناد والتصميم على الشرك وعبادة الأوثان الأهوالَ والأخطار ، فلو كان ذلك بوسعهم

(١) في اعجاز القرآن ص ٢٨٩ .

وتحت مقدورهم لما عدلوا عـن السهل المتناول من القـول يخملون بـه حجته ، ويصرفون الناس عن دعوته ، الى ركوب متن كل صعب وذلول ، وتكلف الوعـر المضني بخوض غمار الحروب .

شهادة بلغاء العرب باعترافهم باعجاز القرآن :

صدرت عن سادة العرب الفصحاء البلغاء اعترافات صريحة باعجاز القرآن ، أملتها عليهم سجيتهم العربية ، وطبيعتهم الفنية التي لايمكن معها جور ولا محاباة ، وإن كانوا مخالفين لرسول الله ﷺ معاندين دعوته الى الايمان ، وقـد أوردت لنا المصادر وقائع كثيرة يطول بسطها واستقصاؤها هنا (١) .

من ذلك ماروى الامام محمد بن إسحق في كتاب السـيرة أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ في المسجد وحده، يامعشر قريش ألا أقوم الى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ ... فسمع كلامه ، ثم قرأ عليه القرآن من أول سورة فصلت، فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليـد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأٌ ، فان تصبه العرب فقـد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فمُلكـه مُلككم وعـزه عزُّكـم وكنتم أسعد به . فقالوا :« سحرك والله يا أبا الوليـد بلسانه ، قال : هـذا رأيي فيـه فاصنعوا ما بدا لكم » (١) .

---

(١) انظر للاستزادة إن شئت كتاب « المعجزة الخالدة » فقد توسع وافاض الدكتور حسن ضياء الدين عتر بما فيه غاية الفائدة .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٩٠ ـ ٩١ باختصار وتصرف يسير .

ولقد تحيرت العرب في شأن هذا القرآن لأنه نزل بلسانهم ، لسان عربي مبين ، ثم هم يجدونه مبايناً لكلامهم ، فحاروا ماذا يقولون فيه من طغيان اللدد والخصومة .

فعرضوا لفكرة القول بأنه شاعر ، وأنه كاهن ، أو أنه مجنون أو ساحر ، وصاحب المشورة فيهم الوليد بن المغيرة يرد كل ذلك عليهم بالحجة والبرهان ، ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وان أصله لغدق ، وان فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : « ساحر جاء بقول يفوق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته » .

ولهذا فإنهم كانوا يخافون أن يفلت الزمام من أحدهم فيدخل في الاسلام لتأثره بعظمة القرآن ، حتى قالوا لبعضهم كما سجل القرآن ذلك عليهم : « وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

فكانوا إذا تلا النبي القرآن عليهم صخبوا وصفقوا كيلا يتمكن الناس من سماع القرآن بهذا الضجيج ، فكانت طريقة في الغلبة طريفة .

إذعان سادة العرب لاعجاز القرآن :

وهذا أعظم الشهادات باعجاز القرآن ، ان سادة العرب في البيان ألقوا زمام قيادتهم وأسلموا لهذا القرآن وللنبي ﷺ « مثل لبيد بن ربيعة العامري في حسن إسلامه ، وكعب بن زهير في صدق إيمانه ، وحسان بن ثابت ، وغيرهم : من الشعراء والخطباء الذين أسلموا .

على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر ، أو بحر زاخر » (١) .

وما قصة اسلام عمر بخافية عنا ، وما أسلم الا بتلاوته للقرآن الكريم من سورة « طه » كما هو معلوم .

---

(١) انظر اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

وروى مسلم في صحيحه (١) عن أبي ذر رضي الله عنه حديثاً طويلاً عن إسلامه ، وفيه : «أن أُنَيْساً أخا أبي ذر ذهب الى مكة ثم عاد فقال لأبي ذر : « لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله : قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون شاعر ، كاهن ، ساحر . وكان أنيس أحد الشعراء ، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم . ولقد وضعتُ قوله على أقراءِ الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر . والله انه لصادق وانهم لكاذبون » .

اعتراف بلغاء من النصارى باعجاز القرآن :

قال الرافعي : « وصرح لنا « باعجاز القرآن » أديب هذه الأمة وبليغها الشيخ ابراهيم اليازجي الشهير ، وهو أبلغ كاتب ، أخرجته المسيحية ، وقد أشار الى رأيه ذلك في مقدمة كتابه (نجعة الرائد) ، وكذلك سألنا شاعر التاريخ المسيحي الأستاذ خليل مطران ، ولا نعرف من شعراء القوم من يجاريه فأقرّ لنا بمثل ما أقرّ به أستاذه اليازجي ، والأمر بعد الى العقل « المنصف » ، والعقل « المنصف » ليس له دين الا الحق . الحق واحد لايتغير (٢) .

كذلك الأديب الشاعر المعاصر نقولا حنا قد تلا القرآن ، فجذبه إليه وشغل قلبه وفؤاده ، وزاده ايماناً بالله على ايمانه ، وقذف في أعماق فكره وضميره يقيناً راسخاً بأن القرآن هو كتاب الله المعجز العزيز وأنه يسمو على سائر معجزات الأنبياء ، فهو معجزة الهية خالدة تبرهن بنفسها على نفسها ، وأعلن عن ذلك في قصيدة

---

(١) فضائل الصحابة ـ باب فضائل أبي ذر رضي الله عنه ج ٤ ص ١٩٢٠ ـ طبع عيسى البابي الحلبي بمصر ، أما قوله (على دينك) أي مثلك يعبد الله والمراد بقوله : (أقراء الشعر) طرقه وبحوره ، وبقوله (فما يلتئم ·· انه شعر) لايوافق نسق الشعر ·

(٢) عن « وحي القلم » ـ بتصرف يسير ص ١٥ ـ ١٦ ·

من روائع الشعر ، عنوان لها بهذا العنوان « من وحي القرآن » وقال في مقدمة هذه القصيدة :

« قرأتُ القرآن فأذهلني ، وتعمقت به ففتنني ، ثم أعدت القراءة فآمنت ... آمنت بالقرآن الالهي العظيم ، وبالرسول من حمله ، النبي العربي الكريم ، أما الله فمن نصرانيتي ورثت ايماني به ، وبالفرقان عظم هذا الايمان ... » .

« وكيف لا أومن ومعجزة القرآن بين يديّ أنظرها وأحسها كل حين ... هي معجزة لا كبقية المعجزات .. معجزة إلهية خالدة تدل بنفسها عن نفسها ، وليست بحاجة لمن يحدث عنها أو يبشر بها .

وذكر في قصيدته ثبوت نبوة محمد ﷺ بمعجزات كثيرة أجلها القرآن ، وكان مما قال فيها :

يقولون ما آياته ، ضلّ سعيهم
وآياته ـ ليستْ تُعَدُّ ـ عِظامُ (1)

كفى معجزُ الفرقان للناس آيةً
علا وسما كالنجم ليس يرام

فكل بليغ عنده ظل صامتاً
كأن على الأفواه صُرَّ كِمامُ (2)

(1) « ليست تعد » جملة معترضة بين المبتدأ « آياته » والخبر « عظام » . والمراد أن آيات النبي عظام معجزاته عظيمة جداً وكثيرة لايحيط بها العد والاحصاء .

(2) الصرّ : الشد أو الربط . الكمام : ما يكم به فم البعير لئلا يأكل أو يعضّ .

وشـاء إلـه العـرش بـالنـاس رحمـة
وأنْ يتـلاشـى حِقْـدُهـم وخِصـامُ

فَفَـرَّق مـا بين الضـلالـة والهـدى
بِفُـرْقـانِ نـورٍ لـم يَشُبْـه قَتَـامُ

أتاهـم بقـرآن السـلام رسـوله
فطـاف بأرجـاء البـلاد سـلام

كتـاب هـدى لاريـب فيـه مشـرِّعٌ
وللسـلمِ والعمـران فيـه دِعـامُ

تـلا كتـب التنزيـل لكـنِ مُكَمِّـلاً
فَـذِي أولُ التشـريع وهـو ختـام

فصيـحٌ بليـغٌ نطقـه وبيانـه
قـريبٌ بعيـدٌ فَهْمُـه ومَـرام

تجـاوبُ أصـداءُ التـلاوة في قُبـا
فَتَشْـقَّ لهـا في المشـرقين إمـامُ

★ ★ ★

منشأ اعجاز القرآن

تفسير الاعجاز بالصَّرْفة :

على الرغم من اجماع العلماء على اعجاز القرآن ، وأن اعجازه وصف ثابت له ، فقد شذّ بعض المتكلمين وهو أبو اسحاق النظّام من المعتزلة ، ونحى في هذه المسألة منحى انفرد به دون أهل العلم قاطبة ، وعرف رأيه بينهم بـ « الصَّرْفَةِ » .

وقد فسّر النظام اعجاز القرآن بهذا وقال يشرح رأيه : « ان الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام ، والعرب انما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك ، وسلب علومهم به » .

وجدير بالذكر أن هذا القول لايدخل فيه عنصر الطعن في القرآن ، ولا كان في قصد صاحبه ما يحوم حول ذلك ، لأنه يعترف ويشهد بأنه من عند الله تعالى ، الا أنه شذ في تفسيره لاعجاز القرآن ، بما زعمه أن الله صرف العرب عن معارضته والاتيان بمثله .

والذي جرّ النظّام الى هذا القول العجيب هو بُعده عن الاشتغال بأساليب البلاغة والبيان ، واستغراقه في أساليب الفلسفة ، الأمر الذي أوصله وأودى به في هذا الخلط في تفسير إعجاز القرآن .

وحسبنا ونحن نراعي الايجاز الشديد أن يعلم القارىء أن أحداً من علماء البيان لم يوافق النظام على ذلك ، حتى المعتزلة أنفسهم ومنهم تلميذه الجاحظ ، الذي عُنِيَ برد هذا الرأي وجلاء إعجاز نظم القرآن حتى كان أي الجاحظ ـ أول من بلغنا عنه هذا التعبير « نظم القرآن » .

والحقيقة أن هذا الرأي من الضعف بحيث يغني شرحه عن تكلف الردّ عليه ، ولولا ترداده على ألسنة بعض المتحذلقين في هذا العصر لما عرضنا له بشيء لمصادمته بدهيات الدلالة من القرآن والاجماع والعقل والواقع ، كما أوضحه العلماء .

قال الامام الزركشي في البرهان (1) :

« وهو قول فاسد ، بدليل قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » فانه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم .

ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم ، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره .

هذا مع أن الاجماع منعقد على اضافة الاعجاز الى القرآن ، فكيف يكون معجزاً غيره وليس فيه صفة إعجاز بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم قدرتهم عن الاتيان بمثله .

وأيضاً يلزم من القول بالصرفة فساد آخر وهو زوال الاعجاز بزوال زمان التحدي ، وخلو القرآن من الاعجاز ، وفي ذلك خرق لاجماع الأمة فانهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى ولا معجزة له باقية سوى القرآن ، وخلوه من الاعجاز يبطل كونه معجزة .

« ومما يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة وانما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً وانما يكون المنع معجزاً فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره في نفسه » .

يعني وأن فضيلة القرآن ظاهرة ، ومزاياه معجزة باهرة ، مما يدل على بطلان تفسير اعجاز القرآن بالصرفة ، ويثبت الاعجاز الذاتي للقرآن العظيم .

فلنتحدث عن أوجه إعجاز القرآن فيما يلي :

---

(1) ج ٢ ص ٩٣ .

المبحث الثـاني

في

أوجه اعجاز القرآن الكريم

كثرت الدراسات واستفاضت البحوث في تبيان أوجه الاعجاز الذاتي للقرآن فما من عصر إلا قدمت فيه مجموعة من الدراسات والاراء تحاول كشف أوجه اعجاز القرآن مما قدم للدراسات القرآنية واللغوية البيانية كنـوزاً لاتفنى ذخائـرها ولا تبيد •

والجدير بالذكر ههنا أن تعدد الآراء في بيان أوجه اعجاز القـرآن وتنـوع الوجهات في دراستها ليس تنوع اختلاف وتعارض ، انما هو تنوع ناشيء من غزارة فنون هذه المعجزة وعظمتها ، مما يجعل أي فكر أو أي عصر من العصـور عاجـزاً عن استنفاد أوجه إعجاز القرآن والاحاطة بها خبْراً ، وانما يبلغ من ذلك مقـداراً يتناسب مع ما يمكن أن يحققه هذا الانسان العاجز المحدد وهو يحاول فك أسرار الاعجاز الذي تجاوز الطاقة والحدود •

وسوف نكتفي بنموذج من بيان الأسلاف لأوجه اعجاز القرآن يسـاعد على استجماع الأفكار وتلخيص عصارة زبدة دراساتهم ، ويمهد لتحليل جديد لهـذه الأوجه •

وهذا النموذج هو الدراسة الموجزةالتيقدمها الامامالمفسر الكبير آبو عبد الله محمــد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى ســنة ٦٧١ هـ في مطلع كتــابه العظيم في التفسير « الجامع لأحكام القرآن » ، لخص فيها في عشرة أوجه أهم ما وقف عليه من كلام العلماء في أوجه اعجاز القرآن •

قال القرطبي رحمه الله تعالى (١) :

وأوجه اعجاز القرآن الكريم عشرة :

أولها : النظم البديم المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها •

فقد أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله ﷺ : « حم » فصلت ، فاذا اعترف عتبة بن ربيعة على موضعه من اللسان وموضعه مــن الفصاحة والبلاغة ، بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان في هذا القول مقراً باعجــاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلــم بجميع أجنــاس القول وأنواعه •

الثاني : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب •

الثالث : الجزالة التي لاتصح من مخلوق بحال •

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم ، والأسلوب ، والجزالة ، لازمة كل سورة ، بل هي لازمة كل آية ، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر ، وبها وقع التحدي والتعجيز ، ومع هذا فكل ســورة تنفرد بهذه الثلاثة ، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة ، فهــذه سورة الكوثر ثلاث آيات قصار ، وهي أقصر سورة في القــرآن ، وقــد تضمنت الاخبار عن مغيبين : أحدهما ــ الاخبار عن الكوثر وعظمة وسعته وكثرة أوانيه ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٧٣ ــ ٧٥ بتصرف يسير •

وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل ، والثاني ـ الاخبار عن الوليد بن المغيرة ، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد ، على مايقتضيه قول الحق :

« ذرني ومن خلقت وحيداً • وجعلت له مالاً ممدوداً ، وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً » • ثم أهلك الله ـ سبحانه ـ ما له وولده ، وانقطع نسله •

الرابع : التصرف في لسان العرب على وجه لايستقل به عربي ، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على اصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه •

الخامس : الاخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا الى وقت نزوله من أمي ماكان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه ، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية في دهرها ، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحدوه به من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر عليهما السلام ، وحال ذي القرنين ، فجاءهم ، وهو أمّي من أمة أمّية ليس لها بذلك علم ـ بما عرفوا من الكتب السالفة صحته ، فتحققوا صدقه •

السادس : الوفاء بالوعد المدرك بالحس في العيان ، في كل ما وعد الله سبحانه ، وينقسم : الى أخباره المطلقة ، كوعده بنصر رسوله عليه السلام ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه ، والى وعد مقيد بشرط كقوله : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » ، « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » و « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » وشبه ذلك •

السابع : الاخبار عن المغيبات في المستقبل التي لايطلع عليها الا بالوحي فمن ذلك ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيُظْهِرُ دينَه على الأديان بقوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » الآية ، ففعل ذلك •

وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ماوعدهم الله من اظهار دينه ، ليثقوا بالنصر ، وليستيقنوا بالنجح ، وكان عمر يفعل ذلك ، فلم يزل الفتح يتوالى شرقاً وغرباً ، براً وبحراً ، قال الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » وقال : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » وقال : « وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم » وقال : « الم • غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون •• » •

فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لايقف عليها إلا رب العالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين ، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقة •

الثامن : ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام •

التاسع : الحكم البالغة التي لم تجر العادة أن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي •

العاشر : التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » • انتهى كلام القرطبي (1) •

وبالنظر في هذه الأوجه العشرة نجد أن إعجاز القرآن يتنوع تنوعاً واسعاً شاملاً للأسلوب وللمضمون أي المعنى ، مما يجعل اعجازه متناولاً كل أنواع البشر •

---

(1) مع اختصار وتصرف يسير •

وقد عني العلماء المعاصرون والباحثون المحـدثون بتحقيق البحث في أوجـه إعجاز القرآن مستفيدين من دراسات القدماء ومن نتائج بحث الحدثاء وقـدموا دراسات متوالية تنقح كل دراسة ما قبلها وتضيف إليها ما ولدته قريحة كل دارس جاء بعدها . وكان أول المشاهير في العصر الحديث عـلامة الأدب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله في كتابه « إعجاز القرآن » ، ثم جاء البحاثة المحقق الدكتـور محمد عبد الله دراز رحمه الله فقدم دراسات متعددة عن اعجاز القرآن كان أشهرها كتابه « النبأ العظيم » ، ثم جاء معاصره العلامة محمد عبد العظيم الزرقاني [1] فنقح القول في أوجه اعجاز القرآن وأفاد من دراسات الدكتور دراز واستكمل دراسته فجاءت دراسة عصرية وافية اقتبس منها الدارسون وأفـادوا من نتائجهـا ، وعني بعضهم أخيراً بتنقيحها والبناء عليها فجاء عمله بذلك أتم وأوفى [2] .

وسنقدم فيما يلي خلاصات ونتائج مستفيدين من هذه الدراسات مع الايجاز الشديد مراعاة لمقتضى المقام في هذا الكتاب :

★ ★ ★

---

(1) في كتابه القيم مناهل العرفان في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٠٥ وما بعد الى ص ٣٠٨ وبلغت أوجه اعجاز القرآن أربعة عشر وجهاً ، عدا ما يتضمنه بعضها من خواص معجزة , أدمجها في بعض الأوجه .

(2) هو شقيقي الدكتور حسن ضياء الدين عتر في كتابه « المعجزة الخالدة » فليرجع اليه للاستزادة .

الوجه الأول من أوجه اعجاز القرآن

أسلوب القرآن الكريم

أطال الدارسون القدماء والمحدثون في بيان خصائص أسلوب القرآن الكريم ، لعظمة هذا الوجه من أوجه اعجاز القرآن الكريم ، وتعدد جوانبه ، وتلخص منها هذه الجوانب فيما يلي :

أولاً ـ خاصية تاليف القرآن الصوتي في شكله وجوهره :

وهي خاصية بارزة عني بها بعض المتأخرين ، وصاغها نظرية في اعجاز القرآن الموسيقي وهو الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله (١) .

آ ـ أما خاصية تأليف القرآن الصوتي في شكله : فهي أول ما يسترعي سامع القرآن الكريم عن بعد بعيد بحيث يسمع فيه جملة الحركات والسكنات ، والغنّات والمدّات وهكذا ... فان السمع يجد نفسه ازاء لحن غريب عجيب لايجده في كلام آخر ، فأنت من القرآن أبداً في لحن متنوع ومتجدد ، على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء ، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم .

ب ـ وأما جوهر تأليف القرآن الصوتي : فيكمن في نظم حروفه ورصفها وترتيب أوضاعها ، ترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في هذا التناغم الموسيقي المعجز ، الذي جعل منه القرآن قالباً لما حمله من معاني الرسالة وحكمها وأحكامها ،

---

(١) في كتابه القيم « اعجاز القرآن » ونكتفي بالاشارة الى نظريته هذه لضيق المقام .

وعقائدها وقواعدها ، ومواعظها وزواجرها ، وما امتاز به أسلوبها في غرض هذه المعاني من سائر الخصائص المعجزة .

ثانياً ــ القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى :

وهما نهايتان في اتجاهين متضادين ، لايقبل المرء على إحداهما الا ابتعد عن الأخرى ، ذلك أن البليغ إما أن يؤدي مراده جملة مختصراً ، مقلاً من الألفاظ ، فلابد أن يَحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً ، وإما أن يعمد الى الوفاء بحق المعنى وتحليله الى عناصره وابراز كل دقائقه ، فلا يجد بداً من أن يمدّ في نفسه مداً ، لأنه لايجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة .

ولئن وفق البليغ لتقريب هاتين الغايتين تقريباً ما في جملة أو جملتين ، فلا يلبث أن يدركه الكلالُ والإعياء ، وضعف الطبع الانساني .

أما القرآن الكريم فقد جاء البيان فيه مقدراً أحسن تقدير ، فلا تحسّ فيه بالاسراف ولا بالتقتير ، فهو يؤدي لك الصورة وافية نقية لايشوبها شيء مما هو غريب عنها ، ولا يشذ عنها شيء من عناصرها وكما لها ، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه ، كما قال الامام أبو بكر الباقلاني : « محاسن تتوالى ، وبدائع تترى » ، بل إن كتاب الله تعالى ــ كما قال الامام ابن عطية ــ : « لو نُزِعَتْ منه لفظةٌ ثم أُديرَ لسان العرب على لفظةٍ أحسن منها لم توجد » ، بل هو كما وصفه الله : « كتابٌ أُحكمت آياتُه ثم فُصِّلت من لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ » .

ثالثاً ــ خطاب العامة وخطاب الخاصة :

وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس ، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم الى مستوى لايرضونه لأنفسهم في الخطاب ، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والاشارة التي تخاطب بها الأذكياء لَجِئْتَهُم من ذلك بما لاتطيقه عقولهم، فلا غنى لك ــ ان أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حقها كاملاً من بيانك ــ أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به

الاخرى ، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال ، فأما أن جملة واحدة تلقى الى العلماء والجهلاء ، وإلى الأذكياء والأغبياء ، والى السوقة والملوك ، فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته ، فذلك مالا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم ، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه الى عقولهم لايلتوي على أفهامهم ، ولا يحتاجون فيه الى ترجمان وراء وضع اللغة ، فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسر لكل من أراد « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

رابعا – إقناع العقل وإمتاع العاطفة :

وفي النفس الانسانية قوتان قوة تفكير ، وقوة وجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها ، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير الى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً .

فهل رأيت في كلام الناس هذا التمام ؟ :

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وعرضنا كلام الأدباء والشعراء ، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلواً في جانب وقصوراً في جانب .

وأما أن أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمع في يديك هذين الطرفين معاً ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً ، أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر ولا هو من سنن الله في النفس الانسانية .

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء ؟ .

ذلك الله رب العالمين ، فهو الذي لايشغله شأن عن شأن ، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان ، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت ، ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره لاينسى حق العقل من حِكْمَةٍ وعبرة ؟ .

أولا تراه في معمعة براهينه وأحكامه لاينسى حظ القلب من تشويقٍ وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب ، وتبكيت وتأنيب ؟ . يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » . « انه لقول فصل وما هو بالهزل » .

خامساً ـ تآلف الألفاظ والمعاني :

التآلف في الألفاظ هو ألا تكون بينها ثغرة في المخارج ولا في النغم بل تتآلف وتتآخى في نسق واحد ، فان إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع وتزل عن مكان لاتزل فيه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها ، وتراها في مكانها ، وتجدها غير منازعة في أوطانها ، وتجد الأخرى لو وضعت في موضعها لكانت في محل نفار ، ومرمى شرار ، ونابية عن استقرار ... »[1] .

وأما التآلف في المعاني : فهو ألا يكون معنى لفظ نافراً من المعنى الذي يليه ، وأن تتآلف الألفاظ والمعاني ، وما تثيره من الصور والأخيلة ، وما تستدعيه من معان يستلزم بعضها بعضاً ، فيتألف من ذلك علم كثير ، وأفهام زاخرة .

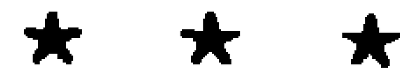
وهذه الخصوصية هي كغيرها أيضاً مستوفاة في جميع القرآن ، وفي كل آية منه ، لايحتاج الدارس والباحث الى اختيار وانتقاء ، بل كيفما قلب المصحف ونظر بعين البصيرة وجد أي خصوصية يطلبها على أعظم منازل الكمال الذي لايطيقه

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٨٠ .

انسان ، ووجد أسلوبه ينفذ من كافة أقطار النفس ، ويتغلغل في أعمـاق الأفئدة ، فيحملها على الخشوع والاخبات ، لما في طياته من قوة وهيمنة تدل على تنزله من علو، وصدوره من عظمة الألوهية وشرف الربوبية ، وقدرة الاله الحق ذي الجبروت .

فالقرآن بنفسه يدلّ على قدر متكلمه ويخبر عن مقام منزله عز وجل ، كمـا ينبه على عظيم شأنه تبارك وتعالى ، فيثبت لكل عاقل صحة رسـالة محمـد ﷺ ، وصدق نبوته (١) .



(١) انظر في خصائص أسلوب القرآن هذه كتاب « النبأ العظيم » للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٩٥ وما بعد ، ومناهل العرفان للزرقاني ج ٢ ص ٢١٥ وما بعد ، وبينات المعجزة الخالدة ص ٣٠٢ ــ ٣٠٧ و ٣١٧ ــ ٣٢٠ والعمدة في الخاصة الأخيرة على المرجعين الأخيرين واعجاز القرآن للباقلاني وكتاب المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٣٣ ــ ١٣٥ .

الوجه الثاني من أوجه اعجاز القرآن

الاخبار عن الغيب

هذا الوجه من أوجه اعجاز القرآن معجزه عقلية يعقلها ويدركها كل من يفهم الخطاب ويرد الجواب ، سواء كان يملك ذوقاً أدبياً فنياً أم لايملك ، بل سواء كان عربياً أ وأعجمياً •

وكذلك الشأن في أوجه الاعجاز التالية ، وذلك من غايـة كمال الاعجاز في القرآن الكريم •

والقرآن حافل بأنواع الاخبار عن الغيب ، غيب المستقبل ، وغيب الحاضر ، وغيب الماضي ، مما يحتاج تفصيله لتأليف واسع كبير ، لذلك سنكتفي ههنا بالماعة ولمحة وجيزة لضيق المقام عن التوسع فضلاً عن الاستيفاء •

أولاً ـ الاخبار عن غيب المستقبل :

في القرآن تنبؤات كثيرة جداً عن أمور ستقع في المستقبل ، لعل أهم ما نذكر منها تلك الأخبار المتعلقة بأمور مصيرية ، إذا لم تتحقق بدقة كاملة أدت الى انتقاض دعوة القرآن من الأساس ، ومن ذلك :

١ ـ اخبار القرآن في مكة والمسلمون في أقل القلة وأشد الضعف عن تحول المؤمنين الى القوة وانتصارهم ، وهزيمة المشركين ، وذلك في مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى : « أمْ يقولون نحنُ جميـعٌ مُنتصر • سيهزمُ الجمـعُ ويُولّونَ الدبر » (١) •

(١) سورة القمر الآيتان ٤٤ ـ ٤٥ •

فنبأ القرآن بهزيمة جموع المشركين في وقت لامجال فيه للتفكير بالحرب ، لغاية ما كان عليه المسلمون من الضعف والقلة ، لذلك تساءل عمر : أيّ جمع يهزم ؟ أي جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يَثِبُ في الدرع وهو يقول : سَيُهزم الجمع ويولون الدُّبر » ، فعرفت تأويلها [1] .

٢ ـ اخباره بوقوع الجدب على المشركين وكشف الله إياه عنهم وعودهم الى الكفر : قال تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخانٍ مبينٍ يغشى الناسَ هذا عذابٌ أليمٌ . ربنا اكشف عنّا العذاب إنا مؤمنون . أنى لهم الذكرى وقد جاءَهم رسولٌ مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلمٌ مجنون . إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون . يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » [2] .

فأخبر الله تعالى في هذه الآيات عن أمرين : رفع العذاب عن قريش بدعائهم وعدم اتعاظهم بذلك وعودتهم الى الكفر ، وهزيمتهم يوم البطشة الكبرى ، وهو يوم بدر .

كما في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : « ... ان رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدْباراً فقال : اللهم سبع كسبع يوسف ، فأخذتهم سنة حصّت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع ، وينظر الى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان ، فأتاه أبو سفيان فقال : يامحمد انك جئت تأمر بطاعة الله وصلة الرحم ، وان قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم ، قال الله عز وجل : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ...» الى قوله « انكم عائدون » قال : « أفيكشف عذاب الآخرة ؟ « يوم نبطش البطشة الكبرى انا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، كما في ابن كثير ج ٧ ص ٤٥٧ وأصله في البخاري في التفسير (سورة اقتربت الساعة) ج ٦ ص ١٧٩ ـ ١٨٠ من حديث ابن عباس .

(٢) سورة الدخان الآيات ١٠ ـ ١٦ .

منتقمون » فالبطشة الكبرى يوم بدر • وقد مضت آية الدخان ، والبطشة ، واللزام ، وآية الروم »[1] •

٣ ـ اخباره عن عودة النصر للروم بعد هزيمتهم المنكرة أمام الفرس حتى اضطر الروم للالتجاء الى القسطنطينية •

وقد فرح المشركون بذلك لكون الفرس مجوساً يعبدون النار والأصنام والروم أهل كتاب ، فأنزل الله تعالى : « ألم • غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ••• » •

وهذا مثال مشهور من أخبار الغيب بالقرآن ، وقد اشتمل على خبرين خطيرين أولهما : انتصار الروم على الفرس في فترة وجيزة جداً بالنسبة لتغير ميزان القوى بين الدول ، ولا سيما في ذلك العصر ، وخصوصاً بعد هزيمة ساحقة منكرة ، وقد تحقق ذلك في سبع سنين من تاريخ الحادث ونزول القرآن فيه •

ثانيهما : احتفاف ذلك بتغير ميزان القوة لمصلحة المسلمين وانتصارهم على المشركين وكان ذلك يوم بدر ، وفرح المؤمنون بنصر الله لهم ، كما فرحوا بنصر الروم وهم أهل كتاب على الفرس وليس لهم كتاب[2] •

ثانياً ـ الاخبار عن غيب الحاضر :

في القرآن اخبار كثيرة عن مغيبات حدثت في زمن النبي ﷺ ولا سيما مما كان يبيته الأعداء والمنافقون ، وقد عُنِيَت سورة التوبة بكشف دخائل المنافقين ودسائسهم ، وفضح مؤامراتهم حتى سميت الفاضحة •

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم : البخاري في تفسير سورة الدخان ج ٦ ص ١٣١ ـ ١٣٢ ومسلم في صفات القيامة (باب الدخان) ج ٨ ص ١٣٠ ـ ١٣٢ •

(٢) انظر النبأ العظيم ص ٤١ ـ ٤٢ ومناهل العرفان ج ٢ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧ ، ومصادر التفسير ، تفسير أول سورة الروم ، وانظر التحقيق في كتاب « المعجزة الخالدة » ص ٢٩٨ ـ ٣٠٢ ، وفيه أمثلة أخرى كثيرة ليست في غيره •

ومن هذا النوع من الأخبار أيضاً هذان المثالان :

١ ــ مؤامرة المشركين في بعض الغزوات على المسلمين أن يعطوهم الهدنة التي اعتادوها لأجل الصلاة ، ويفاجئوهم بالهجوم عليهم غَدْراً وهم يصلون ، فأنزل الله تعالى بيان كيفية صلاة الحرب بما فيه الوقاية من هذه المكيدة وقال فاضحاً نوايا العدو : « وَدَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » [١] .

٢ ــ ائتمر المنافقون بتوجيه من اليهود فبنوا مسجداً بجوار مسجد قباء ، زعموا أنه للصلاة وللمساكين يأوون إليه ، وطلبوا من النبي ﷺ أن يصلي فيه ، فأنزل الله تعالى يكشف خبيئة نفوسهم الخبيثة [٢] : « والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون ، لاتقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » [٣] .

ثالثاً ــ اخبار الغيب الماضي :

وذلك كثير جداً في القرآن يتضمن الاخبار عن حوادث قديمة وقعت من قبل ، وقصص الأنبياء وأممهم مما سنعرض له بشيء من التفصيل في بحث القصة في القرآن [٤] .

---

(١) من الآية ١٠٢ من سورة النساء .

(٢) الآيتان ١٠٧ ــ ١٠٨ من سورة التوبة .

(٣) وقد عد صاحب مناهل العرفان الأخبار عن الملائكة والجن من أنباء الغيب الحاضر ، ونحن نرى أنها تعتبر كذلك لمن سبق منه الايمان ، لاسيما ان قورنت بما عند الأمم الأخرى من علوم الغيب ، اما غير تلك الحالة فهي الغيبيات التي يتوقف الايمان بها على أصل الايمان بالله ورسله .

(٤) انظر المتوسع في هذا الوجه الثاني : أخبار الغيب « المعجزة الخالدة » فقد أطال وأجاد بما لاتجده في غيره ص ٢٨٠ ــ ٣١٥ .

الوجه الثالث من أوجه اعجاز القرآن

الاعجاز التشريعي

إن القرآن قد جاء بتشريع معجز يثبت أنه تنزيل من اللـه ووحي منـه تبارك وتعالى ، وذلك من أوجه كثيرة نذكر منها :

١ ــ انها جاءت على لسان رجل أمي وفي أمة أمية ، تعيش الحياة القبلية بكل كيان أفـرادها ، لايخطر عـلى بال أحد منهـم انتظام أو التزام بقانون عام أو نظام حضاري .

٢ ــ انه تشريع شامل وكافل لاحقاق الحق ، وصيانة مصالح الناس في جميع شؤونهم المالية ، والاجتماعية والأسرية ، والدولية ...

٣ ــ أنه تسامى على كل قانون عرفتـه الأمم قديمهـا وحديثها ، حتى أقرت المجامع القانونية الدولية الفقه الاسلامي مصدراً أساسياً تقتبس منه القوانين ، وان القوانين الحديثة في تطورها تتسامى لتقترب من الفقه الاسلامي .

قال فضيلة العلامة الكبير الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله (١) :

« ومن هذه الأحكام الشرعية التي اشـتمل عليها القـرآن ، فانها لايمكن أن تكون من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هي من عند الله ، وقد كتبنا في هذه عدة بحوث في احدى المجلات الاسلامية بعنوان (شـريعة القرآن دليل على أنه من

---

(١) في كتاب « المعجزة الكبرى » ص ٩٥ ، وانظر دراسات مفصلة حـول هـذا الموضوع وبيان تفوق أنظمة القرآن ص ٤٥٤ ـ ٥٤٧ من كتابه هذا .

عند الله) جمعتها احدى الهيئات الاسـلامية في رسالة ،ونشرتهـا ، وترجمتها إلى الفرنسية والانكليزية ، وقد أقمنا الدليل على أن تلك الشريعـة المحكمة لايمكن أن يأتي بها أمي لايقرأ ولا يكتب وقد نشـأ في بلد أمي ليس بـه مدرسـة ولا مكتب دراسة وهي في أحكامها لايمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى •

وكتبنا بحثاً وازنا فيه بين شـريعة القرآن وقانون الرومان في الملكية بالخلافة وذكرنا أن قانون الرومان قد تكون في نحو ثلاثة عشر قرنا ومع ذلك هو بالملكية بالخلافة لايوازن بشـريعة القـرآن إلا إذا وازنا بين عصا هشـة وسـيف بتار ، فلا يمكن أن يأتي به محمد من عنده ، بل هو من عند الله تعالى •

والأوربيون القانونيون يرون في قانون الميراث في القرآن أن العقل البشـري لم يصل إلى الآن إلى خير منه ونحن نقرر لهذا أن ما ذكره القرطبي غـير الصرفة يدل على أن القرآن كله جملة وتفصيلا هو من عند الله تعالى العليم الخبير » •

* * *

الوجه الرابع
اتساق نظريات القرآن وأحكامه

جاء القرآن الكريم بهداية شاملة ، كافية وافية في جميع الشؤون المختلفة المتنوعة ، وزاد عدد آياته على ستة آلاف آية تناولت مختلف الموضوعات التي تزيد على المئات ، وجاء ذلك كله متفقاً في معانيه وأحكامه ، متسقاً في أسلوبه واعجازه ، فكان ذلك دلالة على أنه كلام الله ، كما قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (١) .

وقد فصل الامام الغزالي وجه الدلالة بهذا تفصيلاً وافياً بايجاز جميل فقال (٢) :

« الاختلاف لفظ مشترك بين معان ، وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن ، يقال : هذا كلام مختلف ، أي لا يشبه أوله آخره في الفصاحة أو هو مختلف الدعوى ، أي بعضه يدعو إلى الدين ، وبعضه يدعو إلى الدنيا ، أو هو مختلف النظم ، فبعضه على وزن الشعر وبعضه منزحف وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزالة وبعضه على أسلوب يخالفه .

وكلام الله منزّه عن هذه الاختلافات ، فانه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره ، وعلى درجة واحدة في غاية الفصاحة ، فليس يشتمل على الغث والسمين ، مسوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق الى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا الى الدين .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨١ .

(٢) كما نقل عنه السيوطي في الاتقان ج ٢ ص ١٢٤ .

وكلام الآدميين تتطرق إليه هذه الاختلافات ، إذ كلام الشعراء والمترسلين إذا قيس عليه وجد فيه اختلاف في منهاج النظم ، ثم اختلاف في درجات الفصاحة ، بل في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغث والسمين ، ولا يتساوى رسالتان وقصيدتان بل تشتمل على أبيات فصيحة وأبيات سخيفة ، وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة ، فيوجب ذلك اختلافاً في كلامه بالضرورة ، فلا يصادف انسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة نزول القرآن فيتكلم على غرض واحد ومنهاج واحد ، ولقد كان النبي ﷺ بشراً تختلف أحواله ، فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من البشر لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

الوجه الخامس

تأثير القرآن وفاعليته في الأفئدة

لو أن اذاعات عالمية أو صحفاً كبرى أخبرت عن دويلة صغرى أنها أخذت بكتاب لديها فارتقت من دحض الضعف والتخلف والجهل الى أوج القوة والتقدم والعلم حتى اكتسحت الدولتين الأعظم لاعتبرنا ذلك حيلة اذاعية ، أو خدعة صحفية، لأن هذا يتنافى مع ما جرت به العادة وقوانين الاجتماع ، وقد كان العرب أدنى من ذلك حالاً وأشد تخلفاً ، وإذا بهم بهذا القرآن وتأثيره فيهم انقلبوا حتى كانوا كما سجل القرآن نفسه في مدحهم : « كُنتم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناسِ » ، وهكذا ظل القرآن مدى التاريخ كتاب الهداية ، يؤمن بسببه الكافر ، ويهتدي الضال ، ويتوب العاصي ، ويثوب لرشده الفاسق ، مما لاتجده لكتاب آخر [1] .

وهذا وجه بديع من الاعجاز ، فيه آفاق واسعة من فنون البيان والدراسات النفسية .

★ ★ ★

---

(١) انظر كلام الخطابي في رسالته بيان اعجاز القرآن ص ٦٤ .

الفصل السابع عشر

في

التصوير في القرآن

من إعجاز القرآن ما وجده الباحثون في أدب القـرآن المعجز أنـه معجز في تصويره بالمعنى العصري الحـديث كما أنـه معجز في نظمه في نظـرية النظـم في الاصطلاح القديم (1)، كيف لا وهو الذي تحدى الله تعالى العالمين كلهم أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة منه ، وأعلن لهم على رؤوس الأشهاد أنهم لم يأتوا بمثله ، ولن يأتوا بمثله ، فكان اعجاز القرآن معجزاً في كل عصر ، وفي أي مقيـاس أدبي صحيح ، وذوق فني سليم ، لاينحصر بعصر دون آخر ، ولا يضيق على مقياس أدبي صحيح أو آخر ؛ ولا يستطيع أن يدرك كنهه أو يحيط بأسراره عبقـري بل ولا عصـر مـن العصور أو جيل من الأجيال ، انها معجزة فوق الاعجاز ، معجزة كل عصر وزمان •

يتجه القرآن لهذا الانسان فيخاطبه بكليته ، وذاته كلها ، عقله وفكره ونفسه ، ووجدانه ، يخاطـب كينونة الانسـان كلهـا ، وذلك بأسلـوبه العجيب أسلوب التصوير الحي •

يوجه القرآن كلمته للانسان ، فيثير في خياله صوراً حية تخاطب الحواس بكل ما يلائمها من عناصر الطبيعة والحياة ، فتترك في الأفكار والضمائـر تأثيرات

(1) إشارة الى نظرية « النظم » التي فسر بها الجرجاني اعجاز القـرآن • انظـرها في كتابنا : « القرآن الكريم والدراسات الأدبية » •

وانفعالات قوية عميقة ، تحشد نوازع الخير في العقـل والنفس ، وفي الوجـدان والارادة فتنطلق بذلك مؤمنة بعقيدة القـرآن ، مستمسكة بهـديه عبـادة وخلقاً وشريعه ، وتجاهد في سبيل حمايته واعلاء رايته •

لو أستعرضت القرآن من بدايته الى ختامه فستجد طريقة خاصة بالتعبير الفني تكسو أسلوب القرآن حتى يصطبغ بألوانها البراقة الزاهية فانك لن تجد فيه بياناً مجرداً لمعنى ذهني ، أو حالة نفسية أو حادث مادي أو مشهد منظـور ، أو طبيعة آدمية ، أو موقف من مواقف يوم الحساب ، بل تجده عبر عن كل منها بصـورة محسوسة متخيلة ، حاضرة شاخصة ، صورها بالألوان أو الحركات أو الايقـاع ، ومزج بها جرس الكلمات ونغم العبارات ، حتى تسري في أوصالها الحياة وتدب في جنباتها الحركة فاذا خلع عليها الحوار فقد نفخ فيها الروح فاكتملت فيها كل عناصر التخييل الحسي والتشخيص الحي ، فتتبدى لك صورة حية بارعة خلابة ، تهيمن على مشاعرك وأحاسيسك حتى تجعلك أمام قبس من الحياة الحقيقية •

« انها الحياة هنا وليست حكاية الحياة » •

« فاذا ذكرنـا أن الأداة التي تصـور المعنى الذهني ، والحالـة النفسـية ، تشـخّص النموذج الانساني ، أو الحادث المرئي ، انما هي ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ، ولا شخوص تعبر أدركنا موضع الاعجاز في تعبير القرآن » (١) •

وسائل التصوير الفني في القرآن :

إن وسائل التصوير في القرآن هي كل وسيلة من وسائل التعبير تثير المخيلة وتستدعي الصورة الى الفكر ، وتسيّر الحركة ، وتلمس مشاعر الوجدان والقلب •

فالحروف في القرآن تصور ، والكلمة تصور ، والجملة ، وفنـون البـلاغة كذلك تصور ، وهناك من وراء ذلك أدوات وأدوات ، فهناك « تصـوير باللـون

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ٣٣ •

وتصوير بالحركة وتصوير بالإيقاع ... وكثيراً مايشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ، ونغم العبارات وموسيقى السياق في ابراز صورة من الصور تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان ... » .

أما المادة التي تستخدم من المعاني والأشياء فهي مادة « تصوير حَيٌّ منتزع من عالم الأحياء لا ألوان مجردة وخطوط جامدة ، تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر والوجدانات فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة » (١) .

فمن التصوير بالحرف : هذه الآية الوَجِيْزَةُ الجامعة من سورة القلم : « وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

هذه الآية أمدح قول يقال ، جمعت في وجازة عبارتها الفضائل العلمية والعملية . لكن حرف الجر « على » نقل هذا المعنى المجرد الى صورة حسية يتخيلها المرء ، لأن هذا الحرف معناه الاستعلاء ، والاستعلاء انما يكون على شيء مادي ، فكأن مكارم الأخلاق قد ذللت وانقادت للنبي ﷺ يتصرف فيها تصرف المستعلي على الشيء المتمكن منه ، كما أنها أفادت رفعة مقام النبي ﷺ لأنه في قمة المكارم والفضائل ، فلا يمكن أن يدانيه أحد أو يساويه لأنه علا فأصبح « على خلق عظيم » .

وهكذا ارتقى المعنى بهذا التصوير ليبلغ غاية لاتساميها غاية ، حيث أصبح النبي ﷺ في أعلى المكارم والفضائل ، ثم هي فوق ذلك لاتصدر عنه بتكلف أو مشقة بل بغاية اليسر ، لأنها منقادة له ، وتلك نهاية في الكمال لاتدرك ، ولا يبلغها إلا من قال الله تعالى له : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ومن ثم قال المادح المتذوق عظمة هذه الآية وجلالها :

إذا الله أثنى بالذي هو أهله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورى

(١) التصوير الفني في القرآن ص ٣٢ .

ومن التصوير بالحرف : هذه الجملة من مطلع سورة البقرة : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » .

فقوله: « ذلك الكتاب » أفاد غاية كمال القرآن ، حتى كأنه لاكتاب سواه .

لكن حرف اللام في « ذلك » وهو لام البعد أضفى على المعنى خيالاً مصوراً فانه أفاد أن هذا الكتاب لفرط كما له بعيد عن أن تناله أطماع الطامعين بانتقاص شيء منه أو الاتيان بمثله فصوّر تعاليه المعنوي بالبعد الحسي ، فاستعمل اسم الاشارة ، وهي تستعمل حقيقة في الحسيات ، وأدخل لام البعد ، يصوره لنا في بعده المعنوي عن أن يتوصل اليه بالبعد المكاني الذي لاتبلغه وسائل التوصيل .

ومن التصوير بالكلمة : قوله تعالى [1] : «الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » .

فقوله تعالى هنا : « ليبلوكم » المراد منه يختبركم ، وأصل المقصود ليظهر أيكم أحسن عملاً ، ولما أن الاختبار يكشف هذه الحقائق ويظهرها فقد عبر به عن ذلك ، لكن الآية القرآنية نقلتنا من هذا المعنى المجرد الى صورة فيها المعاناة المستمرة باستعمال كلمة « يبلوكم » وأصل الكلمة من « البِلَى » ، فصورت هذه الكلمة الانسان بتعرضه للامتحانات واحتكاكها به في كل شؤونه وكأنه قد بلي منها ، وجاءت الصيغة « يبلوكم » بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار لكي تحضر لك صورة هذا الانسان وأنواع الاختبارات تتوالى عليه . فتتابع عليه الابتلاء حتى بلي ، فأثرت الكلمة في ايجاد الصورة كما لعبت الصيغة دوراً أعطى الصورة حركة وحساً ، لو عبرت بكلمة أخرى أو صيغة أخرى غير المضارع من المادة نفسها لَفَاتَ من غرض الكلام ونقص مغزاه .

---

(١) سورة الملك : الآية : ٢ .

ولصيغة الكلمة الصرفية دورها الهام جداً في أسلوب القرآن الكريم ، ينطوي على لون من قمة الاعجاز البياني ، بل وجدناه ينطوي على اعجاز علمي عظيم .

ومن أمثلة ذلك هذه الآية (١) : « أولم يروا الى الطير فوقهم صافاتٍ ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير » .

تصوّر كل من الكلمتين « صافات ويقبضن » طيران الطيور في الهواء ، في حال بسط أجنحتها ، وفي حال ضربها بأجنحتها على جنوبها « صافات » : أي باسطات أجنحتها « ويقبضن » أي يضربن بأجنحتهن على جنوبهن ، والصورة واضحة من التعبير ، وجاءت كلمة فوقهم لتستكمل صورة الطيران فهو محلق في الهواء « فوقهم » .

لكن التأمل الدقيق يوقفنا على سر في التعبير غاية في العجب ، ذلك أنه اختار في المعنى الأول صيغة اسم الفاعل « صافات » ، وفي المعنى الثاني الفعل المضارع « يقبضن » .

إن الاعجاز العلمي الكامن وراء هذا التصوير هو الذي يكشف لنا سر هذا الاختيار .

لقد عبر القرآن عن بسط جناح الطائر في طيرانه باسم الفاعل « صافات » ، وعبر عن قبض الطائر جناحه وضربه جنوبه بجناحيه بصيغة الفعل « يقبضن » ، ليأتي التصوير الفني في القرآن على غاية الدقة في موافقة قانون الطيران ، وذلك لأن الأصل في قاعدة الطيران هو بسط أطراف الجسم الطائر في الهواء ، فجاء القرآن في تصويره للطيران بالتعبير عما هو طارىء بلفظ الفعل ، لأنه يفيد الحدوث وعبّر عما هو الأصل بصيغة اسم الفاعل ، أي أنهن في جو السماء صافات ويكون منهن

(١) سورة الملك الآية : ١٩ .

القبض تارة بعد تارة [1] .

ومن الأمثلة للتصوير بالجملة قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » [2] .

قال الرماني [3] يوضح بلاغة هذه الآية وما بها من الاستعارة :

« أصل الاشتعال للنار ، وهو في هذا النص أبلغ ، وحقيقته كثرة شيب الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايداً سريعاً صارت في الانتشار والاسراع كاشتعال النار ، وله موقع في البلاغة عجيب ، ذلك أنه انتشر في الرأس انتشاراً لايتلافى ، كاشتعال النار » .

وهذا التعبير لم يكن معروفاً عند العرب ، وذلك أنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار للسرعة وللبياض وللملازمة ، لأنه ينتهي بتدمير ما تتصل به ، وتجعل حطامه تراباً [4] .

وهكذا حيثما يممت في هذا القرآن وجدت الصورة والتصوير ، مما لايحتاج للاطالة وفي تفسيرنا للقسم الأول من هذا المقرر أمثلة كثيرة جداً يدركها الدارس بالتأمل ، فلا نحتاج لأكثر من هذا هنا .

★ ★ ★

---

(1) باختصار وتصرف عن تفسير الكشاف وتفسير النسفي وكتابنا محاضرات في تفسير القرآن ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(2) سورة مريم الآية ٤ .

(3) في رسالته النكت في اعجاز القرآن ٨١ ـ ٨٢ .

(4) انظر المعجزة الكبرى لمحمد أبو زهرة ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ ، وللجرجاني تفصيل قيم حول بلاغة الآية لم نطول به .

الفصل الثامن عشر

في

القصة في القرآن

لايخفى ما تدل عليه أخبار الأمم السابقة مع أنبيائها ، ووقائع الماضي البعيد الذي عفت عليه الأيام ، وذهبت بعلمه ومعرفته ، فالقصص عن الأمم السابقة معجزة بيّنة ، وحجة حاسمة من دلائل علم الغيب الذي لايعلمه إلا الله ، كما أنه دروس وعبر ، وحكم ومواعظ يفهمها العامة من مؤمن ومنكر ، والخاصة من متعمق ومتمعن ، لذلك عني القرآن الكريم بأنباء السابقين أيما عناية ، وبث هذه الأخبار في ثنايا دعوته ، ولتأييد حججه وبيناته .

اهداف القصة في القرآن :

لابد أن يلاحظ المتأمل لكتاب الله تعالى عنايته بالقصص حتى انها قد بُثت في ثنايا الكتاب الكريم بشكل بارز ملحوظ ، وذلك لما يهدف إليه إيرادها من الحكم والأسرار الجليلة ، نلخص جملة من أهمها فيما يلي :

أولاً — الهدف الأكبر والأعظم للقصص في القرآن هو اثبات نبوة النبي ﷺ وأن القرآن وحيٌ يُوحى من الله تعالى ، وذلك لأن علم الماضي قد ذهب واندثر ، والنبي ﷺ أميٌّ لايقرأ ولا يكتب ، وقومه كذلك أميون ، لم ينشأ بين أهل الكتاب ولا كان ثمة مدرسة يتعلم منها هو أو أحد من قومه ، ولا خالط أحداً من أهل العلم بالكتاب السابق ولا تلقى عن أحد منهم شيئاً قط ، فلما جاء بهذه الأخبار

ينبيء بها نبأ الأنبياء مع أممهم ، فيطابق ما كان عند أهل الكتاب صوابا لم يدخله خطأ ، ويصحح ما كان عندهم دخله تغيير أو تبديل ، ويخبر بوقائع لايعلمها أهل الكتاب ولا ذكرت في تراثهم فكان كما قال تعالى في وصف القرآن : « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » . هذا مع أن علماء أهل الكتاب كانوا يحفظون تلك العلوم التي عندهم ولا يطلعون أحداً عليها ، فدل ذلك القصص على أنه لايمكن الا أن يكون تلقياً من عالم الغيب والشهادة ، الذي يعلم السر في السموات والأرض .

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الوجه من الاعجاز ، وصرح به في مواضع متعددة ، تأكيداً لاعجازه ، وتأكيداً لتحدي المرتاب الشاك ، والمنكر المعاند .

فنجده عقب ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله زكريا لها يقول : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنتَ لديهم إذْ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنتَ لديهم إذ يختصمون » (١) .

ويقول في سورة هود : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومك من قبلِ هذا فاصبر إنَّ العاقبة للمتقين » (٢) .

بل قد تعرض للامتحان فيما يأتي به من قصص الغيب الماضي ، فطرح عليه أهل الكتاب أسئلة مما يعلمونه مغيباً عنه فسألوه بواسطة أهل مكة عن أهل الكهف والروح وذي القرنين فأجابهم عن ذلك كله بدقة وتفصيل ، فآمنا من ذلك « ... انه ما علم إلا بوحي الله واطلاعه عليه ، وهي أخبار كثيرة ، لايقع الصدق فيها ألا بالوحي من الله عز وجل » (٣) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة هود ، الآية ٤٩ .

(٣) تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار الهمذاني ص ٨٦ ـ ٨٧ . وفي هذه العبارة اشارة هامة الى حكمة من حكم كثرة القصص واتساع المساحة التي يحتلها من القرآن، وهي تأكيد هذا الاعجاز .

ثانياً ــ بيان أن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله في النهاية ، ويهلك الكافرين المكذبين ، ولا يخفى ما في ذلك من تثبيت قلب النبي ﷺ ، وتقوية نفوس المؤمنين وزجر الضالين المعاندين وزحزحتهم عن مواقفهم ، فتتأثر النفوس كل نفس بحسب ما تحتاج إليه ، إذ يتوالى عليها بيان نصر المؤمنين ، وخذلان الكافرين ، وإحقاق الحق وازهاق الباطل ويتكرر رفع راية العدل ، ومحق قوة الظلم من خلال وقائع القصص التي يذكرها القرآن ، بل بما يقع فيه من التصريح بهذا التنبيه ، وإثارة هذه القضية ، في كثير من مناسبات القصص .

وفي سورة غافر يقول تعالى عقب قصة موسى وفرعون ومؤمن آل فرعون وإنجاء الله موسى والمؤمن وإهلاك فرعون : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهادُ ، يوم لاينفعُ الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » (١) .

ثالثاً : بث المعاني الدينية الواضحة وترسيخ قواعد الدين ، بما يقع في ثنايا القصص من حوار ، ومواعظ وحجاج ، يصغي إليها السامع ، ويتابعها القارىء سواء كان موافقاً أو مخالفاً ، مؤمناً أو كافراً ، لما في طبيعة القصص من التشويق والاثارة . تأمل مايلقيه مؤمن آل فرعون لما خشي على موسى من طغيان فرعون وبطشه :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ... الآيات الى أخر القصة في سورة غافر .. » (١) .

ففي قصة موسى مع فرعون هنا برزت التوجيهات على لسان الرجل المؤمن يقرر أموراً على غاية من الأهمية وهي جميعها معان دينية ، وتوجيهات صريحة تضمنها الحوار القصصي ، مما يجعل وقعها في النفوس أبلغ وأعمق .

---

(١) سورة غافر الآيتان ٥١ ــ ٥٢ .

(٢) على القارىء استحضار الآيات وتأملها .

طريقة القصص في القرآن :

لما كانت القصة في القرآن تهدف الى مقاصد دينية وايمانية كانت طريقة القص في القرآن متميزة عن المألوف في هذا الفن ، لكـي يتـلاءم أسلوب عرض القصة مع الوفاء بحق الغرض الذي سيقت لأجله ، ومن أبرز سمات طـريقة القـرآن في القصص ما يلي :

أولاً ــ الاقتصار على موضع الغرض :

إن القصة لاترد في القرآن بتمامها دفعـة واحدة ، بل يقتصر على الجزء الذي يناسب الغرض الذي تساق القصة لأجله بالحدود الملائمة للغرض .

فقصة موسى مع فـرعون في سـورة غافر وردت في جو كأنه جو معـركة ، لأن فيهـا بيـان الصراع بين الحق والباطل ، والمعـركة بين الايمـان والكفـر ، فتذكر السـورة من القصـة مايلائم ذلك : محاولة قتـل موسى ، والتفكـير بقتل « أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم » . ثم ظهور الرجل المؤمن بين قـوم فرعون يكتم ايمانه فينصر موسى ويدافع عنه ، واحتيال فرعون للتهرب من دلائل الحق وبراهينه الى أن تأتي نهايته بالهلاك والعذاب الأليم . وبحفظ الله تعالى لهذا المؤمن الحكيم . « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذب .. » فكان الختام ملائماً لجو السورة ، كما أنه في الوقت نفسه ختـام فني رائع ذلك المشهد الذي يبرز فيه فرعون وقومه قد حل بهم « سوء العذاب النار يعرضـون عليها غدواً وعشياً ... » .

ثانياً ــ استخراج التوجيهات والعظات :

والاعلان بها في ثنايا القصة وختامها مما توحي به القصة من العبر والدروس .

ففي قصة لقمان مثلاً « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » . يأتي البيان القرآني بتعقيب على هذه الموعظة بقوله تعـالى : « ووصينا الانسان بوالديه ... الآيات .. » .

فهذا بعد وصية لقمان الأولى ليس من كلام لقمان ، بل هو من كلام الله تعالى يوجهه سبحانه لعباده لمناسبة وعظ لقمان ، يحقق غرضين كبيرين :

الأول : التأكيد على وصية لقمان « لاتشرك بالله » ببيان أنه أعظم الحقوق ، وأنه لايجوز التساهل إزاء قضية الايمان وتوحيد الله لأي اعتبار ، ولو كان هو حق الوالدين البالغ غاية التقديس •

الثاني : تأكيد حق الوالدين ، وبيان أنه أجل حقوق العباد على الانسان ، وأقدس واجبات الانسان تجاه الانسان لكنه مع ذلك لايقاوم حق الله تعالى •

ثالثاً ـ التكرار :

والتكرار خاصة من خصائص أسلوب القرآن بصورة عامة ، وهو في طريقة عرض القرآن للقصة جزء من تلك الطريقة • ولهذا نجمع بحث هذه السمة لنلخص بحثها في هذه المناسبة في فقرتين : تكرار القصة في القرآن ، تكرار العبارات في القرآن •

١ ـ تكرار القصة في القرآن :

إن اطلاق كلمة تكرار هنا فيها كثير من التسامح والتساهل ، فان تعرض القرآن لما حدث مع نبي من الأنبياء مع قومه في أكثر من موضع ليس هو تكراراً بالمعنى الحقيقي ، إنما هو استشهاد بالقصة لأغراض متعددة ، لذلك لانجد القصة تعاد كما هي ، وانما يذكر الجزء المناسب للغرض والمقصد الذي اقتضى الاستشهاد بالقصة باستعراض سريع • أما جسم القصة فلا يكرر إلا نادراً ، ولاستنباط دروس وعبر جديدة منه مما يجعله على الحقيقة غير مكرر •

وهكذا وردت قصة آدم في ست مواضع من القرآن تثير العِبَر حول خطر اتباع الهوى ومخالفة أمر الله ، وضعف الانسان أو توبته وقبول توبته وهكذا •

وهكذا تكررت قصة موسى مع فرعون ، ومع قومه ، ومع نبي الله شعيب في مدين : ... وفي كل موضع عبرة وعظة وحكمة ودروس .

٢ ـ تكرار العبارات في القرآن :

هذا القسم من التكرار يبرز بعض خصائص أسلوب القرآن ، وأسرار بلاغته المعجزة ، فتارة يكرر الجملة أو العبارة بنصها دون تغيير فيها ، لما في ذلك من التأكيد ، أو التهويل ، أو التصوير ، وكل ذلك له أثر عظيم في تعميق المعنى في في النفس وصَدْعها عما تصر عليه . ويظهر ذلك بوضوح بالمثال الذي يتبادر للذهن أول شيء لدى ذكر التكرار ، وهو سورة الرحمن التي تكرر فيها كثيراً قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » . فإن هذه السورة تعدد للمنكرين نعم الله عليهم ودلالة كل نعمة على وجوب الانقياد لله شكراً له ، وخضوعاً لعظمته ، وهكذا بالتعداد المفصل لتلك النعم والدلائل حتى تزحزح المعاند عن عناده ، وترسخ في أعماق النفس الشعور بوجوب شكره تعالى ، فعقب ذكر كل واحدة من النعم والدلائل بهذه الآية « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

وتارة يكون التكرار مع اختلاف في نظم الجملة ، أو ايجاز أو اطناب أو نحو ذلك . وذلك يبرز سراً من أسرار اعجاز القرآن ، وهو التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من أسلوب دون أن ينال تكرار المعنى من سموّ الأسلوب وإعجازه ، بينما لايخلو كلام البشر في مثل هذا الحال من تفاوت بين الأسلوبين واختلاف مستوى الأداءين . وذلك من جملة تصريف البيان في القرآن الذي ذكره القرآن في مناسبات متعددة ، كقوله تعالى : « وكذلك نُصرف الآيات وليقولوا درست .. » وقوله : « وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً » .

وحقيقة التصرف : « إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى ، خشية تناسي الأول لطول العهد به » (١) .

---

(١) كما قال الزركشي في البرهان ج ٣ ص ١٠ .

وبهذا التصريف المعجز حقق القرآن هدفاً عظيماً هو خطاب الناس كافة ، من تكفيه الاشارة والموجز من القول ، ومن لايسد خلل فهمه إلا التفصيل وهكذا تنوع أسلوب القرآن ، حتى في الكلمة الواحدة فانه تتنوع فيه العبارة من موقع الى موقع ، ونشأ عن هذا الغرض الأخير فن" جليل دقيق هو « متشابه القرآن اللفظي » ، صنف فيه العلماء عدة كتب ، أذكر منها كتاب « درة التنزيل وغرة التأويل » للخطيب الاسكافي .

ومن أمثلة ذلك هذا التحليل نسوقه من الكتاب :

قال تعالى في سورة الأنعام (١) : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم » .

وقال في سورة الاسراء (٢) : ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم » .

فالسؤال هنا : لم قدم في الأول : ضمير المخاطب « نحن نرزقكم » ، وفي الثاني ضمير الغائب : « نحن نرزقهم » .

والجواب عن هذا من أكثر من وجه نذكر منها ما يختص بالمعنى :

إن الاولى تحرّم قتل الأولاد الذي يدفع إليه الفقر النازل فعلاً بالآباء كما قال : « من إملاق » . فناسب لذلك تقديم ذكر الآباء لأنهم هم الذين يعانون الفقر فعلاً ، وهو يدفع بعضهم للتخلص من أعز شيء عليه ، فكان الملائم للمقام هنا تقديم ذكر الآباء .

---

(١) الآية ١٥٢ .

(٢) الآية ٣٢ .

أما لآية الثانية : فتحرم قتل الاولاد الذي يدفع إليه خوف الفقر في المستقبل « خشية إملاق » لتضاعف مسؤوليات النفقة بسبب الأولاد • فناسب لذلك تقديم ذكر الأبناء « نحن نرزقهم » لضمان مستقبلهم من اللـه وإزاحة هـذا التخـوف والوسواس الذي تحرك في القلب بسببهم [1] » •

ولذلك أمثلة كثيرة أتى في دراستها العلماء بروائع الاعجاز القرآني •

رابعاً ـ أسلوب القصة الفني في القرآن :

وأسلوب القصة في القرآن جزء من أسلوبه المعجز بخصائصه العامة لكنا هنا نقف على جديد في الأسلوب هو تجاوب أسلوب القص الفني في القرآن مع أحدث فنون القصة ، فأنت واجد في قصص القرآن مقومات القصة الفنية من تمهيد وعرض أحداث وعقدة وحل للعقدة ، ثم خاتمة ونهاية للقصة • بل تجد في قصص القـرآن مالا يخطر على بالك ، ذلك هو خصوصيـة المسرحية والأسـلوب التمثيلي حتى أن القصة في القرآن ليمكن أن تعرض مسرحياً دون أي تعديل فيها • وذلك مالا يتأتى في غيره من القصص إلا أن تكون قد كتبت وأعدت اعداداً خاصاً لهذا الغرض •

ومن يتأمل ماورد في سورة غافر من قصة موسى مع فرعون وجد مصداق ذلك في تلك الآيات [1] :

فقد ذكر في هذه السورة من قصة موسى مع فرعون مايلائم غرض السـورة العام وهو معالجة قضيـة الحق والباطل ، وبدأت أولاً بهـذا التمهيـد : « أَوَلَم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم كانوا هم أشَدَّ منهم قـوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ••• » فتهيأت الأذهان بهذا التمهيد للقصـة التي جاءت بمثابة المثال التطبيقي لهـذه القاعدة الكليـة التي مهدت بهـا السورة •

(١) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الاسافي ص ٣٣٩ •

(٢) الآيات ٢٣ ـ ٤٧ من سورة غافر وعلى القارىء استحضارها •

ثم جاءت العقـدة مبكرة ـ وقد تأتي في مواضـع أخرى متـأخرة عن مثل هذا الموقع ـ والعقدة : « وقال فرعون ذروني أقتلْ موسى وليدع ربـه ... » . وهنا يأتي دور مؤمن آل فرعون الذي كتم ايمانه من قبل ، لكنه الآن يرى الواجب يدعوه لقولة الحق ، فتصرف بما يوجبه عليه الموقف بحكمة وتبصر . ودار الحوار وسـط تشـوق العقل لمعرفة النتيجة وكيف حل العقـدة التي لم تتأثر بهذا المنطق السديد الحكيم ، فكان الحل أخيراً بهذا الأخذ الالهي :« فَوَقَاهُ اللهُ سـيئاتِ مامكروا وحاقَ بآلِ فِرْعَوْنَ سُـوْءُ العـذابِ ... » وكان بعد حل العقدة انتهاء القصة بمشهد ختامي رائع ، هو مشـهد أولئك الطغاة الجبارين يذوقون أليم العذاب : « النار يُعْرَضُون عليها غُدُوّاً وعَشِـيّا ... » . إلى آخر الصورة وما فيها من اختصامهم في النار ...

ونلمح في القصة خصوصيتين من خصائص فن القصص المسرحي :

الأولى : الاعتناء بفن التصوير ، ويظهر هنا واضحاً في رسـم الشـخصيات ، فشـخصية موسى تظهر هنا بصورة ذلك النبي الواثق بقضيته فهو يواجـه تهديد فرعـون باللجوء الى الله تعالى ، وشـخصية الرجل المؤمن تبـدو من خلال الحوار شخصية الرجل الحكيم الذي يتبـع المنطق المعقول ، مع اثارة عواطف قومه بالنداء المتكرر ياقوم .. ، ياقوم .. » وشخصية فرعون تبدو بجبروتها وخبثها واصرارها على الباطـل ، يقابل دعـوة الحق بسـفك الدماء ، ويواجـه المنطق المفحم بالحيلة والدهاء : « ياهامانُ ابْنِ لي صَرحاً لعلي أبلغ الأسباب .. » .

الخصوصية الثانية : حذف الثغرات بين الوقائع مما لاحاجة إليه لفهم القصة ، بطريقة فنية عجيبة اخترق بها قصص القرآن أستار القرون ليأتي متلائماً مع العرض التمثيلي الذي نما في هذا العصر إلى أبدع أسـلوب وصل إليه الأدب ، فنجدنا مع قصص القرآن ننتقل من مشـهد إلى مشـهد ، كما لو كنا أمام القضية تعرض علينا صوراً . فمن مشهد إرسال موسى ودعوته فرعون إلى مشـهد تهديد فرعون موسى

بالقتل ، إلى مشهد مجلس خاص بين فرعون وحاشـيته يبرز فيـه مؤمن آل فرعون حيث يدور الحوار الذي يشـغل القسم الأكبر من القصة ، إلى مشهد آل فرعون ، وقد حاق بهم سوء العذاب في ختام القصة •

ومن تأمل سائر قصص القرآن تبين له ماعرضناه هنا ، وتذوق إعجاز أسلوب القرآن في القصة ، وزاد إحساسه بذلك إذا لاحظ البون الهائل بين القصة في الأدب العربي وآداب العالم في عصر نزول القرآن وما تطور إليه فنها في العصر الحديث •

قصص القرآن حقلقة تاريخية :

لقد صرح القـرآن بأنه يقص القصص الحق أي الثابت الواقـع ، فكان ذلك دلالة على أن ماجاء في هذا الكتاب الكريم تبيان لوقائع حدثت في غيب الماضي الذي اندثر علمه عن الناس ؛ وكان هذا القصص وجهاً من أوجه اعجاز القرآن الدالة عـلى أنه من عند الله تعالى •

غير أن التحريف والدس في قصص الأنبياء الذي وقع في تراث الامم السابقة عامة ، وفي المرويات الاسرائيلية خاصة دفع الباحثـين العلميين الاجانب إلى التشكك في هذه القصص بل الى الغلو في التشـكك ، حتى في القضايا البدهية ، مثل وجود بعض الأنبياء المتقدمين الذين تدل دلائل اليقين القاطع على وجودهم ، بل من كان له الأثر الكبير في تحويل الانسـانية مثل ابراهيم أبي الأنبياء أو موسى وعيسى عليهم السلام •

ثم جاءت ببغاوات الثقافـة الأجنبيـة من أبناء ملتنا ليرددوا بغير علم مقالة أولئك ، ويطبقوها على قصص القرآن ويثيروا حوله الشك والريب ، وكأنَّ ثمة فئة من الناس تسـتكثر على هذا الانسـان أن يبقى له مرجع واحد ثابت لايتطرق إليه الظن ، يرقى بهذا الانسان مما آل إليه من الانحدار •

والعجيب أن القـرآن الكريم أحال الناس من قديم على مخلفات الأمم البائدة وآثارها ، قبل أن يتقدم علم الآثار ليقرأ فيها الباحثـون أخبار الأمم ويسـتنطقوها

أحوالهـا : تأمل قولـه تعالى : « وإنَّكم لتَمُرُّونَ عليهم مُصْبِحِيْن وبالليل ... » . وقال لفرعون : « فاليـومَ نُنَجِّيك بِبَدَنِكَ لِتكونَ لمنْ خَلْفَكَ آية .. » .

لقد أثيرت أسئلة حول موسى عليه السلام وعلاقة فرعون بقومه ، وزعم بعض المبشرين أنه كان مجرد طاغية كافر ، ليس بينه وبين قومه علاقة عبادة ، وأطلق بعض المبشـرين ألسنتهم بما شـاء لهم أدبهم في حق القـرآن . وأثيرت أيضاً ريبة حول ابراهيم عليـه السـلام ووجوده ، أثار المسـتشرق اليهودي جولدتسـيهر هـذه الريبة [1] .

لكن تقـدم علم الآثار وتفوق العلماء في قراءة الأحافير جاء ليسـجل مصداق ماجاء به القـرآن الكريم ، وأنه صحح أخطـاء في تراث الأمم السـابقة ، وتفـرد بمعلومات دقيقة لم تكن معروفة عند أحد من العالم .

أما بشـأن فرعون فقد تبين من الآثار أنه كان يقيم نوعاً من علاقة التأليه مـع شعبه . كما اكتشفت جثته التي تفرد القرآن بالاخبار عن نجاتها : « فاليوم نُنجِّيك بِبَدنِكَ لتكون لمن خلفك آية » . وعقد الدكتـور موريس بوكاي فصلاً هاماً حول هذه القضية وهو قد شاهد « مومياء » فرعون هذا بنفسه في متاحف القاهرة واختتم الفصل بقولـه : « أيُّ بيـانٍ رائع لآيات القـرآن ذلك الذي يخص بدن فرعون والذي تهبه قاعـة المومياات الملكية بدار الآثار بالقاهـرة لكل من يبحث في معطيات المكتشفات الحديثة عن أدلة على صحة الكتب المقدسة » .

وأما بشأن ابراهيم الخليل عليه السـلام فقد جاءت الحفريات لتثبت أخبـار القرآن عنه وعن قومه تلك التي قام بدراسـتها « ليونادرو وولي » وألف بناء عليها

(1) في أوائل كتابه « العقيدة والشريعة في الاسلام » ص ١٢ وما بعدها .

(2) في كتابه القيم « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة » ص ١٤٩ ـ ٢٧١ .

كتابه عن ابراهيم ، واذا به يخبر عن قوم بابل وعبادتهم للنجوم ، وأن عبادة القمر سابقة على عبادة الشمس خلافاً لما قد يتبادر للذهن ، وأن رب الأرباب عند اليونان هو كوكب المشتري وليس الشمس أو القمر ، ومن ذلك قدم القرآن ذكر الكوكب في قصة ابراهيم « فلما رأى كوكباً قال هذا ربي ... » [٣] .

وأخيراً صدق الله العظيم : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مَدْيَن تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ماأتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » .

* * *

(١) انظر التفاصيل المثيرة في كتاب « ابراهيم أبو الأنبياء » لعباس محمود العقاد رحمه الله .

الفصل التاسع عشر

الكون في القرآن

وموقف القرآن من العلوم الكونية

هذا البحث من الدراسات التي أجداها تقدم العلم في ابراز وجه عظيم من أوجه إعجاز القرآن وهو إعجازه العلمي ، ولا يزال الدارسون يفيضون فيه مع ظهور الجديد في العلم ووسائله ، وكلما استقر قرار العلم في مسألة ما باعطاء الحكم الجازم أو استخلاص النتيجة النهائية فيها .

ونستطيع أن نوجز إعجاز القرآن في ركنين أساسيين :

الأول : ما احتواه القرآن من المعارف عن الكون وأصناف المخلوقات . وفي هذا يقول الدكتور موريس بوكاي [1] : « ان أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص (يعني القرآن) لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة ، فهناك الخلق ، وعلم الفلك ، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، والتناسل الانساني ، وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لانكتشف في القرآن أي خطأ .

الركن الثاني : وقد يستغربه القارىء : وهو ان مالا يحتويه القرآن هام أيضاً، فان القرآن « لايحتوي في الواقع على ذكر النظريات السائدة في عصر تنزيله ، عن

---

(١) دراسة الكتب المقدسة ، ص ١٤٥ .

تنظيم العالم السماوي مثلاً،تلك التي أثبت العلم فيما بعد عدم صحتها ٠٠ ولا بد من التنويه بهذا الطابع السلبي ، كما يقول الدكتور موريس بوكاي [١] ٠

والسبب في ذلك أنه لو كان مصدر القرآن غير سماوي لكان لازماً قطعاً أن تتسرب إليه نظريات ذلك العصر ٠

ومن هنا كانت النتائج خطيرة ومتباينة جداً لدى الدراسة المقارنة ، والتي توصل إليها عالم كبير لم يكن لدى تصديه للدراسة مسلماً ، هو الدكتور موريس بوكاي نفسه ، فاستمع إليه يحدثك عن النتائج [٢] :

« لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم ، وذلك دون أي فكر سابق ، وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي [١] استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لايحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث ٠

وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل .

أما بالنسبة للعهد القديم : فلم تكن هناك حاجة للذهاب الى أبعد من الكتاب الأول ، أي سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لايمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا ٠

وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة ونعني بها شجرة أنساب المسيح ٠ وذلك أن

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٥ ٠

(٢) دراسة الكتب المقدسة ، ص ١٣ ــ ١٤ ٠

(٣) تعلم الدكتور موريس بوكاي اللغة العربية باتقان حتى يتمكن من دراسة القرآن بنفسه ، فليعتبر بذلك شبابنا ٠

نص انجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لايتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الانسان على الأرض ... » .

« وسيجد القارىء في الجزءين الأول والثاني في هذا الكتاب أمثلة صحيحة في ذلك . أما الجزء الثالث فسيجد فيه القارىء أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة (يعني القرآن) ، وهو تطبيق لم يكن ليتوقعه الانسان ، كما سيجد القارىء في ذلك بياناً لما قد جاء به العلم الحديث الذي هو في متناول كل يد من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية التي ظلت حتى الآن مستغلقة أو غير مفهومة ، ولا عجب في هذا إذا عرفنا أن الاسلام قد اعتبر دائماً أن الدين والعلم توأمان متلازمان » .

الأصول العامة لحديث القرآن عن الكون :

فإذا أردنا بعد هذا أن نزداد فهماً للقرآن في حديثه عن الكون فتأملنا حديثه هذا وما اشتمل عليه من المعلومات والمعارف فاننا نجد أن هناك أصولاً عامة يجب أن تكون نصب أعيننا لدى دراسة الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكون ، وهذه الأصول هي :

١ ــ ان القرآن الكريم لم يتخذ العلوم الكونية موضوعاً من موضوعاته الأساسية ، بل كان غرضه الأكبر هو هداية الناس . « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » . « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » .

فهو لم يضع نظريات في العلوم ، وليس يرفع من قدره أن يفعل ذلك ، لأن هذه العلوم إذا خلت من الهداية تحولت الى نقمة تحيق بالانسانية . كما هو مشاهد لنا على مستوى الأفراد والجماعات والدول ، فحسب القرآن أن ينشيء المجتمع الفاضل ، لكنه في الوقت نفسه قد أرسى أسس تقدم العلم بما رسخ من مفاهيم صحيحة ، وأبطل من أفكار زائفة .

٢ ـ إن العلوم الطبيعية خاضعة للتدرج يوماً بعد يوم فترك القرآن بحث النظريات العلمية ابتلاء للناس كما ترك غيرها من الوسائل الحيوية والمهن والصناعات والحِرَف ليترك المجال مفتوحاً وليستحق كل بما يقدمه • وقد وقف القرآن من هذه العلوم موقف المؤيد الموافق لها فأمر بها وحض الناس على النظر في مظاهر الكون وما تكنه من أسرار ودلائل مما أودعه الخبير القدير من أعاجيب الخلق والتكوين وبين القرآن أن حقائق هذا الكون فيها عبرة للعقلاء من الناس : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » •

٣ ـ قرر القرآن أن الكون خادم الانسان مسخر له ، وأثبتت العلوم الحديثة ما قرره القرآن ، والتاريخ الاسلامي لم يعرف الانفصال بين عالم الدين وعالم الطبيعيات ، فلا عداء بين الاسلام والعلوم الكونية قديمها وحديثها لأن الكون في مفهوم القرآن مسخر كما بينا للانسان بخلاف ما ساد في أوربة حتى عهد قريب من أن الانسان وجد في جو يعاديه وأن الكون يصارع الانسان •

وقد أثبتت الأبحاث العلمية المتقدمة أن هذا الكون خادم للانسان ، وأن مجال انتفاع الانسان منه لايمكن أن يحيط به الحصر ، بل يخضع لمدى قدرة الانسان على الانتفاع به ، وذلك ما أشار إليه القرآن في مواطن كثيرة كقوله تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » وقوله : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه ... » •

٤ ـ إن القرآن تكلم عن حقائق الكون ولم يتبنَّ نظريات علمية ، لكنه تكلم ولفت النظر الى ما في الكون من عجيب الصنع وكان هدفه الاستنباط والاستدلال على المكون الخالق والامتنان على الناس بما أنعم الله عليهم • وهذان الغرضان متلازمان مع الهدف الذي من أجله جاء القرآن ، فالمنة والانعام تستدعي الشكر والطاعة والتقرب الى الله تعالى •

ومن ثم جاء موقف هام آخر للقرآن ، وهو أن القرآن في حديثه عن الكون جاء من حيث طريقته جامعاً بين الاجمال والتفصيل ، وفي هذا الحديث نجد التوافق

بين القرآن والعلم قرناً فقرناً ، وهنا يظهر عنصر معجز عظيم لأن القرآن في حديثه عن الكون انعتق من التأثر بما كان عليه أمر الناس من علوم ونظريات سائدة في ذلك العصر ، ولذلك نجد أن كثيراً من مواقف القرآن الكريم يزداد على مدى الزمن وضوحاً ودقة ، بعد أن كان يفهم فهماً إجمالياً ، فمثلاً علم الأجنة علم حديث العهد بالوجود ، ولم تكن لدى العلماء فكرة واضحة دقيقة عن جو تكوين الجنين ، وقد لخصه الله سبحانه وتعالى بقوله : « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث » فجاء علم الأجنة ليقرر أن الوليد يعيش في ثلاثة أغشية .

وهكذا توصل التقدم العلمي الحديث الى ما سبق أن قرره القرآن منذ أربعة عشر قرناً . وهذا الموقف للقرآن من العلوم كان له أثر في تحرر الناس من الخرافة والأوهام وفي تقدم العلوم على أيدي المسلمين بعد أن كان العالم في الظلمات حتى تتلمذ العالم عشرة قرون على يد المسلمين والعرب الذين منهم انبثقت الشعلة، وإنا لنرجو أن تحقق هذه الأمة بتقدمها الخلقي الديني وما ينبثق عنه من تقدم علمي مجداً يسابق مجدها القديم برسالتها الخالدة في انقاذ الانسانية وهداية بني الانسان .

شروط تفسير الآيات الكونية

يحاول كثير من العلماء المخلصين تفسير الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكون ، وإبراز ما في تضاعيفها من موافقة مكتشفات العلم ، وكثيراً ما أوغل بعضهم وتكلف ، مما لا يتفق مع أصول علم التفسير ، ونقتبس على هذا الصنيع ملاحظتين من فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ محمد أبو زهرة [1] تشملان على شروط قبول هذا التفسير :

الملاحظة الأولى :

انهم يحاولون أن يحملوا القرآن نظرياتهم . وعليهم أن يفهموه كما تبين ألفاظه وكما تومي إشاراته ، وأحياناً يأتون بنظريات لم تكن حررت بعد من الشك والنظر ، وقد تتغير .

---

(1) في كتابه « المعجزة الكبرى » ص ٥٥٢ .

ولا يصح أن يبقى القرآن تتردد معانيه باختلاف النظريات ، بل إن الواجب أن ندرس ما في القرآن على أنه حقائق ، فما وافقه من العلوم قبلناه .

الملاحظة الثانية :

ان يدرس الكون في القرآن على أنه (يعني القرآن) حقائق ثابتة هو موضع التسليم من المؤمن بالله تعالى وبالقرآن ، فلا تجعل حقائقه (القرآن) موضع نظر ، بل إن الايمان بالقرآن يوجب الايمان بكل ما اشتمل عليه ، ولا يصح لنا أن نترك ظاهر القرآن ونتجه الى تأويله ، إلا أن يكون الظاهر يقبل التأويل وتكون حقائق العلم الثابتة تقتضي الأخذ بالتأويل الذي يحتمله القرآن من غير تعسف ، ولا خروج بالألفاظ الى غير معانيها .

وإننا بهذه الدراسات العميقة المُسلّمة بحقائق القرآن نفتح مغاليق في العلم ، وتتكشف الحقائق الكونية بهداية من القرآن على أنه المرشد لها ، وليس التابع ، ولا الخاضع . وكتاب الله تعالى هو كتاب الحق ، والصدق والعلم ، لأنه من عند الله تعالى الذي لايخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض ، وهو كتاب الوجود لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

* * *

الفصل العشرون

في

حكم ترجمة القرآن الكريم

هذا موضوع حاق ، والحاجة لبحثه ضرورية . فقد انتفع بفهم معاني القرآن أقوام فآمنوا ، وازداد آخرون ايماناً ، وضل قوم بسوء ما فسّر لهم القرآن بغير لغته ، وصدهم ذلك التحريف لمعانيه عن الايمان .

ونرى لزاماً علينا لبحث الموضوع بحثاً علمياً منهجياً أن نقسم الترجمة الى قسمين :

القسم الأول : الترجمة الحرفية .

القسم الثاني : الترجمة التفسيرية .

القسم الأول ـ الترجمة الحرفية :

الترجمة الحرفية : هي أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى ، ترجمة تحاكيه حذواً بحذو ، بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته ، وأسلوبها محل أسلوبه .

وهذه الترجمة مستحيلة في حق القرآن العظيم وذلك لسببين أساسيين :

أولهما : كونه معجزة للبشر لايقدرون على الاتيان بسورة مثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

الثاني : انه هداية للناس تؤخذ منه الأحكام ،وتستنبط الفوائد والتوجيهات وهذا الاستنباط لايؤخذ فقط من المعاني الأصلية التي يسهل فهمها والتعبير عنها بلغات أخرى ، بل ان كثيراً من الاستنباطات إنما يستفاد من المعاني الثانوية : مثل إشارة النص ، ودلالة النص ، الى آخر ما هنالك ، ومن غير الممكن أن يحافظ في الترجمة على المعاني الثانوية هذه ، لأنها لازمة للقرآن لاتنتقل الى اللغات الأخرى .

القسم الثاني ــ الترجمة التفسيرية :

الترجمة التفسيرية أو المعنوية : هي شرح الكلام بلغة أخرى على قدر طاقة الانسان ، فهي في الواقع تفسير لمعاني القرآن لكنه مكتوب بلغة غير لغة القرآن . بأن نفهم المعنى المراد من النص قدر طاقتنا ثم نعبر عنه باللغة المترجم إليها على وفق الغرض الذي سيق له .

وهذه ولا شك ممكنة ، لايماري فيها أحد .

ويمكن أن نتبين الفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة المعنوية التفسيرية بالتطبيق العلمي على مثال هو هذه الآية : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » [1] .

لو أراد المترجم أن يترجم هذه الآية الكريمة ترجمة حرفية ، لقال بلغة أخرى « لا تربط يدك الى عنقك ولا تمدها غاية المد .. » . وهذا تعبير بعيد عن المقصود الحقيقي للآية ، يثير استنكار القارىء غير العربي ، لأنه مثير للاستغراب ، ولا يفهم منه المعنى الذي قصده القرآن وما فيه من التشبيه البليغ .

أما إذا أراد ترجمتها ترجمة تفسيرية فانه يبين نهي القرآن عن الضدين : التقتير والتبذير ، وقد عرضهما القرآن مصوَّرين صورة شنيعة ينفر منها الانسان ، فان الكلام الذي فسرت به الآية باللغة الأخرى يكون مفهوماً للقارىء الأعجمي ومقبولاً عنده ومؤثراً فيه . وشتان ما بين العملين ، وما أبعد ما بينهما .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الاسراء .

حكم الترجمة التفسيرية :

ان تفسير القرآن الكريم علم جليل ، وهو من العلوم التي فرض الله على الأمة تعلمها وتعليمها ، والترجمة التفسيرية هي تفسير للقرآن الكريم بلغة أخرى غير اللغة العربية ، فكانت هذه الترجمة فرضاً مما فرضه الله تعالى على الأمة ، بل هي الآن أكثر فرضية لما يترتب عليها من الواجبات المحتمة ، مثل تبليغ معاني القرآن على وجه صحيح الى المسلمين غير العرب ، وكذلك الى غير المسلمين أيضاً ، ومثل المحافظة على العقيدة الاسلامية من التحريف الخاطىء أو المتعمد الذي كثر فيما يسمى ترجمات القرآن ، مما يشوش عقيدة قارئها المسلم ، ويصد غير المسلم عن دين الله تعالى وكذلك الدفاع عن القرآن بكشف أضاليل المبشرين والمستشرقين الذين تعالت أصوات الشكايات من دسهم وتزييفهم .

شروط الترجمة التفسيرية :

ولتكون الترجمة التفسيرية ترجمة صحيحة ومؤدية للغرض المطلوب ، وبعيدة عن أي ضرر فقد اشترط العلماء المعاصرون في إعدادها وطبعها الشروط التالية :

١ ــ ان تكون مستوفية شروط التفسير التي سبقت . وذلك يوجب على المترجم استحضار معنى الأصل من تفسير عربي مستوف لتلك الشروط . أما اذا استقل برأيه ولم يكن أهلاً لذلك ، أو اعتمد على تفسير غير مستوف للشروط فلا تكون هذه الترجمة صحيحة ولا جائزة . وينطبق عليها الوعيد الشديد والاثم الأكيد فيمن قال في القرآن برأيه المجرد .

٢ ــ أن يكون المترجم بعيداً عن الميل الى أي عقيدة زائغة تخالف عقيدة القرآن ، وهذا شرط في الأصل التفسيري أيضاً كما هو معلوم .

٣ ــ أن يكون المترجم عالماً باللغتين : المترجم منها والمترجم إليها معرفة خبرة بأسرارهما ، وعلم دقيق بوجوه وضع اللغة ، وطرق الأساليب ، واختلاف الدلالة بحسب الأسلوب في كل من اللغتين .

٤ ـ ان يراعى في طباعة الترجمة التفسيرية اشتمال الطبعة على القرآن أولاً ، ثم تفسيره العربي ثانياً ، ثم يتبع ذلك بترجمته التفسيرية ، حتى لايتوهم متوهم أن هذه ترجمة حرفية للقرآن .

وبهذا يأتي العمل متكاملاً ، ميسّراً لقراءة القرآن ، ولفهم معانيــه للقارىء العربي ، كما يُسهّل قراءة القرآن لغير العربي ويُمكّنه من فهم معانيه ، ويُقرب له شيئاً فشيئاً فهم اللغة العربية،ولاسيما بالمقارنة بين المحفوظ من القرآن والتفسير .

والجدير بالذكر أن بعض البلاد الاسلامية طبعت المصاحف محاطة بتفســير باللغة المحلية في هامش المصحف ، كما فعل الايرانيون والباكستانيون ، وليت هــذا التفسير يكتبه أولاً فريق من العلماء أهل الاختصاص اذن لكــان العمل أســلم وأجدى (١) .

★ ★ ★

(١) انظر التوسع في هذا الموضوع في منهج الفرقان في علوم القرآن لمحمد على سلامة ج٢ ص ٧١ ـ ٩٠ ومناهل العرفان ج٢ ص ٦ ـ ٢٥ وديباجة ابن قتيبة لكتــابه مشكل القرآن . والتفسير والمفسرون ج ١ ص ٢٣ ـ ٣٠ والمعجزة الكبرى ص ٦١١ ـ ٦١٩ وغيرها .

خاتمة في واجباتنا نحو القرآن

وبعد : فلولا القرآن لما خرج العرب من جزيرتهم ، ولما كان لهم شأن يذكر ، بل لما خرجت الانسانية من دياجير الظلام الى نور الحضارة والعرفان ، وإن واجب الأمة الاسلامية عامة والعرب منهم خاصة أن يتدارسوا القرآن حق درسه ، ويحفظوه باستظهار لفظه ، والعمل بأحكامه ، ويعتنوا كل العناية بذوق بلاغته وأسلوبه ، وإدراك أسراره وإعجازه ، ثم يحملوا للعالم دعوته ورسالته ، امتثالا للمسؤولية الخطيرة التي حملها القرآن المسلمين عامة والعرب خاصة ، وهي رسالتهم الخالدة التي بها عزهم وسؤددهم واحترامهم في العالم ، كما قال عز وجل : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » .

وإن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته ، كما ورد بذلك الحديث الشريف ، وهم محفوظون بحفظ الله وعنايته ، لأن حفظ كتاب الله تعالى لايتم الا بحفظهم ووقايتهم وقد قال عز من قائل : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

جعلنا الله تعالى من حفظة كتابه ، الرافعين لمنارته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

* * *

الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
١٤٥	١	أتفالا	أنكالا
٢٤١	٧	أولا : جمع	جمع
٢٥٤	٧	بسب	بسبب
٣٢٧	٦	والملكية	والملكة
٣٢٧	٧	تبنيت	تبينت
٣٢٩	٧	يفوق	يفرّق
٣٣٠	١٣	الحق	والحق
٣٣٠	٢٠	وبقوله	وقوله
٣٣٥	١٢	المحدو	المحدود
٣٣٦	٧	البديم	البديع
٣٣٦	١٨	تنفرد	لاتنفرد

كتب للمؤلف

- الامام الترمذي والموازنة بين جامعه وبين الصحيحين (الطبعة الثانية) ٠
- علوم الحديث ، للامام ابن الصلاح (مقدمة ابن الصلاح) « تحقيق » (الطبعة الخامسة) ٠
- الحج والعمرة في الفقه الاسلامي (الطبعة الخامسة) ٠
- هَدْيُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصلوات الخاصة (الطبعة الثانية) ٠
- منهج النقد في علوم الحديث (الطبعة الخامسة) ٠
- ماذا عن المرأة ؟ (الطبعة الثامنة) ٠
- المعاملات المصرفية والربوية وعلاجها في الاسلام (الطبعة الثامنة) ٠
- أبغض الحلال ٠ (الطبعة السابعة) ٠
- شرح علل جامع الترمذي ، للامام ابن رجب الحنبلي « تحقيق » (الطبعة الثالثة)٠
- تفسير أم القرآن في ضوء السنة النبوية وعلوم اللغة والبلاغة العربية ٠
- الفكر المسلم (يصدر قريباً ان شاء الله) ٠
- السنة المطهرة والتحديات (الطبعة الثالثة) ٠

الفهرس

* * *



صدر باشراف لجنة الانجاز

سعر المبيع للطالب (١٢٥) ل.س

مطبعة الإتحاد